
النشاط الجنسي
وصراع الطبقات
رايموت رايش
ترجمة محمد عيتاني
دار الآداب

هذا الكتاب

« هـذا الكتاب العلمي يقدم خدمة جليلة الى القراء العرب الذين يبحثون عـن اسهام في حلول صحيحـة لمشاكلهم على اسس منهجية سليمة ، وبصرف النظر عن المحرمات الغيبية التي لم يعد لها من مكان في هذا العصر .. فهو يدرس، على اساس علمي وإحصائي ، نظري وتجريبي ، مسائل الحياة الجنسية ومشاكلها في مجتمعين اساسيين من المجتمعات الرأسمالية المتطورة : جمهورية المانيا الاتحادية والولايات المتحدة الاميركية حيث يحدث التطور - ليس نحـو الافضل - لاوضاع الحيـاة والعـلاقات الجنسية تحت نير الاستثمار الرأسمالي الاحتكاري ، والشروط الاقتصادية والنفسية ، الضروري توفرها مسبقا ، للنضال ضد القمع الحقيقي الذي تعانيه الطبقات الشعبيـة في اوضاعها الاقتصادية والمعاشية ، وبالتالي ، الجنسية .

ويضع المؤلف يده على العلل الرئيسية التي تطبع مشاكل هـذه المجتمعات الرأسمالية في ميدان الجنس والصراع الطبقي ، وهي ادماج كل الحياة الجنسية لجميع فئات الامة داخل النظام الاحتكاري القائم ، ومسخ الحيـاة الجنسية وجعلها مجرد سلعة ، واعطاؤهـا وظيفة غرض استهلاكي ، وحرمـان الجسد البشري - معجزة الطبيعة الرائعة - من مزاياه الجنسية والوجـدانية ، وحرف الغرائز الجنسية نحو نزعة عدوانية موجهة .. وليس هـذا كله سوى الشكل الراهن للاستثمار الرأسمالي .. ولذلك فان مسألة « الاستراتيجية الجنسية » لن تجد مكانها الا في المجمل المتلاحم من النضال السياسي المضاد للرأسمالية ، دفاعيا وهجوميا ..

وقد اعتمد المؤلف على منهجين قد يبدوان متناقضين : هما المنهج الماركسي والطريقة الفرويدية (علم التحليل النفسي) ليؤكد قانونا اساسيا له صفـة الشموليـة ، ويمكن ان نفيد من تطبيقه في سائر المجتمعات النامية ، بما فيها مجتمعنا العربي ، وهو « قانون التكييف الرأسمالي التضليلي لمظاهر وممارسات العلاقات والحياة الجنسية لخدمة المجتمع الرأسمالي ، مجتمع الاستثمار والاضطهاد لجماهير المنتجين »

رايموت رايش

النشاط الجنسي وصراع الطبقات

اعادة الاعتبار الى التسامي الجنسي

ترجمة محمد عيتاني

منشورات دار الآداب - بيروت

الطبعة الثالثة
١٩٨٦

مقدمة

هذا الكتاب العلمي يقدم خدمة جليلة إلى القراء العرب ، وإلى جميع أبناء الأمة العربية الذين يبحثون عن إسهام في حلول صحيحة لمشاكلهم ، على أسس منهجية سليمة ، وبصرف النظر عن المحرمات الغيبية التي لم يعد لها من مكان في هذا العصر .

ولكن قبل الحديث عن نوع الخدمة الذي سيقدر لهذا الكتاب الجليل تقديمها للقراء العرب ، ولمجمل قضايا المجتمع العربي ، يجب أن نعرّف القارىء إلى عناصر هذا الكتاب ، ومنهجه ، وبعض معطياته الأساسية .

فكتاب «النشاط الجنسي وصراع الطبقات» يدرس ، على أساس علمي وإحصائي ، نظري وتجريبي ، مسائل الحياة الجنسية ومشاكلها في مجتمعين أساسيين من المجتمعات الرأسمالية المتطورة ، تكاملت ، كما يبدو ، فيهما المعطيات لدراسة هذه القضايا : وهما مجتمع جمهورية المانيا الاتحادية ، والولايات المتحدة الأميركية .

*

بعد المرحلة الفاشية في المانيا ، لم يتضمن عملياً أي برنامج للحركة الاشتراكية أو للمعارضة القائمة في أقصى اليسار ، مطالب سياسية تتصل بميدان العلاقات الجنسية والحياة الجنسية عامة . فنقابات الحزب الاشتراكي الديمقراطي الالماني

مثلاً (وهو الحزب الحاكم حالياً في المانيا الغربية) لم تفهم قضية انعتاق المرأة إلا على مستوى استيعاب اجتماعي وحقوقي يساوي وضع المرأه بالوضع الراهن للرجل ، كما أن هذه النقابات كثيراً ما كانت — وما تزال — تتوقف في حلولها عند التسويات . ومعروف أن التسويات ، في قضايا شديدة الحساسية ، كمسائل الحياة الجنسية ، والموقف من قضايا المرأة ، ذات أخطار وبيلة لا سيما في مجتمعات وضع أكثر ما فيها من أجهزة الاعلام الجماهيرية ، كما يوضح المؤلف في سياق كتابه ، في خدمة الاحتكارات الاستثمارية . وهكذا فالتسوية ستكون على حساب شطر من المجتمع ، هو النساء ، ما زال ، حتى في بلدين من أكثر البلدان الرأسمالية تطوراً يعاني قسوة التمييز وصعوبات العيش ، مما يزيد من عاهات المجتمعين المذكورين ومشاكلها التي تتعرض الطبقات الشعبية الدنيا ، على الأخص ، للشطر الأعظم من أخطارها .

إن مطالب سياسية ، مثل الغاء القوانين التي تحظر عمليات الاجهاض ، وتحرم الجنسية المثلية (اللواط والسحاق) ليست في آخر تحليل سوى مناورات تتخبط في قلب هذه المشاكل والقضايا ، وليست حلولاً جذرية لها . وعلى كل حال ، فإن هذه المطالب السياسية — الجنسية ، تظل ، في المانيا الاتحادية مثلاً ، محصورة داخل حلقات ضيقة ، « انسانيه النزعة » ، وهي لم تؤد ، في أفضل حالاتها ، إلا إلى أعمال قصيرة الأمد ، وإلى عرائض قدمت إلى البرلمان الالماني الغربي . كما أنه لم تقم ، بعد زوال الفاشيه من المانيا ، حركة تماثل في شمولها وقوتها حركة **السيكسبول** (السياسة الجنسية) ، مثلاً التي نهضت خلال فترة ما قبل النازية ، داخل وإلى جانب المنظمات العمالية .

*

وهذا الكتاب«**النشاط الجنسي وصراع الطبقات**»لمؤلفه رايموت رايش،مع كونه النتيجة الملموسة لأحدث المناقشات النظرية ، والمعارك السياسية الجارية

اليوم في ميدان الدراسة النظرية والتجريبية للحياة الجنسية وكل ما يتصل بها من قضايا اجتماعية وطبقية وانسانية ، وفي ميدان السياسة والتحرر الاجتماعي ، إنما يقتصر في معالجاته الأساسية على التغير الوظيفي الخطير الذي يحدث حالياً في أرقى البلدان الرأسمالية المتطورة : التطور - ليس نحو الأفضل - لأوضاع الحياة والعلاقات الجنسية تحت نير الاستثمار الرأسمالي الاحتكاري ، والشروط الاقتصادية والنفسية ، الضروري توفرها مسبقاً ، لنضال ضـــد القمع الحقيقي الذي تعانيه الطبقات الشعبية في أوضـاعها الاقتصادية والمعاشية ، وبالتالي ، الجنسية .

ويضع مؤلف الكتاب يـده على العلل الرئيسية والعاهات الأساسية التي تطبع مشاكل المجتمعات الرأسماليـة المذكورة ، في ميدان الجنس والصراع الطبقي ، وهي : إدماج كل الحياة الجنسية لجميع فئات الأمة داخـــل النظام الاحتكاري القائم ، ومسخ الحيـاة الجنسية وجعلها مجرد سلعة ، واعطاؤهـا وظيفة غرض استهلاكي ، وحرمان الجسد البشري - معجزة الطبيعة الرائعة - من مزاياه الجنسية والوجدانية ، واضفاء طابع جنسي ووجـداني ظاهري على العلاقات البشرية ، وكذلك على عـلاقات البشر بانتاجهم ، وكبح الرغبـات والغرائز الجنسية وصرفها في الوقت نفسه نحو نزعـة عدوانية موجهة - وهو شيء شديـد الخطورة على شعوب أخرى ، فضلاً عن الشعب نفسه ، صاحب العلاقة - إن جميع طرائق التكييف التضليلي المزيف لفئات المجتمع المختلفة ، ولا سيما الفئات الوسطى والبورجوازية الصغيرة ، وفئات العمال والفلاحين ، أي ما يشكل السواد الأعظم من كادحي البلدان الرأسماليه المتطورة ، إن جميع هـذه الظاهرات ليست سوى الشكل الراهـن للاستثمار الرأسمالي ، متسترة بالعديد من الأقنعة المموهة ببراعـة . ولذلك ، كما يخلص المؤلف إلى القول ، فما من « استراتيجية جزئية » ولا استراتيجية جنسية على وجـه التخصيص ، تستطيعان أن تواجها على قدم المساواة وبحظوظ متساوية في الصراع ، هـذا

الاستثمار الاحتكاري . لذلك فقد قاد رايموت رايش تفكيره المنطقي، على أساس المعطيات العلمية التي منهجها في بحثه بصورة مقنعة ومتكاملة ، إلى وضع مسألة « الاستراتيجية الجنسية » في موضعها الحقيقي ، حين أكد أن هذه الاستراتيجية لن تجد مكانها إلاّ في المجمل المتلاحم من النضال السياسي المضاد للرأسمالية ، دفاعياً وهجومياً ، وهي استراتيجية لا يمكن إضافتها ، بما يشبه الإلحاق أو الإلصاق ، بل ينبغي أن تنصهر بصورة عضوية في هذا النضال .

*

والآن : هل ثمة نواح سلبية في الكتاب ؟

لقد بلغ من أمانة الكاتب للمنهج العلمي التقدمي أن قام في تذييلاته الختامية لطبعة الكتاب الانكليزية بانتقاد ذاتي لكتابه ، منهجاً واستنتاجات، ولخصها في أنه كان لديه انحراف، وجده على شيء من المبالغـة ، نحو المنهج الفرويدي على حساب المادية التاريخية . وقد صحح المؤلف هذا الانحراف في تذييلاته الواردة في آخر الكتاب ..وكذلك انتقد وضعه آمالاً مفرطة بعض الشيء في آفـاق الحركات الطلابية لثورة الرفض الجنسية الاجتماعية . ولا حاجة لإيراد انتقادات المؤلف في هذا المجال لأنه فصلها بصدق وأمانة علمية في خاتمة كتابه .

لقد اعتمد المؤلف ، في وصوله إلى هذه النتائج ، وعرضه هذه المعطيات ، على منهجين قد يبدوان للبعض متناقضين ، غاية التناقض ، أو على الأقـل غير متجانسين : المنهج الماركسي ، والطريقة الفرويدية (علم التحليل النفسي) مع استكمال انجازاتها ـ ولا سيما بالنسبة للفرويدية وشرّاحها ومطوّريها ـ للتمكن من معالجة قضايا شديدة الحرارة والمعاصرة .

وفي هذا الصدد ينبغي القول إن البـاحثين الماركسيين ، قد أعادوا النظر خلال الأعوام الأخيرة ، في جملة ما أعادوه من مقولات ومفاهيم جدتها الفترات السلبية من المرحلة الستالينية، والتبعية الفكرية غير الانتقادية لماركسيي الأحزاب

الشيوعية خارج الاتحاد السوفياتي . هذه المفاهيم والمقولات تتعلق بـ : الماركسية وعلم الاجتماع – الماركسية وعلم الحياة – الماركسية وعلم النفس – الماركسية والتحليل النفسي ، موضوع حديثنا ، أقول إن الباحثين الماركسيين ، لا سيما في الاتحاد السوفياتي وفرنسا ، قد أعادوا اليوم تقييم أبحاث فرويد ، وفقاً للمنهج العلمي الأساسي ، منهج المادية الديالكتيكية. فاكتشفوا على الأخص أن الأبحاث العيادية لسيجموند فرويد ، والعديد من إضافات تلامذته – أدلر ، فينيشيل ، أنا فرويد ، ولا سيما قراءة ميشال لاكان الجديـــدة لفرويد – ، وهي قراءة تصحيحية في الأساس – تندرج ، بل يجب أن تندرج في المعطيات العلمية للنظرة العلمية – أي الماركسية – عن العالم . وأنه لا يصح اعتبار الأبحاث البافلوفية – وهي فيزيولوجية في أساسها وإن كانت عبقرية الآفاق – سوى أحد الأسس لتأسيس علم نفس علميّ متكامل . صحيح أن التوفيق لم يحـــالف بعض التفسيرات الاجتماعية التي بناها فرويد على استخلاصاته الطبية العيادية (مثلاً : تأكيده بأن الانفعال اللاواعي le ça والليبدو الجنسي يؤديان تلقائيـــاً إلى الحروب ، متناسياً مجموعة من التطورات والمصالح الطبقية والوسائط والأبنية التي يخضع لها الانفعـــال اللاواعي ليصير إلى تلك النتيجة الاجتماعية الخطيرة التي هي : الحرب) لكن مساهمات فرويد في الكشف عن قوى العقل الباطن تظـل ذات أهمية خطيرة بالنسبة للعلم في مجموعه . ومن فضائل كتاب رايموت رايش هذا أنه حاول أن يملأ ثغرات العـــلم الفرويدي بالنظرات الماركسية المعروضة بشكل انتقـــادي خلاق . وعلى كل حال ، فإن نظرية الشخصية الإنسانية ، نظراً لخضوعها عبر تاريخها ، وفي الوقت الحاضر على الأخص لعدد لا يحصى من الخضات ،والهزات، وإعادات النظر ، والتفسيرات المختلفـــة ، تظل نظرية متطورة ، آخذة في التكون والنمو والتكامل . وكل ما هناك يشير إلى أنها تتجه في هذا السبيل التكاملي اتجاهاً إيجابياً ، أي أنها تغتني باستمرار بمعطيات جديدة . والدليل ، هو هذا البحث الميداني المحدد لرايموت رايش ، فهو إضافة علمية جليلة إلى المنهج العلمي الشامل : أي الماركسية المغتنية بجميع إضافات العلوم الإنسانية الأخرى ، ولا سيما الانتروبولوجيا ، وعلم الاجتماع ،

وعلم النفس ، وعلم التحليل النفسي . صحيح أن هنــاك فوارق جذرية ، ومن مجموعات معينة من المجتمعات ومجموعات أخرى ، (المجتمعــات الآسيوية ، النامية – والمجتمعات الأوروبيــة المتطورة ، والمجتمعات البدائية ، أواسط افريقيا – وأوقيانيا الخ البدائية) لكن المؤلف أراد من بحثه أن يعالج قضية رئيسية في المجتمع الأوروبي الأميركي المتطور أولاً ، وهي المشاكل المريرة للحياة الجنسية وعلاقتها العضوية بمختلف تصرفات الفئات الاجتماعية ومواقفهــا ؛ لكن رايموت رايش وضع يده على قانون أساسي ، عام فيما أعتقد ، له صفــة الشمولية ، يمكن أن نلتمسه ، ونفيد من تطبيقه في سائر المجتمعات النامية ، بما فيها مجتمعنا العربي ، وهذا القانون هو : « قانون التكييف الرأسمالي التضليلي لمظاهر وممارسات العلاقات والحياة الجنسية لخدمة المجتمع الرأسمــالي ، مجتمع الاستثمار والاضطهاد لجماهير المنتجين » .

*

والآن ، ما هي الخدمــة الأساسية الجليلة التي يقدمها هذا الكتاب لجماهير القراء العرب ، من باحثين مختصين وعامة القراء ؟ إنها ، في رأيي ، خدمــة متعددة الوجوه : منهجية ، وفكرية ، وإعلامية ، واجتماعية وسياسية .

ولكن قبل إيضاح هذه الخدمة، ينبغي أن نلقي نظرة سوسيولوجية سريعة على مجتمعنا العربي ، لنرى أين تقع هذه الدراسة من قضاياه .

فمن الواضح أن شعبنا العربي ، يعيش ، في ميدان هــذه القضية (الجنسية الاجتماعية) أوضاعاً شديدة التفاوت، من حيث التخلف المرير في بعض أقطاره، في أبنية عشائرية قبلية بل وبدائية ، والتطور العاصف الذي لا يخلو من ارتباك وحيرة مسأليتين Problématiques في أقطاره الثورية المتطورة، التي دخلت في السياق العريض للثورة العربية . وكذلك ، فإن بعض الأقطار العربيــة ــ مثل لبنان وتونس والمغرب – التي ما زالت مضطرة ، بفعل ظروف تاريخيــة

وسياسية معينة ، إلى نسخ « النموذج الغربي للحضارة » إنمـــا تعيش المآسي التضليلية الاستثمارية التي تحدث عنها رايموت رايش، بكل تناقضاتها وتعقيداتها، مضافاً إليها سهولة فتك هذه المآسي في أرجاء بلد كلبنان، أو تونس أو المغرب، نظراً لأن بنياتها الأساسية — ولا سيما في الريف — هي بنيات متخلفة اجتماعياً واقتصادياً وإنسانياً في الأساس . وهـذه البنى لا تحتمل ضغط الممارسات التكييفية الاستعمارية الجديدة التي تعجز عن احتمالها المجتمعات الغربية المتطورة دائماً . أضف إلى ذلك كله ، أن المجتمعات العربية ، التي تمر جميعها على كل حال وبدرجات متفاوتة من القوة والزخم ، في ثورة اجتماعية سياسية عارمة ، تمر أيضاً بمراحل تحولية ، وهي بحاجـــة إلى المزيد من معرفة حقائق وقائعهـــا الاجتماعية ، على أساس علمي ، نظري وميداني ، لتحديد مشاكلها وقيـــادة تطوراتها .

وهذا الكتاب يقدم ، في هذا الصدد ، كما سبق القول ، إلى الباحثين العرب المختصين وإلى عامة القراء العرب ، خدمة — بل خدمات — متعددة الوجوه :

١) منهجية ، لأن مؤلفه، مع حشده عدداً كبيراً من المعطيات والمعلومات، ويكفي أنه امتطى فرسين بجليين ، لم يسبق لهما أن التقيا مثل هذا اللقاء الهام والطريف — الماركسية ، والفرويدية — قـــد قاد بحثه بأسلوب علمي استقرائي واستنباطي ، لا تقريري ولا دوغمائي ، بصرف النظر عن كل فكرة مسبقة ، للوصول إلى نتائجه . وقد قام بذلك بصورة تركيبية شمولية ، في حين نرى أن أكثر أبحاث التحليل النفسي العربية ، التي تصدر عن باحثينا المختصين وتنشرها مجلاتنا ودور النشر عندنا ، تظل تجزيئية فضلاً عن فقدان أكثرها البعـــد الاجتماعي .هذا إذا لم تكن مترجمة بكثير من التصرف الكيفي أحياناً أومنتحلة.

٢) فكرية . لأن المؤلف بيّن مدى خدمة المنهج الماركسي الخلاق لقضايا لم يسبق له أن عكف عليها بصورة تخصصية (باستثناء أعمـــال هنري فالون H. Wallon الفرنسي حول تأسيس علم نفس الطفل ، فيما أعلم) .

٣) إعلامية . إذ أن القارىء العربي سوف يطلع في سياق هذا البحث الجاد على مقدار لا يحصى من المعلومات والممارسات الغريبة والطريفة والعلمية ، وذات القيمة المنهجية على كل حال ، من ناحية اختيارها وكيفية استخدام المؤلف لها .

٤) اجتماعية . إذ سوف تطرح أمام كل باحث عربي جدي ضرورة التشمير عن سواعد البحث ، لمسح الخريطة الاجتماعية ـ الجنسية العربية ، الحاضرة ، ورصد تحركاتها ، ومعرفة ما يدور في ميادينها ، وفي ذلك فائـدة ليس للعلم الاجتماعي العربي وحده ، بل وللنضال العربي من أجل التحرر والتقدم والحضارة.

٥) سياسية . وبناء على ما سبق كله. ذلك لأن القيادات السياسية والجماهير الثورية ، يفيدها جداً أن تؤسس حركاتها على حقائق حية ، مهما كانت مريرة ، أو جسورة ، ولا يفيد تلك القيادات ولا الجماهير ، إطلاقاً ، الاكتفاء ببعض الصيغ الجامدة ، ولو كان ذلك في ميدان يعتبره البعض جزئياً ـ أو محرمـاً ، أو غير لائق الخوض فيه ـ وهو بحث حقيقة أوضاع الحياة والممارسات الجنسية في مختلف أقطار الوطن العربي .

وهكذا يمكن اعتبار هذا الكتاب لرايموت رايش نموذجـاً وقدوة لكل بحث عربي جدي عن حقائق مجتمعنا وخفايا قضايانا .

محمد عيتاني

١

ماذا يعني بحثنا في صراع الطبقات والجنس ؟

بعد الحقبة الفاشية في المانيا، لم نجد مطلقاً، من ناحية عملية تطبيقية، أية مطالب سياسية ذات صلة بميدان الحياة الجنسية، ماثلة في برنامج للحركة الاشتراكية أو في برنامج للمعارضة القائمة على أساس أقصى اليسار. إن النقابات، والحزب الاشتراكي الديمقراطي الالماني، شأن جميع المؤسسات الجماعية المتعددة الأطراف، لم تفهم مطلب تحرير المرأة إلا على مستوى تشبيه اجتماعي وحقوقي للوضع القائم للرجل، متوقفة في أكثر الأحيان عند حلول هي عبارة عن تسويات. والمطالب السياسية، مثل مطالب إلغاء القوانين الخاصة بالإجهاض، وباللواطة وبالسحاق (أشتهاء الجنس المماثل homosexualité)، أي بصورة أساسية المطالب ذات نزعة المساواة بمعنى الكلمة البورجوازي والتي أثارت في عهد جمهورية ويمار حركات مطلبية جماهيرية بصدد هذه الموضوعات، لم يجر تطويرها في ظل الجمهورية الثانية إلا داخل حلقات ضيقة ذات نزعة إنسانية، « إصلاحية »، ولم تؤد، في أفضل الحالات، إلا إلى أعمال قصيرة الأجل أو إلى عرائض قدمت إلى البرلمان. ولم تقم بعد زوال الفاشية، حركة مماثلة لحركة « السيكس بول Sexpol (مختصر لعبارة السياسة الجنسية) التي شهدناها في فترة ما قبل الفاشية، داخل المنظمات العمالية أو إلى جانبها ويعود هذا إلى السببين التاليين : من جهة، إلى التغيرات

العميقة التي قلبت الحركة العمالية والحركة الاشتراكية ، رأساً على عقب، في مجملها بعد أن سحقتها الفاشية أول مرة ، ثم سحقها أثناء فترة الرأسمالية في الجمهورية الاتحادية الالمانية ؛ كما يعود ذلك ، من جهة أخرى ، إلى تغير الوظيفة المناطة بالحياة الجنسية في نظام السيطرة الرأسمالي ، الذي حل بعد الفاشية .

إن هـــذا الكتاب ، مع كونه النتيجة الملموسة لأحدث المناقشات النظرية والصراعات السياسية العملية الجارية اليوم في الجمهورية الاتحادية الالمانية ، على صعيد الحياة الجنسية ، والنضال السياسي والتحرر الاجتماعي ، على حـــد سواء ، إلا أنه يقتصر تقريباً على معالجة تغير هذه الوظيفة : وظيفة الجنس تحت نير الحضارة الرأسمالية الاحتكارية . وليس ذلك لأنني أريد بصفتي جامعيـــاً طيباً ، أن أضع غمامتين [1] حول عيني . فإن نظام سيطرة الإنسان في النظام الرأسمالي اليوم ، قـــد عرف كيف يستحوذ مجدداً على اكتشافات « الثورة الجنسية »،إلى حد أن ثقة ساذجة بالقوة الجنسية القادرة على تحرير ذاتها بذاتها في ظل هذه الانظمة لم تعد ممكنة ، ولم يقم والحق يقال في الجمهورية الاتحادية الالمانية سوى حركتين في معسكر المعارضة التابع لأقصى اليسار ، صاغتا وأعلنتا جهاراً مشاكل الجنس ، وربطتا مطالب التحرر الاجتماعي بالمطالب الراهنة لتثوير الحياة الجنسية . هاتان الحركتان هما « الكومونة رقم واحد » ، في برلين الغربية ، و « مركز عمل طلاب الكليات المستقلين والاشتراكيين » . وحتى الآن أخفقت هاتان الحركتان في جهودهما الملموسة لأجـل تثوير السلوك الجنسي للمجتمع والحياة الجنسية لدى مناضليها ، كما أنهما أخفقتا في أن تجعلا من ضرورة هذه الثورة الهدف الرئيسي لحملتها السياسية التنويرية . وتكمن أسباب هذا الإخفاق من جهة ، في التناقض ، العسير الحـــل ، تناقض الطباع الجنسية التي « سبق أن تكونت » لدى أعضاء هاتين الحركتين،ومن جهة أخرى

(١) الغمامة هي الكمامة التي توضع حول عيني الجواد لحصر نظره الى أمام (المترجم) .

في المفهوم النظري المتناقض هو ذاته ، مفهوم الجنس ، كما يتجلى في النضال ضد السلطة وضد الرأسمالية . لذلك سوف نعالج بادىء بدء ، في هـــذا الكتاب القضايا السياسية الراهنة ، وبصورة رئيسية من الوجهة التالية : القمع الجنسي في النظام الرأسمالي الاحتكاري ، والشروط المسبقة ، الاقتصادية والنفسية ، للنضال ضد هذا القمع. والوجه الآخر للقضية ،أي المسائل التنظيمية والتوجيهات العملية التطبيقية لأجل التحرر الجنسي ، لن نعالجه إلا جزئيـــاً ، وأحياناً سنضرب صفحاً عن معالجته ، اطلاقاً .

لقد أدرك ويلهم رايش، خلال الأعوام الأخيرة التي سبقت قيام الدكتاتورية الفاشية .أن مفاهيم الدعاية والتحريض السياسية لدى الحزب الاشتراكي الديمقراطي والحزب الشيوعي الألماني ، لم يكن بمقدورها كبح صعود الفاشية . كان هذان الحزبان يفقدان أكثر فأكثر ، الصلة النضالية مع أعضائها ، وبالأحرى مـــع « الجماهير » ؛ ولم يكن في وسع هذين الحزبين الدفاع عن مصالحها إذ أنهما لم يكونا يفهمان هذه المصالح . وتحجر الحزبان وانحلا إلى جهازين متزايدي القدرة ومتزايدي التسلط [1] . واستخلص رايش من بحثه نتيجة صحيحة جزئياً . لقد قام بتأسيس حركة « السياسة والاقتصاد الجنسي » أو سيكسبول Sexpol التي أرادت ان تكون جماعة تشكل جزءاً لا يتجزأ من الحركة العمالية الشيوعية . وكان الاشتراك في هذه الحركة يتراوح بين طائفة من جماعات الفتيان ، ومراكز الاستشارة الطبية ، وبين جماعات من الاساتذة والأطباء ، كانوا ينظمون مراكز العمل ، ودروساً مسائية ، وحملات للتربية الجنسية الخ . وقبل عام ١٩٣٣ نبذ الحزب الشيوعي الألماني هذه الجماعة ؛ وفي ذلك الحين ، أقصي رايش عن الحزب الشيوعي وكذلك عن « الجمعية العالمية للتحليل النفسي » وخـــلال نشاطات

---

(١) قام ويلهم رايش بتحليل هذه التجربة باسم مستعار ، في كتاب بعنوان : « Was ist Klassenbewptsein » فيرلاغ فور سيكسوال بوليتيك – كوبنهاغن – ١٩٣٤ .

السيكسبول وتظاهراتها ومطبوعاتها السياسية ، الموجهة مباشرة إلى الشغيلة ، كان يجري التركيز دائمـــاً على مظهرين أساسيين من بؤس البروليتاريا ، وهما نقطتا انطلاق لتكوين الوعي الطبقي : مشكلة السكن ، ومشكلة منع الحمل .
هاكم ، مثلاً،ما كتبه رايش في كراس موجه إلى الشبيبة العمالية بعنوان « **كفاح الشبيبة الجنسي** » ، قال : « يقال لكم إنه لا ينبغي وضع الكيس الانكليزي الواقي في جيب صدرتكم ، إذ أن الحرارة تتلف هذا الكيس ؛ وانه اذا ما اتلفت هذه الأداة الواقية من الحمل ، ولم ينتبه صاحبا العلاقة إلى ذلك إلا بعد الاتصال فعلى الفتاة أن تنظف مهبلها فوراً بمحلول مركب من ملعقة من الخل مذوبة في ليتر ماء . وسوف يرد العمال الفتيان، بحق، على هذه النصيحة بأن الظروف التي يجرون فيها العلاقات الجنسية لا تتيح لهم استعمال مثل هذه الطريقة . ونجيب نحن من جهتنا على ذلك أن هذا سبب آخر لعدم الاهتمام فقط بامكانات القيـام بعلاقات جنسية ، بل المهم محاولة فهم النظام الاجتماعي المسؤول عمـا تعانيه الشبيبة من صعوبات »[1] .

إن خوض حملة للتربية الجنسية ، بأشكال مباشرة على هذا النحو، قد أصبح اليوم أكثر صعوبة ، بل وحتى مستحيلاً ، ذلك لأن تكاثر إمكانات المتع المزيفة، قد أضعف حدة النزاع المعاش ذاتياً ، هذا النزاع الذي عدل ولطف من حدتـه النظام الراهن ، بصور مختلفة . ففضلاً عن الأكياس الواقية من الحمل ، الرخيصة الثمن ، والسيارات التي يتنزه فيها الفتيان والفتيات ويمارسون فيهـا علاقات جنسية ، فحتى واقع أن وسائل منع الحمل، التي تؤخذبالفم (الحبوب) ما تزال امتيازاً في بعض البلدان الرأسمالية المتقدمة ، لم يعد يكفي في دعم مجموعة من الحجج لأجل النضال الطبقي . وذلك ، أولاً ، بسبب أن الفئات الاجتماعية الأسوأ حالاً ، في البلدان الرأسمالية اليوم ، يصعب عليهـا الحصول على حبوب

---

(١) ويلهلم رايش « Der sexuelle Kamf dcr jugend, Verlag fur sexual politik, Berlin, 1932, p 22

منع الحمل ، كما أن هذه الفئات تُترك على صعيد الطب الاجتماعي ، على جهلها ، وتُبذَل الجهود لإبقائها غارقة في أوهامها وأفكارها المسبقة . وتصلُّب وديمومة هذه الأوهام والأفكار المسبقة يعودان قبل كل شيء، إلى الطرائق البيروقراطية والإقطاعية التي تبقي هذه المجتمعات فيها جميع مؤسسات الصحة العامة. وإثر ذلك ينعكس موقف هذه الطبقات الدنيا تجاه المؤسسات في القلق ، القائم على أساس واقعي، والمعزز عصابياً، الذي يواجه به أفراد تلك الطبقات أية معالجة طبية؛ ولا يستطيع تخفيف هذا القلق إلا حملة طبية – اجتماعية تهدف إلى نشر الديمقراطية في هذا الصدد (وليس لأغراض صحية عرقية) ولا يمكن التغلب على هذا القلق بتربية جنسية أولية ، إذ أن هذه التربية ، في الظروف الحاضرة ، تفقد كل فعالية لها منذ أن تصطدم بموقف نفسي دفاعي ضد حرية العلاقة الجنسية . إن حبوب منع الحمل تباع بحرية في البلدان الرأسمالية الأكثر تطوراً ، في الولايات المتحدة مثلا ، في الصيدليات بل والحوانيت العادية . ومن الرجعية مكافحة هذه الوسيلة المستحدثة لمنع الحمل : إلا أنها في الواقع المباشر ، تجرد مطلب التحرر الجنسي من شطر أساسي من أهدافه الثورية ؛ نعني به : المطالبة بوضع أفضل للشروط التقنية والاجتماعية للممارسة الجنسية . وهذا المطلب ، بصدد هذه النقطة بالذات ، قد امتصته منظومة المتع الجنسية الجزئية . ويبين هذا المثال ، بوضوح ، إلى أي مدى حدّ ، في تلك الأثناء ، من الكفاح من أجل حرية أكبر على هذا المستوى – التي هي وحدها ، في مرتبتها الأولى ، تكون في متناول التحريض السياسي – كما أنه يبني في أي ميدان مزدوج وضع هذا الكفاح حالياً . وإنه لا يصعب على فتى بارع الحيلة ، من الفئات المتوسطة ، أن يعثر على طبيب يصف له وسائل لمنع الحمل ، نظراً لأن العوامل المتنفذة في البيئة الجنسية التي يستمد منها ذلك الشاب معاييره الجنسية الخاصة، كمجلة Twen مثلاً، تقوم بدعاية صريحة جهاراً لوسائل منع الحمل وأسهل الطرق للحصول عليها .

فلنبحث ، عن كثب أكثر ، مسألة الانتقال من الكيس الواقي من الحمل

الرديء النوعية ، والغالي الثمن بالنسبة للشبيبة العمالية ، إلى حبة منع الحمل ، وهي ذات سعر ملائم جداً للجميع مبدئياً ، ومن السهل الحصول عليها ، والتي تضمن سلامة تامة ،والتي لم تبق إثراً في بعض البلدان المتخلفة على صعيد «التمدن» رمزاً لامتياز اجتماعي . إن « الأوس » Auss (أي مركز نشاط تلامذة الكليات ، المستقلين والاشتراكيين) ، خلال المرحلة الأولى من تأسيسها وتكوين الجماعات المحلية التابعة له ، قد ركز شطراً كبيراً من دعايته السياسية في المدارس وبين الجمهور على حرية الحصول على حبوب منع الحمل لجميع الفتيان الذين بلغوا سن الحلم (النضج الجنسي) . وقد نتج عن ذلك ، بالضرورة الآلية المزدوجة التالية : (١) ما إن تمت صياغة أسس ومباديء أولية لبرنامج سياسي وتنظيمي مشترك لتلامذة التعليم الثانوي ومتدرجي التعليم المهني ، حتى عاجل الانهيار تلك المباديء والأسس الأولية . وقد صاغ تلامذة الكليات مطالبهم بحيث سرعان ما وعى متدرجو التعليم المهني المسافة الاجتماعية التي تفصلهم عن أولئك التلامذة ؛ وقد تعززت عملية الفوارق هذه بالحسد الجنسي الكامن لدى العمال الفتيان إزاء التلامذة المحظوظين ، ذوي الامتيازات . (٢) إن التلامذة أنفسهم ، بصفتهم فئة ذات أعمار طرية معينة ، كانوا يخضعون لرقابة جنسية من جانب المؤسسات الاجتماعية التي تبقيهم تحت سيطرتها ، أشد صرامة مما تخضع له أية فئة أخرى من ذوي الأعمار المختلفة ؛ لكن هؤلاء التلامذة يمثلون في الوقت نفسه ، خبرة وثقافة باطنيتين مضمرتين؛ فبسبب تكوينهم الذهني والفكري، واستعداداتهم الانفعالية الخاصة ، وتحررهم من ضغوط الانتاج، قدر لهم أن يميزوا بصورة أفضل أيضاً ، ما يتعرضون له ، هم أنفسهم ، من قمع جنسي . إن الأهداف السياسية لحملة « الأوس Auss » للتربية الجنسية ، التي جرت في الكليات والمدن ، لم تؤثر على هذا الفريق من التلامذة إلا مدة بضعة أسابيع ، ومع أنه يمكن ربط هذا الموقف بآلية الكبت العامة التي تخضع لها كذلك النشاط الجنسي للتلامذة ، إلا أنه يبرز بصورة أجلى أيضاً أن الخلقية الجنسية للمجتمع وممارسة الفرد الجنسية ، لا يمكن أن يكون في أساس بداية وعي

سياسي والتزام من شأنهما أن يقودا هذا الشخص إلى مواقف طبقية محددة وحاسمة أكثر فأكثر ، إلا إذا كانت حملة التحرر الجنسي هذه مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بعملية إيضاح وتنوير ، وبتفكير وعمـــل سياسيين في ميادين اجتماعية أخرى . وبعد نجاحات الاجتماعات المكرسة للحياة والنشاط الجنسيين ، هذه الاجتماعات التي كانت تجتذب جمهوراً تغص به قاعات مختلف الكليات ، كانت الاخفاقات الأولى التي أصيبت بها حركة الـ « أوس . A.u.s.s » تعود إلى مبالغتها في تقدير الدينامية السياسية التي استثارها زناد التفجير الذي هو المسألية (علم مجموعة المسائل) السياسية ـ الجنسية ، هذا الزناد التفجيري الذي يحتفظ مبدئياً بوظيفته في ذاته .

كان باستطاعة ويلهلم رايش أن يربط كل مطلب خاص لأجل التحرر الجنسي انطلاقاً من سياقه القمعي في النظـــام الرأسمالي ، بمطلب سياسي ، كان يهاجم بصورة صريحة في ميدان صراع الطبقات ، جذور النظام الاجتماعية . ذلك لأن كل تظاهرة جنسية كانت في ذلك العهد ، تقمع صراحة أو يحال دونهـــا بشروط يسهل إيرادها حسياً ، (أزمة السكن ، غلاء ثمن وسائل منع الحمل) . إن الوظـــائف الاقتصادية والوظيفيـــة (الفيزيولوجيـــة) والطوباوية التي عزاهـا رايش إلى النشاط الجنسي ، الذي يقود في نظره الإنسان ، نحو تحرره يمكن أن تبدو ، من وجوه عدة ، ذات مفهوم آلي صعب تحمله ، كما أن بعض استنتاجاته واضحة الخطأ ؛ وتخطياً لهذا النقد ، ينبغي لنا أن نسجل أنه أصبح اليوم ، من الصعب ، وتاريخياً من المستحيل ، أن نربط ما بين حرية جنسية أكبر كمياً ، بمطالب جذرية ثورية . وبالتالي ، فسيكون أصعب بكثير جـــداً تحديد الفرق النوعي ، الكيفي la différence qualitative بين هامش من حرية جنسية أكبر ، والحرية الجنسية الحقيقية .

لدى تحليل المنازعات الطبقية قبل الحقبة الفاشية كان يمكن ان يتميز المرء ، دون اشكال ، ثلاث طبقات اجتماعية : البروليتاريا ، والبورجوازية الصغيرة ،

والطبقة الحاكمة . وبمقدار تقدّم انتشار الطابع الاحتكاري للرأسمال ، أصبح يمكن موضوعياً ونهائياً اعتبار البورجوازية الصغيرة ، في شطرها الأكبر ، في عداد البروليتاريا أيضاً . ورغم كل شيء ، فهذا القسم من البورجوازية الصغيرة كان يضطلع موضوعياً ، على الصعيد الأيديولوجي ، بدور موظف عند الطبقة الحاكمة ، كان يحس بأنه من معدنها ، أو على الأقل كان يجهد لأجل ذلك ، وكان يعمل لصالح هـــذه الطبقة ، سواء عملياً ، على المستوى الاقتصادي ، بصفته « رئيساً صغيراً » قائماً بـــين الطبقة المسيطِرة والطبقـة المقهورة ، أم على المستوى الأيديولوجي ، بصفه ذلـــك الشطر من البورجوازيه الصغيرة خادماً لمصالح السيطرة الاجتماعيه – الاقتصادية : صغار التجار ، والاساتذة ، والموظفين ، والمستخدمين . ورداً على هذه الظاهرة ، صاغت المنظمات العمالية استراتيجيتها السياسية للصراع الطبقي . وقد ركزت جهودها على البرولتياريا « الحقيقية » ، وبصورة رئيسية ، على نواتها ، البرولتياريا الصناعية ، وكان عمـل تلك المنظمات التحريضي والدعائي السياسي مركزاً بصورة رئيسية على موضوعة التناقض التناحري antagoniste بين الطبقة المسيطرة والبروليتاريا. ولدى قيام المنظمات العمالية بذلك ، فقد أهملت إهمالاً تاماً ، ودون انتباه ، سواء في صياغتها نظريتها أم في ممارستها نضالهـا ، الشطر « المحايد » المنزاح » بالنسبة للطبقة الحـاكمة : ذلك الشطر هو البورجوازية الصغيرة . وقد لزمت المنظمات العمالية ، في نظريتها ، الصمت بصدد البورجوازية الصغيرة هذه ، أو أنها أدمجته ، دون وعي ، في الطبقة الحاكمة ، وذلك بالضبط لأن البورجوازية الصغيرة كانت تنتخب وتفكر وتتكـلم على غرار الطبقة الحـاكمة ، وتلك المنظمات العمالية لم تأخذ في الحسبان ، في نشاطها النضالي ، النشاط التحريضي والدعائي داخل البورجوازية الصغيرة ، أو أنها أجلت ذلك النشاط إلى «مرحلة لاحقة » يمكن أن لا تحل إلا بعد أن تكون «البروليتاريا » قد قامت بالثورة.

لقـــد شكلت البورجوازية الصغيرة الالمانية الخزان الرئيسي ، النفساني

والسياسي ، للقاعدة الجماهيرية للفاشية . كان ذلك يعود ، في شطر منه على الأقل ، إلى عجز الحركة العمالية عن التقاط العناصر المعادية للرأسمالية ، لدى البورجوازية الصغيرة ، ومنحها توجيهاً ثورياً . في عام ١٩٣٠ ، كتب أرنست بلوخ في كتابه «تراث زماننا» يقول : « إن الماركسيين المبتذلين يهملون البدائي والطوباوي ، أمـا القوميون ، من جهتهم ، فيتعاملون معهما ويتصرفون بهما ، وسيأتي آخرون يتصرفون بهما أيضاً » . وكان ا . بلوخ يأخذ على الشيوعيين أنهم « تخلوا عن البورجوازية الصغيرة للرجعية ، دون كفاح » . وبعد الفاشية ، ظهر مجدداً الارتباك السياسي القديم في صفوف الحركة العمالية : كان ثمة تساؤل عن الذي ينتسب فعليـاً إلى البورجوازية الصغيرة ؛ وأي شيء مشترك يجمعها بالبروليتاريا ، وهل يجب مكافحة البورجوازية الصغيرة كما يجري الكفاح ضد الطبقة الحاكمة ، بما أن الأولى تمثل موضوعياً مصالح هذه الطبقة ، الخ؟ وخلال فترة إعادة وترميم الرأسمالية الالمانية ، مع ظهور الجمهورية الاتحادية الالمانية ، قامت الطبقة العاملة بحـل هذه المسألة ، بالنيابة عن جميع الفئات والطبقات الاجتماعيـة ، وذلك على النحو التالي : لن تعود ثمة طبقات إطلاقاً ، ومن باب أولى ، لن يبقى أي فرق بين البورجوازية الصغيرة والبروليتاريا ، نظراً لأن هاتين الفئتين « اندمجتا في طبقة وسطى واسعة موحـدة » . وتطابق هذا « الفرمان » الايديولوجي عمليات تمثل ومفاهيم اجتماعية تعددية ؛ وهكذا نجد ، في النظرية السياسية والسوسيولوجية ، الفئات الاجتماعية التي ينبغي تعريفهـا بصورة قاطعة ، ففي الايديولوجية الحكومية ، الشعب هو « الشطر الحر » من المانيا . وفي النقابات ، والحزب الاشتراكي – الديمقراطي نجد « معطي العمل » (بدلاً من أرباب العمل) وآخـذي العمل (بدلاً من « العمال الأجراء ») وفي الـ Kpd والحزب الشيوعي ، نجد قبلية l'a priori الشغيلة ذوي النـزعة السلمية ، والمعادين للاحتكارات ، يجابهون خواجات بون الذين يلتفـون حول شركات أبس وفليك . هـذه العمليات تجد لها أساساً موضوعياً في انتقال الحواجز بين الطبقات وفي طمس وإخفاء التناقضات الطبقية . ولدى النظر إلى

الأمور شكلياً ، فإنه لا فرق تقريباً بين الاقرار بعملية تطور وتوسع الفئات الوسطى (كما يقول هيلمس ، مثلاً [٣]) أو مثلما يقول أغلب الاشتراكيين الانتقاديين ، وبين أن يجري الحديث عن « الطبقة العاملة الجديدة » تلميحاً بذلك إلى « الشغيل (اليدوي ، والذهني أو الشغيل » ذي الياقة البيضاء ») « المقطوع عن منتوجه » و « المدعو إلى بيع وقته » (اندره غورز [٤]) أو أيضاً كما يفعل بعض ذوي الجمود العقائدي حيث تجري المماثلة بين العمال والمستخدمين والطبقة العاملة (مع تركيهم لهذا المفهوم تعريفه التاريخي المتناقض) وذلك فقط على أساس « علاقات الانتاج المشتركة فيما بينهم » (هـ ستاينر [٥]) . إن مختلف تمييزات وتصنيفات مفهوم الطبقة لن تصبح تأكيدات ذات أساس وطيد إلا حينما تستطيع أن توضح لأي غرض أنشئت فعلاً ، وإلا بعد فهم ما تعانيه هذه الطبقة المقهورة ، وماذا تخلق ، وماذا تفهم ، وماذا يفوتها : وما إذا كانت تناضل ، وضد من تناضل لمحاولة إزالة آلامها ، وامتلاك انتاجها هي ذاتها ، ولكي تفهم ما ليس مفترضاً فيها أن تفهمه . إن الردود على هذه الأسئلة هي وحدها التي تستطيع أن تعطي محتوى واقعياً لمفهوم الطبقة . ولا شك في أن كورت ستاينهوس على حين يكتب قائلاً في مقدمة كتابه : « إن وجود عدو طبقي مشترك يوجد وحدة مصلحة ، وهذه الوحدة توجد بصرف النظر عما إذا كان معترفاً بها بصورة عامة أم لا [٦] » . لكن هذه القضية النظرية تبقى حقيقة منعزلة ومجردة ، إذا لم تكن الهُويّة الموضوعية مرفقة بتضامن بين

---

(٣) H· G Helms, Die idelogie der anonymen Gesellschaft, Koln 1956, p 53 s.

(٤) اندره غورز - الاستراتيجية العمالية ، والاستعمار الجديد ، منشورات Le seuil ١٩٦٤ ص ٦٩ .

(٥) هيلموت ستاينر - Soziale strukturverânderungen — in modernen Kapitalismus, Berlin 1967, p 339

(٦) كورت ستاينهوس Zur theorie des internationalen Klassenkamfes, Proleme sozialistische politik, tome 5, Franfort 1067, p 8.

الأشخاص ، على نفس الدرجة من الموضوعية ، لكن هذا التضامن لن يبرز إلاّ من صراع الطبقات .

كان جيل الحركة العمالية السابق يستطيع أن يصوغ في نضاله كل يوم شعار « انزعوا ملكية نازعي الملكية ! » وليس من قبيل المصادفة أنه ما من طبقة من طبقات البلدان الرأسمالية المتقدمة ، ولا جماعة اجتماعية تمثل السكان الأجراء في الجمهورية الاتحادية الالمانية تضع اليوم هذا المطلب . وحتى في إيطاليا ذاتها ، هذا البلد الذي كثيراً ما يجري الاستشهاد به على اعتبار أن الحركة العمالية القديمة فيه قد نجحت بالبقاء على قيد الحياة هناك ، فإن المثقفين والشبيبة هم قبل سواهم الذين يتظاهرون ضد الحرب في فيتنام . والحال ، فإن هؤلاء ، حسب منشأهم الاجتماعي ، لا يمكن تصنيفهم تحت مفهوم الطبقة العاملة التقليدية . والحال ، فإن مثقفي وطلبة وفتيان جميع البلدان ، الذين يعملون اليوم ، إلى حد ما ، باسم الطبقة المقهورة ، والتي لم تتحقق هويتها في الممارسة العملية، لا يستطيعون، بسبب وضعهم الخاص ، أن ينادوا بشعار « انزعوا ملكية نازعي الملكية ! » إلاّ في شكل « انزعوا ملكية سبرنجر » ، أي مع الاحتفاظ بمسافة فكرية . لا وإلاّ يكونون مضطرين حينئذ لصياغة ذلك الشعار بصورة أكثر عمومية ، كما في قرار الاتحاد الاشتراكي للطلبة الالمان S. D. S : حطموا حكم المتلاعبين بالتجارة ومزوري الانتخابات (٧) !

والواقع أن الانتقال من النضال ضد الاستثمار الاقتصادي المباشر إلى النضال ضد التلاعب بالرأي العام ، هو التعبير عن تغيير موضوعي في بنية السيطرة الرأسمالية . وهذا لا يعني أن التلاعب بالرأي العام قد حل محل الاستثمار .

إلاّ أن تزييف الحاجات، وكذلك تقديم عمليات تلبية وهمية، في الاستهلاك،

---

(٧) قرار المؤتمر الثاني والعشرين لمندوبي الاتحاد الاشتراكي الطلبة الالمان (S D S) فرانكفورت : أيلول ١٩٦٧ ، صدر في New Kritik العدد ٩٤ - ص ٣٤

والاتصال ، والحياة الجنسية ، تثبت أن الاستثمار لم يعد يتجسد فقط بمثابة اعتصار جسدي فيزيائي مباشر ، وأنه لم يعد يعمل وحده : بل بالعكس ، فإنه يلزمه جهاز جبار من الحاجات الممكن تزييفها والتلاعب بها والممكن تكييفها مجدداً ومجدداً بحيث يخضع الفرد لأغراض اجتماعية محالية . إن تَبَنْيُن la structuration الاستثمار نفسه قد تغيّر . كانت العلاقة الكلاسيكية هي التالية : التقليل إلى أدنى حد من الحاجات الأولية (الغذاء ، الملابس ، الحياة الجنسية) ومن الحاجات الثانوية (متع أوقات الفراغ ، الرياضة ، الخ) وتجاه ذلك إرادة في دفع الاستثمار إلى حده الأقصى (أجر منخفض ، إطالة يوم العمل ، زيادة وتيرات العمل ، تشغيل النساء والأولاد ، قليل من الأفضليات الاجتماعية ، أو عدم إعطاء هذه الأفضليات أصلاً) . أما اليوم فالعلاقة هي التالية : بواسطة المناورة ، زيادة الحاجات الملائمة للنظام ، إلغاء التمييز بين الحاجات الأولية والحاجات الثانوية ، وعن ذلك الطريق نفسه ، دفع الاستثمار إلى حده الأقصى[٨]

قبل الفاشية ، كانت البروليتاريا (وبصورة رئيسية البروليتاريا الصناعية)، وذلك بسبب موقعها في عملية الانتاج ، تبدو أنها متهيئة للاعتراف ذاتياً ، بالنسبة لمجمل المجتمع ، باستثمار المجتمع الرأسمالي ، وأن تعي ذلك وتنشر حولها ذلك الوعي موضوعياً في الصراع الطبقي، وإلغاء ذلك الاستثمار بالثورة، باسم مجمل المجتمع ؛ ولكن ينبغي حالياً ، في عملية التطور الراهنة ، وتبعاً لتعقد الاستثمار على نحو أكبر ، وطمس الحدود ما بين الطبقات ، فإنه ينبغي استخدام عنصر جديد . هذا العنصر عليه أن يسمح بالإجابة على السؤال التالي: من هي الطبقة المناضلة ؟ وحتى أولئك الذين يفخرون ، عادة ، برغبتهم في

(٨) راجع أ. غورز – المرجع المذكور ــ ص ٦٨ « طبقاً لتوقع ماركس ، فقد وجد الرأسمال الاحتكاري نفسه أمام مشكلة تكييف الأشخاص للأشياء الواجب تصريفها ، وليس تضبيط العرض على الطلب ، بل الطلب على العرض ».

الاحتفاظ بمفهوم الطبقة العاملة، حتى أولئك يجيبون بالضرورة وبالأحرى بصورة ملتبسة غامضة أكثر منها ملموسة جلية . إن ستاينهوس يعطي في خاتمة كتابه الجواب التالي : « تجري في هذه اللحظة في جميع البلدان الرأسمالية عملية تسييس للفئات الاجتماعية التي تضم على الأخص المثقفين والفتيان وهي عملية تسييس تنتج بصورة رئيسية عن تفهمهم ، المباشر إلى هذا الحد أو ذاك ، لبربرية الثورة المضادة الاستعمارية » [9] هذا التقدير صحيح بالتأكيد ؛ بيد أن هذه الفئات الاجتماعية المسيسة على هذا النحو لا تشكل طبقة . ولا يتعلق الأمر بالمطالبة بأن تكون نواة الطبقة المناضلة دائماً داخل البروليتاريا الصناعية . ولن يكون هذا المطلب دوغمائياً (متحجراً عقائدياً) ومجرداً وحسب ، بل سيكون خاطئاً في صياغته الحصرية ، إذا ما أخذ في الحسبان تجربة الثورتين الصينية والكوبية ، وملاحظة النضال الثوري الفيتنامي . إن المثقفين والفتيان المعارضين هم اليوم ، موضوعياً ، طليعة الطبقة المقهورة ، وذلك بمقدار ما هم يعملون باسم هذه الطبقة . لكن هذه الطليعة تعارض مجمل هذه الطبقة المسيطر عليها (المسودة بالتزييف والمناورة والتكييف) . وعلى تلك الطليعة أن تناضل اليوم ضد وعي طبقي مشوه ، أي التخلف النفساني والذهني لهذه الطبقة في مجملها .

وحسب نظرية لينين ، فإن الطليعة والجمهور متضامنان بالنسبة لمصالحهما الطبقية المشتركة ؛ لكنهما تتميزان نسبياً في كيفية الدفاع عن هذه المصالح . هذا التميز النسبي يتجه ، بصورة لا مرد لها ، ليصبح تميزاً مطلقاً . إن التطور التاريخي من الاستثمار المباشر ، إلى الاستثمار المكيف والمناور والمغلف ، يستلزم أن لا تعود سيطرة « المستثمِر » ظاهرة للعيان بصورة مباشرة ، وشخصية ، وأنه لم يعد في الإمكان فهمها بالمعنى الموروث عن السيطرة الاقطاعية . إن السيطرة اليوم تتجسد حسياً بصورة غير شخصية بالمرة ، وذلك في بربرية

(٩) ستاينهوس ، المرجع المذكور ، ص ١٠١

الوضع الذي يتيح أنْ يقتل من أعلى متن طائرة ، دون تمييز ، جماعات كاملة من السكان ، دون أن تكون ثمة أدنى صلة مع العدو. كذلك تتجسد تلك السيطرة ، على نحو غير شخصي أيضاً في التلبيات الوهمية للحاجات والمتع ، الظاهرية والواقعية ، الممنوحة للطبقة المقهورة ، إن الجماعات – المثقفين بصورة رئيسية – الذين يناهضون اليوم الشكل الراهن للاستثمار ، يناهضون كذلك منظومة التلبيات المزيفة للمتع والحاجات ، مناهضتهم للحريات المزيفة ، التي لا تميّز الطبقة المسودة ، الممنوحة لها هذه الأمور ، طابعها الوهمي . إن أول رد فعل للطبقة المقهورة ، على عمليات الاحتجاج، هو رفض لحركة المعارضة، السياسية، حتى حين تبدأ هذه في أن تدرك حسياً وواقعياً النزاع الاقتصادي [١٠] .

أن تكون معزولة عن كل الطبقة المسيطر عليها ، هو اليوم عنصر تكويني لكل حركة رفض جذرية . ولذلك السبب ذاته فإن لكل نجاحات هذه الحركات طابعاً مزدوجاً . وإذا كان يمكن أن تعود هذه العزلة إلى ضعف البرنامج السياسي لا « طليعة » ، فهي لا تعود ، بأي حال من الأحوال ، إلى الأخطاء التكتيكية وحدها . لا شك في أن هذه الأخطاء كثيرة جداً ، ويجري إيرادها وسردها ، عادة في الوقت نفسه مع كلام المعترضين ، غير المفهوم ، وطريقة لباسهم ، وسلوكهم الاستفزازي . بيد أن هذه التظاهرات هي في الوقت نفسه شرط

---

(١٠) عند بلوغ اضراب صناعة المطاط في مقاطعة هيس ذروته ، في أواخر خريف ١٩٦٧ ، دعت نقابات الكيمياء والتعدين إلى تظاهرة في ساحة دار بلدية فرانكفورت . وكانت اليافطات التي أعدها أعضاء النقابات ، والتي كان يمكن التعرف إليها من حروفها المطلية بواسطة القوالب الجاهزة ، كانت هذه اليافطات تقتصر على مطالب بزيادة الأجور . وإحدى اليافطات النادرة التي كان قد أعدها عمال ، بصورة عفوية ، كانت تحمل العبارة التالية : « هدوء وكرامة – عاش نضال العمال ! » (ملاحظة من المترجمين الفرنسيين : ها كم الترجمة الحرفية للشعار الالماني : نحن متمدنون ، ولسنا قطيعاً من المتوحشين ، وليس في نضالنا ما يسبب الخجل !) كان ذلك ، ولا شك ، يتعلق بالغليان الطلابي في ذلك العهد ، الذي يخص الاصلاحات الجامعية ، وعلى الأخص ، جهود طلبة فرانكفورت (ASTA . GAG . S D S) للتضامن مع العمال المضربين .

ضروري لتَشَكُّل وتَمَفْصُل جماعات من الحركة المضادة للسلطة ا «طليعة» ما . ذلك لأن هؤلاء ، بكلامهم « غير المفهوم » وهندامهم « المنفر » وحياتهم « المضطربة » ينـــاقضون ، بادىء بدء ، التكيف البليد ، والتزييف ، والقيم السائدة في المجتمع الاضطهادي ؛ وعبر حركة التمرد هذه فقط يستطيعون إدراك ظاهرة الاستثار والنضال ضد شروطه .

وفي الوقت نفسه فإن هذه الفئات الاجتماعية من الفتيان والمثقفين لا تستطيع أن تنكر انتماءها إلى الفئات الوسطى ، التي هي بورجوازية صغيرة قبل كل شيء . صحيح أن الإيديولوجعة التقليدية ، التي بدونها ما كان للفئـات الوسطى أن تشكل أبداً وحدة البورجوازية الصغيرة ، أخذت تتفتت أكثر فأكثر خلال السنوات الأخيرة ، وهي لم يبق منها سوى بقايا حطام غير متلاحمة . إلاّ أن بقايا الحطام هذه ، مع كونها غير متلاحمة ، فهي ذات تأثير . فهي تفعم كيفية تعبير هذه الجماعات عن مطالبها ! ونجد فيها مجدداً رواسب ومخلفات الشروط العميقة ، التي تكافحها هذه الجماعات ، على وجه التحديد . ونجد بين هـــذه الرواسب بصورة أساسية التظـــاهرات « ضد » ، أي النفي البحت للسلوك البورجوازي الصغير ، ولنمط معيشة البورجوازية الصغيرة ، ومنتجاتها الثقافية ؛ وهي نفي مجرد إلى حد أن القصد التحرري فيه يغدو غامضاً ، لا يستبين . إن عمليات النفي هذه ، الكلية ولكن المجردة تميز عدداً كبيراً من الآراء التي تريد نفسها ثورية ، لكنهـا في الواقع لا تدمر سوى على المستوى النظري - وبصورة سيئة على كل حال - ما تريد تدميره . فهي تبرز مثلاً في مطلب رفع الحظر عن الزنا والخيانة الزوجية ، ومطلب تبادل الشركاء والشريكات في العملية الجنسية داخل الجماعة ، على غرار مطالب جماعـــة « أنشلاغ » (البرنامج المؤقت) الميونيخية القديمة ، أو فرض إلغاء الإخلاص والحب البورجوازيين ، هذا الإلغاء الذي جربته « كومونة برلين رقم واحد » وتجسد في حياة الواقع العملي باخفاق تام ، إن الشطر من الطبقة المسيطر عليها ، المنبثق بصورة رئيسية من البروليتاريا ،

ينبذ ، بدافع الطبع والجبلة ، هــذه الأشكال من التخطي الذاتي للتكييف الرأسمالي والتزييف والتمييع ، والسيطرة الطبقيــة ، – ويشير أفراد ذلك الشطر باشمئزاز إلى « القذارة » و « الفوضى » والشعور الطويلة ، والممارسات الجنسية المشبوهة لل « مشاغبين اليساريين » – . والحال ، فإن عمليــة النبذ هذه ، مع أنها قد اتخذت صورة غيرت وطمست معالمها الأولى ، إنما تتم عن بقية من تمرد الطبقات الدنيا ضد سلوك أولاد الذوات المدللين المتأنقين . وقــد أبرز ب. بروكنر هذه السمة : « رغم أن القمع الجنسي لا يتوقف مطلقاً عنــد باب الجامعة ، فإن وجوهاً معينة من وضع عمال الصناعة تنعكس بصورة واضحة جداً في الحالة الموضوعيــة للمساعدة والمعلمين ـ المساعدين ، من حيث أنهم مفصولون عن وسائل إنتاجهم ، التي يتصرف بها أرباب المعاهد ، من جهتهم ، بكل استقلال وحرية ؛ وبديهي تماماً ، أن الطلبة والمساعدين ما يزالون يعيشون عيشة أبناء كبار البورجوازيين. وحتى لو كانوا يعانون ـ أي الطلبة والمساعدون ـ صعوبات مالية ، فإنهم يتمتعون بامتيازات هامة »[11] . هـذا المعطى يفعل بصفته عاملاً إضافياً ، محدداً موضوعياً ـ إذن لا يمكن التغلب عليه ، حالياً ـ لعزلة جماعات الرفض . وإنما في كيفية احتجاجهم ضد كل شكل من أشكال السيطرة اللاعقلانية ، تقوم هذه الجماعات بإثبات امتيازات السيطرة أمام أعين جميع أولئك الذين من أجلهم ومعهم تريد تلك الجماعات إلغاء هذه السيطرة إن تعبير « الجماهير الكادحة » ، الذي يأخذ على الطلبة أن لديهم (الوقت لاحداث الضجيج) ، يلخص الهيجان والغضب الشديد العاجز لدى الطبقة المسيطر عليها ، والتي تناضل من الجانب السيىء ـ أي ضد شطر من طبقتها هي ذاتها ـ بدلاً من النضال ضد الطبقة التي يضطر الشعب كله من أجلها لتنفيذ أشد الأعمال مشقة وأكثرها تفاهة .

---

(١١) بيتر بروكنر In Agnoli - Brûckner, Die transformation der Demokratie, Berlin, 1967, p, 128 .

وليس فقط تزايد كمي لعدد جماعـــات الرافضين هو الذي سوف يستطيع أن يتغلب على هـذه العزلة (وربما على أساس المخطط التبسيطي الساذج بعض الشيء والذي ينادي : « الفتيان يصبحون هيبين أكثر فأكثر ، إلى أن يأتي يوم يصبحون فيه من الكثرة بحيث يلحقون ضرراً جدياً بالنظام ، ذلك لأنهم لا يستهلكون) ، ولا حق المطلب الراهن ، والوطيد الأسس أكثر من أي وقت مضى ، وهو المطالب بوحدة الشغيلة ـ والطلبة ، أو بشيء مماثل . هذا الانفصال بين الشغيلة والطلبة ، هو ، بالضبط ، إحدى نتائج مجتمع التكييف والتزييف والتمييع (الشكل العصري للاستثمار) . ومن هنا ، عدم فعالية جميع الاستراتيجيات السياسية التي تهدف إلى إثارة اهتمام الطلبة بقضايا العمال ووضعهم – وذلك ما يفعله منذ أعوام الطلبة المسيسون – أو كسب أو إيقاظ اهتمام الشغيل بدوافع الرفض الطلابي – وذلك ما يفعله نفس هؤلاء الطلبـــة المسيسون ، منذ بعض الحين ، دون نجـــاح كبير . إن وجهي هذا المطلب لا يمكنهما الاستغناء عن عنصر مجرد وخلقي الدافع ، هو في الواقع عنصر مكوّن لكل شكل من أشكال التحريك والتحريض ، وكل برنامج عمل ، بما في ذلك من يسمون أنفسهم بـ « التقليديين » ، سواء أكانوا شيوعيين (K P D) ، أم تروتسكيين ، أم اشتراكيين يساريين من طراز « المعارضة الاشتراكية »[١٢].

يمكن أن نلخص ، بصورة تبسيطية ، حظوظ انتصار نضال الطبقة المسيطر عليها ، بكاملها ، على النحو التالي :

---

(١٢) راجع مقالات رايوت رايش وبيتر غانغ في صحيفة النقد الجديد New Kritik العدد ٤١ ـ والمراجع التالية « Sozialistishe Politik " in loc - cit numeros 42 - 43 et Heide Bendit in loc. cit no. 45 ;
وكذلك راجع Information der Soziclistsche opoosition, Francfort numeros 1, 2, 3..

إن حظوظ بقاء النظام الأمبريالي العالمي على قيد الحياة يجب أن تتلف وتنهار – وذلك باستخدام العنف الذي يولده هذا النظام نفسه ، وبالأزمات الاقتصادية غير المنازع في وجودها ، والتي تنتج عن هذا النظام – وذلك بصورة أسرع مما سيستطيع هذا النظام تعويض هذا التلف والانهيار بتحسين ، في آن واحد ، لاستيعاب الفرد في هذا النظام وإدماجه التكييفي المزيّف والمُمَيِّع. لقد حاول كورت شتاينهوس أن يصوغ ، بصورة تجريبية « النتائج الاجتماعية – الاقتصادية لتصعيد عالمي للعنف » وانعكاساته في مجمل الدول الأمبريالية . وفي رأي شتاينهوس ، « أن هذه النتائج الاجتماعية – الاقتصادية لا تظهر الآن إلاّ تحت مظهر « كمون الأزمات الملازمة للنظام الاجتماعي الرأسمالي » [١٣] . إن كل « إتلاف وانهيار » يجري تعطيله وتجميده حتى اليوم بنظام التكييف وتزييف الوعي ، والتمييع . ولا يمكن بعد أن نقيم بدقّة انعكاس مضاعفة البربرية الاستعمارية الجديدة ،هذه البربرية التي لا يمكن تصديقها ، لفرط فظاعتها ، التي تتجسد في أفظع حروب الإبادة ، انعكاسها على الشروط الاجتماعية – النفسية داخل الأمم الأمبريالية . إن نجاحات الإرهاب المتعاظمة تنهض اليوم ضد التسييس والتحذير الشاملين للشبيبة والمثقفين . ولا شك إطلاقاً في أن الإرهاب المستتر المتضمن في الطلبات المشددة لشراء المواد الدعائية البورجوازية الرأسمالية سوف تحل محله طرائق إرهاب مكشوفة أكثر . لكن هذه الطرائق لن تُدْرَك جيداً بصفتها طرائق إرهابية ، لا سيما وأن الدعاية نفسها هي التي تمهد لها الطريق .

ولن يجري وضع الخطى التي ستتيح لجماعات الرفض ، المنعزلة ، بالضرورة اليوم ، أن تضطلع واقعياً بدورها الطليعي داخل الطبقة المسيطر عليها ، لا على هامشها ، ولا عوضاً عنها ،إلاّ حين ستنقض الأزمات الاقتصادية فعلياً وبسرعة

---

(١٣) شتاينهوس ؛ المرجع المذكور – ص ١٠١ وما يليها .

على نظام التكييف والتزييف والتمييع الرأسمالي . ومن جهة أخرى ، فإن المظاهر السرية لنخبة حركة الرفض الراهنة ، ستفقد في تلك اللحظة ، مبرر وجودها ، وذلك بالضبط لأن هذه الحركة المعادية للرأسمالية الأكثر تطوراً ، ستكون تحت الرقابة الفعلية لمجمل الطبقة المسيطر عليها ، وذلك لأن هذه الطبقة ستعمل داخل الحركة الرافضة ، وجنباً إلى جنب معها ، ولن يعود الأمر ، كما هو اليوم ، ضدها .

إدماج كل ميدان الحياة الجنسية في النظام الرأسمالي المسيطر ، وحصر النشاط الجنسي في جعله مجرد سلعة ، وإعطائه وظيفة شيء ، غرض استهلاكي ، وتجريد الجسد من صفاته الشهوانية الوجدانية ، إعطاء صفة جنسية ، ظاهرية ، للعلاقات الانسانية ، وكذلك لعلاقات الناس بإنتاجهم ، كبح الدوافع والغرائز الجنسية وحرفها في الوقت نفسه نحو عدوانية موجهة – إن جميع هذه الوجوه للتكييف الرأسمالي للجنس هي ، جميعاً ، أشكال مجسدة مادياً للاستثمار الاقتصادي الراهن . إن جميع هذه المظاهر ، المترابطة بعضها ببعض ترابطاً وثيقاً ، ليست سوى أحد مظاهر الشكل الراهن للاستثمار . لذلك ، فما من « استراتيجية جزئية » ، ولا « استراتيجية جنسية صراحةً » بمقدورها مجابهة هذا الاستثمار على قدم المساواة . هذه « الاستراتيجية الجنسية » لن تجد مكانها إلاّ في المجمل المتلاحم للنضال السياسي المعادي للرأسمالية ، هذا النضال الدفاعي والهجومي ، الذي لا يمكن إضافتها إليه بصورة مصطنعة ، ولكن ينبغي لها أن تنصهر فيه .

٢

تغير وظيفة القمع الجنسي في النظام الرأسمالي

يبدو أحياناً ، بفضل الدراسات الاتنولوجية الواسعة جداً بصدد هــذا الموضوع ، أننا نعرف بصورة أفضل التنظيم الجنسي للحضارات البدائية السكونية ، أكثر من معرفتنا تنظيمنا الجنسي الراهن . ومؤكد أنه يُروى لنا عددٌ لامتناهٍ من الحكايات والقصص ، والحوادث ، والنوادر الماجنة على الأخص منذ عهد المركنتيلية ، ونظام الحكم المطلق . ولكن هذه المادة – وذلك واقع ذو مدلول بالنسبة للمكان المخصص لوظيفة الحياة الجنسية في النظام الرأسمالي – لا تعتبر مستحسنة ، ولا جديرة بدراسات تاريخية جدية . وهكذا فإن المؤلفات المخصصة لهذا الموضوع قدر لها أن تكون بالضرورة ، ملأى بالمجون والخلاعة ، امتلاءها بالغموض ، على نحو ما كان يرى موضوعها . وحتى المؤلفات الحديثة ، التي وضعت مؤخراً ، التي تقدّم الينا على أنها أعمال أساسية ، تشهد هي أيضاً بتغافل عن الموضوع الذى تعالجه . أما المؤرخون الذين نظروا إلى عملهم نظرة جدية [١] لم يكن لديهم طرق أخرى للخيار سوى أن يتيهوا دون تميز في مختلف

---

(١) لا يتعلق الامر بثنات القصص حول العلاقات الجنسية ، من طراز كتاب (Quelle der Erotik) ـ « مصادر العشق الجنسي » ذي الموضوع شبه المحرم ، وبسبب ذلك فالكتاب تجاري ناضج ، وقد لقي رواجا لا بأس به .

أنواع القصص والحوادث الانتقائية [١] ، أو التشبث بتصاميم هيكلية تصعب الإفادة منها أو استخدامها ، لكنها على الأقل غير موحدة النمط آلياً وقبلياً (سبقاً للتجربة). إن كتّاب المادية التاريخية الكلاسيكيين، باستثناء طريقتهم ومؤلف« أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة »يعطوننا قليلاً من الإيضاحات في هذا الميدان . إن الاتباع الجامدين عقائديـــاً ، الذين ينسبون أنفسهم إلى الماركسية – اللينينية ، لم يرغبوا حتى الآن أن يعطونا المزيد ، في الموضوع المشار اليه . بل إنهم جهدوا ليستبعدوا من صفوفهم كل « مجدد » [٢] وإغفال ذكر هؤلاء في كتبهم – أي كتب الأتباع الجامدين عقائديـــاً – التاريخية وفي مباحثهم في علم وفن التاريخ [٣] L'historiographie .

إن تكييف التنظيم الاجتماعي ، الطبائعي والنفساني للفرد ، هذا التكييف الذي يخضع له هذا الشخص خضوع عبودية ، قد أوضح بجلاء حتى الآن بأكثر ما يكون من الحدة والعمق بواسطة علم يستمد نتائجه ، على حد سواء من

---

(١) راجع موروس Morus, Eine weltgeschichte der sexualitat, Ro Ro Ro 777 - 779 Hambourg, 1966.

(٢) لقد قدم التبرير التالي لاستبعاد ويلهلم رايش من « الحزب الشيوعي الألماني » : انك تنطلق من الاستهلاك ، أما نحن ، فعلى العكس ننطلق من الانتـــاج ، وبالتالي ، فانت لست ماركسياً » : وعلى كل حال ، فإن بيك هو الذي تلفظ بهذه الفظاعة عام ١٩٣٢ أثناء نقاش مع ممثلين لل « سيكسبول ».انظر رايش ، was ist klassenbevuusstsein ص ٥٨ – وقبل ذلك ببضع سنوات ، لقي نفس المصير تقريباً العالم والمربي الشيوعي أوتر روهل .

(٣) إن حركة الـ « سيكسبول » لم تذكر في المؤلف التاريخي الجامع :
Geschichte der deutschen Arbeiterbevvegung,
هذا المؤلف الذي أصدره معهد الدراسات الماركسية اللينينية لدى اللجنة المركزية لحزب SED (ملاحظة من المترجم : SED هو الحزب الشيوعي في الجمهورية الديمقراطية الالمانية) – ومع ذلك فلم يتخذ هذا الموقف نفسه من جميع ذوي النزعة الانحرافية اليسارية .

تكوين الجسم البشري ، ومن قدرات وحـــدود جهازه النفساني ، وتحليل المؤسسات الثقافية التي يلتقي بها الإنسان . هذا العلم ، هو التحليل النفسي Psychanalyse . إن مقولات هذا العلم هي بذاتها ، مقولات اجتماعية[1] لكنها باديء بدء ، مرتبطة بالسياق أو الإطار Conteste الذي استمدت منه. هذا السياق أو الاطار هو ، عند فرويد ، **الحضارة البورجوازية** ؛ وهو لا يماثل بين هذه الحضارة وشكل التنظيم الرأسمالي ، الذي تطورت هذه الحضارة في ظل سيطرته ، قدر ما يضع هذه الحضارة مكانه ، عوضاً عنه . لكن هـذا لا يعني أن تأثير التحليل النفسي يكف حيث يتعلق الأمر بتحديد أشكال الانتاج الاجتماعية بصفتها أساساً لحضارة ، في علاقاتها مع الوجوه النفسية والاجتماعية – النفسية الفردية والجماعية للسلوك البشري . بل بالعكس ، فإنه توجد ، أولاً ، طائفة كبيرة من مكتسبات الحضارة ، التي بوسعها تماماً أن تكون لها قاعدة اقتصادية ووظيفة اقتصادية اليوم – مثلاً كالحرم شبه المقدس le tabou المحاط به الزنا وممارسة العلاقات الجنسية خارج سرير الزوجيـة ، وطقس الزواج الأحادي monogamie ، وامتيازات الرجـل الاجتماعية – لكن هذه المكتسبات الحضارية تقاوم بعناد حلول أشكال أخرى ، بل متناقضة ، للتنظيم الاجتماعي – الاقتصادي ؛ إلى حد ينتهي معه الأمر إلى اعتبارها بمثابة مكتسبات للحضارة ، تحدد بدورها ، خلال زمن طويل إلى حدٍ ما ، أشكال التنظيم الاجتماعي المختلفة . ثانياً ، يمكن تعيين بعض مكتسبات الحضارة هذه مثل الكسب الناشيء نتيجة لعلم تكون الإنسان وتطورهـــا وعلم التوليد phylogénetique ودراسة تكون اللغة لدى الأطفال ، وهو عـــلم نشأ في زمن متأخر تاريخياً وله علاقة وثيقة بالقدرة على التجريد ، والتفكير المنطقي والنشاط والفعل التفكيريين – هـــذه المكتسبات التي يمكن اعتبارها شرطاً

---

(١) راجع هربرت ماركز « Das verhalten der psychoanalyse kultur und Gesellschaft, ١٩٦٥ – ص٨٥ وما يليها .

مسبقاً لكل شكل عالٍ من التنظيم البشري ، ولكيفية دخول الناس في علاقات اقتصادية بعضهم مع بعض . ثالثاً ، يمكن أن نذكر ، بين أحدث مكتسبات الحضارة، وعلى وجه التحديد مكتسبات الحضارة البورجوازية – مثلا الاستقلال الذاتي ، المسؤولية ، الحب والاخلاص – هذه المكتسبات التي تكون ، في شكل أعلى ، من التنظيم الاجتماعي ، مثلا ، في حضارة اشتراكية ، لا « نافلة » زائدة عن الحاجة » ، ولا ينبغي إلغاؤها بصورة منهجية ودأب ، بل سوف تتطلب بمجرد تحريرها من ضيق الوجود البورجوازي ، وفكها من إسار الاغلال الاقتصادية للمبادىء الرأسمالية ، التي لا تمنح تلك المكتسبات إلا لأقلية ذات امتيازات ، وكذلك بأشكال ضامرة هزيلة ، نوعياً .

إن مهمة التحليل النفسي الراهنة تبدأ بالضبط في الموضع الذي يحدده له اليوم أغلب العلماء البورجوازيين المختصين في هذا العلم والسياسيين الماركسيين[1] وكأنما باتفاق مشترك ، حيث يحدودن إمكاناته – أي علم التحليل النفسي – المعرفية أو الإدراكية ses possibilités cognitives. أي حيث يبدأ تعيين العلاقة المثلثة الزوايا لشكل التنظيم الاجتماعي – الاقتصادي ، للتعبير والتوطيد الخاصين بحضارة معينة لهذا الشكل من التنظيم ، والكيفية الفرديـــة بالتفاعل إزاء ذلك ، والرد عليه ، إما بالإندماج فيه ، وإما بتحويلها . وسوف نعالج في هذا الكتاب وجهاً واحداً من هذه العلاقة المثلثة الزوايا: المظاهر والتجليات

---

(١) يقدم لنا روبرت ستيبجيروالد في هذا الصدد مثالا نموذجاً ، بصورة خاصة على الجهل ، لدى نشر نقد موجه إلى هربرت ماركوز ، نشر في مجلة Marxistische Blattern العدد ٦ – ١٩٦٧ ، ص ٣٣ وما يليها . وقد جاء في النقد المذكور : « ليست المسألة أن نجعل من الحب الجنسي والحضارة » موضوعاً لنقاشنا . ومع ذلك ينبغي أن نقول كلمة صغيرة في هـــذا الصدد : ان نظريات فرويد ، نقطة انطلاق ماركوز، هي ذات قاعدة تاريخية مزيفة ،دحضتها الأبحاث المتعلقة بما قبل التاريخ . والواقع ان هذه الابحاث قد أكدت وجود أوضاع اجتماعية ، على مثال الأوضاع التي قام ماركس وانجلز بتحليلها ، ولكن لا وجود لخرافات فرويد التاريخية المزيفة » .

الفردية والاجتماعية للغريزة الجنسية : ما هو إسهام النشاط الجنسي في تكوين الفرد في مجتمعنا ، وكيف يتفاعل الأفراد ، بدورهم ، مع التنظيم الاجتماعي وبأية كيفية يردون عليه ، وما هي الاندفاعات وإمكانات المتعة ، التي يجري كبتها أو التخلي عنها ، وبأية كيفية ، بدورها ، تنعكس هـــذه التخليات والتكيفات على التنظيم الاجتماعي .

التحليل النفسي ينطلق من مبدأ أن الغريزة الجنسية توجد منذ أول الطفولة الباكرة ، وتشترك بنشاط في التجليات الأولى لنشاط الولد ، كما تشارك في القدرات الأولى تماماً ، التي يملكها الطفل للتفاعل مع محيطه المباشر ، وضبط جسده ، وتحقيق التكوينات المسبقة لما سوف يسمى فيما بعد الوعي بـ « الأنا » وتجلياته واكتساباته . هذا المبدأ أثبت صحته منذ ذلك الحين ، وبعد ذلك ، تجريبياً ، وإن كان لم يجر حتى الآن بصورة كلية ، تعميق المسألة على الصعيدين العيادي Clinique ، والنفساني (المتعلق بعلم النفس) . ولا تجري ، في الطفولة الباكرة ، لا السيطرة على مظاهر الغريزة الجنسية ، ولا حتى الاحساس بهـا من جانب الطفل ، بصفتها توتراً جنسياً أو لذة جنسية . ويكون للغريزة الجنسية لدى الطفل في هذه السن وجود مستقل عن الطفل نفس استقلال مظاهر نشاطه الجسدية أو الانفعالية الأخرى . إن قـــدرة السيطرة على الغريزة الجنسية تكتسب ، تماماً مثلما يكتسب ضبط النشاط العضلي sphincter (القدرة على التنسيق ما بين نشاطات العضلات ، وبخـــاصة ضبط الجهاز العضلي الحلقي musculature annulaire) : وابتداء من سن معينة ، فقط ، يغدو الطفل قادراً ، بيولوجيا ، على ممارسة هذه الضوابط الرقابية (مثـــلا حركات الذراعـــين والساقين) ، إلا أن البناء الفوقي la superstructure – لدى الاندراج في حياة المجتمع – حيث يجري تنشيط هذه القدرات ونقلها ، يمنحها ، أي البناء الفوقي ، في الوقت نفسه ، شكلاً نوعيـاً خاصاً بالحضارة المعنية التي يعيش ضمنها الفرد المعني . إن القدرة على ضبط الوظـــائف المرشحة للاستبعاد

والالغاء يمكن أن توضح لنا المقصود بذلك القول ، فابتداء من سن معينة – يمكن أن تختلف تبعاً للحالات – يصبح الطفل قادراً ، **بيولوجيا** ، على ضبط مجموعة عضلاته الحلقية . وبالتالي ، فابتداء من هذه السن ، فقط ، يمكن أن يرسخ في عقل الطفل ووجـــدانه ونفسه ، بصورة منطقية جيدة ، احترام ارشادات الترتيب ، والنظام ، والنظافة ، والدقة والانتظام la ponctualité ، وحاجز الاشمئزاز ، وكلها عناصر حضارة معينة . ولكن أية من هذه يجري إبرازها بصورة خاصة ، أو يجري إهمالها كلياً (مثـــلاً ، حاجز الاشمئزاز) كيف يجري ترسيخها لدى الطفل ، – أبصورة قسرية ، جداً ، أم قليـلاً ، أم غير قسرية بالمرة – هـذا كله يتوقف على الشروط الاجتماعية – الاقتصادية ، والمفهوم الذي لدى هذه الحضارة عن ذاتها . وإذا أخذنا في الحسبان ، لدى تفحص هذه الظاهرة ، واقع أن المنطقة الشرجيـــة هي منطقة مولدة للإثارة الجنسية بصورة مميزة ، ومصدر للذة الجنسية ، وان هذه الظاهرة هي أيضـاً جنسية ، تبرز بوضوح نقطتان لأجل دراسة القضايا في هذا الفصل من كتابنا :

١) انه لا يمكن توجيه ولا ضبط الغرائز الجنسية ، **بصورة اعتباطية ، تحكيمية** ، بل ان كل توجيه وكل عملية ضبط انما ينتجان عن قاعدة بيولوجية ، ويطيعان قوانين ، رغم أنها غير بيولوجيــة ، إلا أنها لا تستطيع أن تنتهك ، دون عقاب ، هذه القاعدة . وإذا كانت الغريزة الجنسية ، تماماً شأن الحاجة الى الغذاء هي غريزة جنسية فطرية ، أصيلة ، فانه لا يمكن الغاء النشاط الجنسي إلغاء تاماً ، كما أنه لا يمكن إلغاء الجوع . الغريزة الجنسية ، شأن الجوع ، يمكن أن تختفي كلياً ، خلال وقت معين . – بعد الشبع – كما يمكن ، من جهـــة اخرى ، للغريزة الجنسية ، خلافاً للجوع : أ) ان تضطر لتأجيل التلبية والإرضاء المباشرين لهذه الغريزة الجنسية طول زمن غـير محدد . و ب) « تلبية الغريزه الجنسية وإرضاؤها » عن طريق الأنمـــاط الخاصة بحضارة معينة ، لا يجري إدراكها بصورة حسية ، خارجياً ، بصفتها وسائل لاشباع الغرائز الجنسية . إن

عملية التطور القائمة في أساس هذه الآلية ، والتي تحول الغريزة الجنسية عن هدفها الأولى ، تتجسد في عمليتين مختلفتين : عملية كبت ، وعملية تسام أو إعلاء sublimation (وسنوضح هاتين العمليتين في صفحات تالية) .

٢) وبموجب هذه الصفات – المرتكزة على معطيات بيولوجية – تضطلع الغريزة الجنسية بنقل قابلية تكيف الفرد مع المجتمع المحيط به ، وحمل مكتسبات هذا الفرد ، إلى صعيد التمدن . وتتولى الغريزة الجنسية فعلياً هذه الوظيفة في كل المجتمعات البشرية المعروفة . وانما بممارسة الغريزة الجنسية هذه الوظيفة ، تتطور بصورة ثابتة ، طويلة الأمد .

لقد اكتشف التحليل النفسي أن الفرد يجتاز ، خلال نموه وتطوره الجسديين في طفولته عدة مراحل ، خاضعة لسيطرة مناطق مولدة للشهوة الجنسية ، محددة بالضبط ، وهذه المناطق تطيع وظائف معينة من اللذة – والانزعاج (الكدر ، اللالذة) . ونستعمل هنا تعبير « اكتشف » لأن هذه المراحل ليست فقط صياغات خاصة بعلم التحليل النفسي ، يمكن عند الاقتضاء استخدامها سوسيولوجياً (في ميدان علم الاجتماع sociologiquement) – وهذا ما يحدث على كل حال – بل أيضاً لأن الطفل يجتازها واقعياً . هذه المراحل هي ، التالية ، على التوالي : المرحلة الفموية ، فالشرجية ، فالقضيبية (نسبة إلى القضيب ، عضو الذكر) ، وهذه المرحلة الأخيره ، تجد نهايتها ، في الحضارات الأبوية patriarcales المسماة متمدنة ، تجد نهايتها في مركب أوديب ، هذا المركب الذي إذا جرى حله بصورة صحيحة ، يؤدي إلى فتره من كمون الشهوة الجنسية ، طويلة إلى هذا الحد أو ذاك ، يتقيد بها الغلام بصوره تامة ، إلى هذا الحد أو ذاك ، يخفف خلالها رأي فتره الكمون تلك – السلوك الجنسي الصريح ويكبح زخمه مؤقتاً ، وأخيراً تعقب هذه الفتره فتره النضج الجنسي – الثاني –.

إن خاصية المرحلة الفموية هي واقع أن الطفل يقيم علاقــات لذة مع أول شخص من محيطه ، أي مع أمه . واللذة النوعية لهذه العلاقة تؤمّنها الأحاسيس الفموية (كل ما يكوّن الفم) من امتصاص ثدي الأم أو بديـــل عنه (اصبع الطفل ذاته) أو « المَصّاصة ») . والشخص ، عند هذه المرحلة ، ليس سوى « وحدة من اللذة » تابعة كلياً ؛ وهو لم يميز بعد « الأنا » عن العـــالم الخارجي (الأم) أو عن « هذا » (الآخر : le ça) ولعله يدرك حسياً ثدي أمـــه بصفته جزءاً منه هو ذاته - أي الطفل - (وحدة الـ « أنا » و « الانفصـــال اللاواعي ») وسيتم تجاوز هذه المرحلة بغياب ثدي الأم ، بالفطام ، الذي يرغم الطفل على الانفصال عن أمه ، والاقرار بها كشخص من العالم الخارجي ، متميز عنه . وهذ الانفصال ، سواء أتم عاجلاً أم متأخراً بعض الشيء ، يعيشه الطفل دائماً بصفته فقداناً للذة جنسية ، وبمثابة شيء مؤلم مُعَذّب ، وبصفته همـــاً مزعجاً ؛ لكل الطفل ، في هذه الفترة ، يكتسب قدرة لا غنى عنها لكل تربية لاحقة ، ولكن نشاط اجتماعي : التمييز بين الـ « أنا » و « اللاأنا » ، أي بين « الأنا » والعالم الخارجي . وفي المرحلة الشرجية ، يحصل الطفل على أحاسيس اللذة بواسطة المنطقة العضلية التي تضبط آلية إفراغ الامعاء. وفي هذه المرحلة، فإن توظيف أشياء من العالم الخارجي ، على أساس الشهوة الجنسية الشبقة ، يبلغ درجة بحيث ينبغي الإقرار معهـــا بأن الشخص الذي يقوم بعمليات التوظيف هذه قد توصل إلى درجة عالية من تكون الأنا .

ويفعل الطفل شيئاً ما ليروق في عيني أمـــه (إخراج برازه بانتظام) . وهذه المرحلة تفضي إلى المرحلة القضيبية ؛ وتكون أعضاء الولد الجنسية في هذه الفترة قـــد نمت إلى حد لا بأس به ، ويغدو باستطاعة الولد أن يضبط بنفسه وبصورة كافية نشاطاته لكي يتمكن من الحصول يدوياً على أحاسيس جنسية ، تؤدي مبدئياً أيضاً إلى الانتماظ (بلوغ ذروة اللذة الجنسية : orgasme) . وخلال هذه الفترة، يكون الولد قد توصل إلى مرحلة من الاجتماعية يستطيع معها

أن يدرك حسياً ، بينه وبـــين محيطه المباشر ، علاقات غَرَضية ، تساوي في وجوه عدة ، العلاقات الغرضية التي يدركها حسياً الشخص الراشد ، كالرغبة ، مثلاً ، في جعل الشخص المحبوب يحمل منه بطفل . وهذه الرغبة تتساوى فيها البنات والغلمان ، على حد سواء ، وهي تبرز بانتظام ، طبعاً دون التقيد بمعيار الراشدين القائم على الفصل بين الجنسين . بـــل بالعكس ، فإن الأم ، في رؤيات الولد الاستيهامية (أي الأحلام الغريبة والهلوسة الخ) تكون ذات قضيب كالذَكَر. وتلك الرغبة محظورة وغير مقبولة ، تقريباً في جميع الحضارات المعروفـــة ، وستكون هذه الرغبة خاصة بتحريم مظهر الزنا . وهذا التحريم يتم التقيد به ، في الوقائع والأعمال ، خلال **الحالة الأوديبية** ، مؤكد ليس في جميع الحضارات البدائية ، ولكن بالمقابل ، في جميع الحضارات البورجوازية وأشكالها السابقة.

وطبقاً لهـــذه الحالة ، وفي ذروة المرحلة القضيبية ، يفرض الأهل حظر النشاطات الجنسية لفترة معينة (تأجيل النشاطات الجنسية ، فترة الكمون) وداخل الوسط العائلي (حظر الزنا). وفي الحضارات التي يقال إنهـــا تعيش مركب أوديب ، لا يجري ذلك الحظر دون تهديد بالعقاب : التهديـد بالخصي (بالنسبة للغلمان) . ولن يكفي هـــذا التهديد ، وحده ، في تحقيق السلوك المرغوب فيه ، إذا لم يكن مدعوماً بنوع من البرهان أو التهويل بحيث يستوعب الولد ، والبنت الصغيرة أيضاً ، الآن ، فكرة تؤكد له أن المرأة (الأخت ، أو الأم ، أو رفيقة اللعب) قد خصيت فعلاً (نالت عقابهـا) في نظره . وفي رأي فرويد ، إن المركب ، بكامله يضمحل بصورة طبيعية لدى الشخص الذي سيوصف فيما بعد بأنه طبيعي ومتكيف تماماً مع مبدأ الواقع ، في عدم قدرة الولد بيولوجياً على القيام بالعمل الجنسي. ولأجل بداية صحيحة لفترة الكُمُون ، ينبغي ، إلى جانب التخلي عن الأهل بصفتهم أغراضاً جنسية مباشرة ، وكبت الرغبات الجنسية التي يوجهها الولد - والبنت - نحو أعضائها التناسلية ذاتيهما ، ينبغي استخدام بعض المنجزات الهامة ، التي تكون مراحل مـــا قبل النضوج

الجنسي قد أنشأت شروطها المسبقة (المرحلة الفموية ، فالشرجية فالقضيبية). هذه المنجزات ، وقدراتهـــا المطابقة ستكون دائماً منطلق نقاشنا في الفصول التالية . وبينها ، يجب أن نذكر ، قبل كل شيء ، المنجزات الثلاث التالية :

١) لا يمكن الاكتفاء بكل بساطة بكبت عقدة أوديب . بل ينبغي أن تكبت فقط الحركات الموجهة نحو الأبوين ؛ بل إن مجمل العقدة يجب أن يلاقي أكثر من الكبت ، يجب تـــدميره ، إزالته تماماً (حسب تعبير فرويد نفسه Zerstôren, aufheben) . وعلى كل حال فإن فرويد لم يعمق هـــذا التمييز [٨] ، علماً بأنه بالغ الأهمية إلى أقصى حد. إن الكبت يريد أن يعني أن العقدة لن يجري التغلب عليها تدريجاً ، بـــل سوف تُنْسَى رسمياً ، فقط ؛ وهي لن تزول ، بل ستواصل حياتها التحتية ، مسيطرة فيما بعد على الرجـــل بصورة مولدة للمرض ، لكنها تسيطر عليه وهو ما يزال ولداً وذلك باضطرابات عصابية لفتره الكمون (الاستمناء الاضطراري ـ ممارسة العادة السرية ـ أو تكويناته الردفعلية : حك الجسم ، قرض الأظافر بالأسنان ، الاصابــة بحالات سلس البول) . إن تدمير العقدة معناه أن الولد يتخلى ويتغلب على الدوران النموذجي في فلك والديه ، والتبعية الدائمة لهما ، تلك التبعية التي تحكمهـــا أحاسيس المتعة والقلق ، ويجب أن يجد الولد نفسه حراً بإقامة علاقة مستقلة ذاتياً ذات قيمة أكبر (سواء أكانت تتصل باللذة أم بيقظة الوعي) .

٢) إن توظيف أغراض الأبوين خلال المراحل السابقة للنشاط الجنسي يجب أن يتخلى عنها لصالح المماثلة مع أحد الأبوين ـ في الحالات الطبيعية ـ الذي هو من نفس جنس الولد (البنت ـ الأم . الولد ـ الأب) . وهذه المماثلة هي

---

(٨) راجع Sigmund Freud, Der utergang des ôdipuskomplexes
(« انهيار عقدة أوديب » ـ المؤلفات الكاملة ، الجزء ١٣ ص ٣٩٩ ـ باللغة الالمانية .

أحد الشروط الأساسية ، الذي يتيح الاضطلاع فيما بعد بالدور الجنسي و — في المجتمعات حتى أيامنـــا الحاضرة — بالأدوار الاجتماعية الأخرى المفهومة تبعاً للدور الجنسي .

٣ — هذه المماثلة هي في الوقت نفسه الشرط الضروري ، الذي يتيح للجهاز النفسي فصل مرتبة نفسية مستقلة إلى حدٍ ما،ونصب أنا — مثالي وبديهي تماماً . إن المماثلة تعني أيضاً : إقامة سلطة الأبوين والأهل والمؤسسات — الخلقية ، والثقافية ، والاجتماعية — التي تمثل الأبوين ، في الشخص . وبديهي أنه لأجل التوصل إلى مرتبة الضبط والرقابة ، هذه ، ذات الاستقلال الذاتي إلى حدٍ ما ، ولـكي يمكن أن يكون ثمة تكون لل « أنا — المثالي» ، فإن وظائف الأنا الأولية يجب أن تُطوّر بصورة كافية ، إن تكون الأنا المثالي ، الجدير بهذا الاسم ، لا يقتصر على جعل الفرد قادراً على كبت رغبات شخصية — فلو ظلت هذه هي القدرة الوحيدة لهذه المرتبة ، فستكون في أغلب الحالات،صفة مُمرِضة[1] لأنا مثالي ضعيف ، أي في الوقت نفسه متصلب، متحجر ، فاقد المرونة ، غير قادر على التكيف . بل إن الأنا - الأعلى يكتسب ، من جهـــة أخرى ، القدرة على استبعاد الرغبات الغريزية الجنسية الملحة ، الضاغطة،والتصرف بصورة مستقلة عن المنظومة المباشرة للعقوبات— المكافـآت لمراجـع الضبط والمراقبة الطفولية (الأبوين ، الأهل) . هذه القدرة هي مكتسب خاص بالحضارة ، التي لا يمكن تسميتها قمعية فقط ، وذلك لأنها لا تظهر ، في أغلب الحالات ، إلا في الشكل الخاص حيث الأنا — المثالي اقتصر على إحلال نفسه محل منظومـة عقوبات — مكافـآت الأبوين ، بدلاً من بناء منظومته الخاصة لضبط حقائق الواقـع ومراقبتها .

---

(١) ممرضة : أي مولدة للمرض ، راجع « المنهل » (المترجم) .

إنّ للجهود المبذولة للتغلب على عقدة أوديب المدلولات التالية :

إنها ، في جميع الحضارات المعروفـــة ذات التنظيم الاقتصادي والاجتماعي المتعين ، تسجل الانتقال من التبعية الطفولية إلى التكون – الناجح إلى هذا الحد أو ذاك – لشخص مستقل ذاتياً . وتشكل جزءاً من هـذا الاستقلال الذاتي ، قبل كل شيء ، القدرة على تنظيم تكوّن النشاط الجنسي ، بصورة صحيحـة ، الذي يستأنف مسيرته بعـــد النضوج الجنسي ليتخذ موقعه نهائياً . « بصورة صحيحة » ، تبعاً للتنظيم الجنسي . يعني ، في هذا الصدد ، أن الغرائز الجنسية الجزئية غير المنسقة ، وغير القابلة للضبط والرقابـــة . (هكذا تسمى مظاهر وتجليات الغريزة الجنسية خلال المراحل الما قبل النشاطية – الجنسية ، من وجهة نظر الممارسة الجنسية) هي تابعة لأولية primat الحيـــاة الجنسية . وتلك الغرائز الجنسية المذكورة لا يمكن ، بأي حال من الأحوال ، الخلط بينها (إن هذه النتيجة المحرزة بعد بلوغ النضوج الجنسي ، تعني كبتاً غير مطابق للغرائز الجنسية الجزئية أثناء أو قبل المرحلة الأوديبية ، ويرافقها عـــادة اضطرابات عُصابية) ؛ ولكن لا ينبغي لها ، أيضاً ، أن تسود لذاتها (هـذا الشكل من السيطرة الطفولية غير المُتَغلب عليه ، من أشكال الغرائز الجنسية الجزئية يمكن أن يوصف بأنه شكل منحرف) . وعلى الصعيد الثقافي ، وفي أنمـــاط المجتمع النوعية ، تطابق هذا النشاط الجنسي سلسلة كبيرة من الصفات المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالتنظيم الجنسي . ونجد بينها ، بصورة خاصة ، المزايا الاجتماعية : الاخلاص ، والحب ، والاستقلال ، ثمّ مماثلاتهـا المنطقية – الادراكية : التفكير ، وحرية الاختيار ، وأخيراً ما يتلازم وهذه المزايا والمماثلات من ملازمات اجتماعية – اقتصادية : الانضباط الذاتي ، والقدرة الابداعية ، والاقرار بالعلاقات الاجتماعية التي تتجاوز الأفراد . هذه القدرات تعود بصورة أساسية إلى الطابع النشاطي الجنسي الما بعد الأوديبي ؛ ولن نعمد في هـــذا الكتاب إلى استخلاصها بصورة منهجية من إطارهـا الأصلي المنشأي : الجنسي والاجتماعي . وسنذكر مثالين ،

مأخوذين من الحضارات المسماة بدائيـــة ، ذات تنظيم اقتصادي سكوني stationnaire ، يجعلاننا ندرك أن هذه القدرات مرتبطة بمستويات محددة من تطور الانتاج وتجديد الانتاج الماديين ، التي لا تستطيع بدونهما الظهور ، وأنها ، من جهة أخرى ، لا غنى لهما عنها .

١ - تذكر مرغريت مايد ، من جملة ما تذكر ، وضع ثلاث قبائل في غينيا الجديدة [1] ، كانت كل منهـا تتميز بوضوح تام عن الأخرى في نمو بعض سمات الطباع . فإحدى هذه القبائل لا تعرف الروح العدوانية ، مطلقاً : ومع ذلك ، فإذا اضطرت هذه الروح العدوانية للظهور لدى أحد أفراد هذه القبيلة ، فإنها تلاقي تسامحاً من جانب القبيلة دون أية عدوانية مقابلة (تسامح قوي جداً إزاء حالات الشذوذ) . والقبيلتان الأخريان ، شديدتا العدوانية إلى أقصى حد ، في سلوكها الافرادي والاجتماعي ، وأفراد هاتين القبيلتين هم ، على كل حـال ، صيادو رؤوس . هذه القبائل الثلاث (التي تعيش في مناطق مختلفة جغرافياً ، لكنها متجاورة مع ذلك) يمكن تصنيفها اقتصادياً في فئـــة « الاقتصادات السكونية » ؛ فهذه القبائل لا تعرف أية طريقة ، مهما كانت بدائية ، من طرائق تكديس الخيرات أو الرساميل ، وإن كانت تملك عملة للتبادل (الأهداف) ، إذن فقد اكتسبت تلك القبائل على صعيد التمدن ، القدرة على التجريد الادراكي (حساب تحويل السلع إلى عملة) وهـــذه القدرة هي خاصية اقتصاد نقدي économie monétaire . ومؤكد أن لدى كل من هذه القبائل الثلاث قوانين متميزة ، مختلفة بعضها عن بعض ، لكنها ، كلها تتساوى في أمر هـــذا التعقيد ، لإرغـــام أفرادها جميعاً على التقيد بحظر الزنا . لكنها لا تعرف مطلقاً ظاهرة

---

(١) مرغريت مايد « العادات والتقاليد والحياة الجنسية في أوقيانيـــا » مجموعة « أرض البشر » - منشورات بلون - ١٩٦٩ - (ترجمه عن الانكليزية إلى الفرنسية جورج شيفاسو) .

مماثلة لعقدة أوديب ، التي تضمن إقامة عملية التراتب اللاحقة للنشاط الجنسي التناسلي . وقليلاً جداً مـــا يبدو أنه يظهر لديهم ما يطابق عندنا الانتقال من المرحلة الشرجية إلى المرحلة القضيبية . إن التحول الذي يحـــدث في المرحلة الشرجية ، وبخاصة في المجتمعات البورجوازية ، ذو اتصال مباشر بمـا سوف يسمى ، فيما بعد ، عند الفرد ، بالقدرة على الترتيب والنظام ، والدقة المنتظمة (في افراغ أمعائه) ، وفي الوقت نفسه ، القدرة على نبذ ما هو «منفّر» وغير محتشم . (مثلاً الجامعة أثناء عملية الاستمناء ، أي ممارسة العـادة السرية) . هذه العلاقة تقوم بصورة رئيسية على قمع اللذة الشرجية ، التي لا تعود للظهور مجدداً ، إثر ذلك ، إلاّ بالأشـكال المذكورة آنفاً : الترتيب ، الانتظام ، الخ ، وتلك العلاقة تبقى قائمة ، وتعطى نماذج هامة بـــل مهيبة للضبط والترتيب والانتظام ، وانتاج الحياة البشرية وتجديد انتاجها ، مثلاً . ومما لا شك فيـــه مطلقاً أنّ أفراد القبائل المذكورة يجتازون خلال طفولتهم مرحلة «تستمد» الأحاسيس الجنسية خلالها من المنطقة الشرجية . لكن هذه المرحلة لا تشكل هنا البداية التي تتيح تحقيق مكتسبات الحضارة التي تميز مجتمعنا ، والتي تجعل من تلك المرحلة الأولى ما اتفق على تسميته « المرحلة الشرجية » .

لكن مجتمعات هذه القبائل الثلاث المذكورة ، هي ذاتها ، يبدو أنها بقيت ، في مجملها ، بصورة ما ، في مرحلة ما قبل الشرجية ، أي في المرحلة الفموية ، وفي الحالتين ، بقيت تعيش في ممارسة أكلة لحوم البشر cannibalisme ؛ وأفراد هذه القبائل يأكلون فوراً ما يجدونه من غذاء ، وهم غير قادرين على ادخـــار الثروة والاحتفاظ بها ، من المنتوجات والخيرات ، في الشكل الأكثر بدائية ، كما أنهم غير قادرين على تحقيق أي شكل من أشـكال التكديس الأولي . هـذه الملاحظة يمكن أن تفسح المجال لاستنتاجين – متعارضين – : فإمّا أنه سيكون على هذه الحضارات ، حتى نهايتهـا الطبيعية أو المفروضة من قبـــل الحكم الاستعماري ، أن تجدد انتاج ذاتها في دائرة اقتصادية مقفلة ، غير تطورية ، ذلك

لأن هذه « المجتمعات » لم تحقق أبداً، على مستوى حضارتها ، ما تحققه إفرادياً، أي المرحلة الشرجية ، ولأنها لم تقم قط وظائف تحديد اللذة وتساميها، المطابقة لتلك المرحلة . وإمّا أنـــه كان في وسع تلك المجتمعات أن تتخلى عن تكوين طابع شرجي قمعي، لأنها لم تكن تعرف سوى نظام اقتصادي متوقف، سكوني. ولكن ينبغي التنبيه إلى أننا إذا اتبعنا هذه السلسلة أو تلك ، من الترابطات ، فإن هذين الاستنتاجين ، في شكلهما الوحيد العلة ، خاطئان ، دون أي شك .

هنا يعزى نمط تطور إرضاء الشهوة البشرية إلى تحولات خارقة ، « مـــا فوق طبيعية » أو عَرَضية ، عشوائية — وسيكون من الخطأ تماماً الاعتقاد بأن هذه المجتمعات تعيش بحُريّـة على الصعيـــد الجنسي ، ذلك لأن القيود والتضييقات خلال المراحل الطفولية للتنظيم الجنسي لا تمكن مقارنتها ، من أية وجهة كانت ، بقيود حضارتنا ، في الصدد نفسه . مؤكد أن تلك المجتمعات القبليـــة تتبنى سلسلة من التصرفات والممارسات الجنسية ، التي كانت في المجتمعات الرأسمالية ، خاضعة للتحريم المشدد جداً ، خلال زمان طويل ، والتي كانت مرتبطة ، في المجتمعات السابقة لها بطقوس ساترة ، صارمة إلى هذا الحد أو ذاك (مثلاً ، فيما يتعلق بالعلاقات الجنسية ما قبل الزوجية ، أو خارج السرير الزوجي) . لكن هذا السلوك مرتبط بقواعد خاصة بحالات الزواج الخارجي exogamie الشديد التعقيد (وهي قواعد القصد منها تعزيز حظر الزنا) وأفراد القبيلة يخضعون كلياً لهذه القواعد ، بحيث لا يمكن الكلام في هذا الصدد عن حريات جنسية ، وأقل من ذلك أيضاً عن استقلال ذاتي في اختيار شريك الحياة . ويمكن القول، باختصار : إن العلاقة الجنسية التناسلية تمارس ، حتى بتقنيات مختلفة ومتنوعة، تؤدي ولا شك ، بانتظام ، إلى الانتعاظ (بلوغ ذروة المتعة الجنسية) ، لكنها — أي العلاقة الجنسية كما تمارس في تلك المجتمعات — لا تندرج ، من وجهة نظر بنية الأنا ، في سياق نشاط جنسي تناسلي عضوي ، كما تعرفه مجتمعاتنا، (نشاط ما بعد الأوديبي) بل ترتبط تلك العلاقة بصورة عامة بالنماذج الطفولية .

٢ – هذا المثال الأوّل يثبت انه توجد علاقة واضحة تماماً ، بديهية ، بين مرحلة التطور الاقتصادي لمجتمع ما ، والتقنيات التي يستعملها لأجل فرض المتطلبات المتعلقة بالطباع الفردية والاجتماعية المطابقة لمستوى الحضارة الذي تم الوصول إليه . وهذا المثال يجعل بديهية هذه النتيجة : إن المراحل المعينة بيولوجياً للتطور الجنسي للطفولة المبكرة يمكن أن تقدم قاعدة مختلفة – بل وحتى متعارضة – لأنماط المَجْمَعَة (دخول الشخص في المجتمعية) socialisation[1] . وهذا لا يناقض التأكيد التمهيدي الذي سبق تقديمه ، والقائل إن المجمعة لا يمكن أن تتم كيفما كان ، وإنما فقط تبعاً لقوانين معينة ؛ بالعكس ، فهذا يدعم ذلك التأكيد .

إن الدوغون،وهم قبيلة من قبائل افريقيا الغربية ، **جرت دراستها مؤخراً، قد قدموا لنا نتيجة أخرى للمجمعة ، خالية** من عقدة أوديب تمكن مقارنتها بالعقدة التي في مجتمعاتنا ، ولأول وهلة يبدو أن أفراد هذه القبيلة الراشدين ، يكتسبون في مجمعتهم الشروط المسبقة لقدرات متنوعة متمايزة،مولدة لحضارة، كتلك الشروط التي تجتمع في مقولة الاعلاء أو التصعيد أو التسامي بالنسبة لشخص من العصور اليونانية والرومانية القديمة،والمجتمع البورجوازي (عمليات تحويل الغرائز الجنسية إلى نشاطات اجتماعية ، خلافاً لكبتها) . لكن هذه القدرة « التصرف عن طريق تصعيد أو إعلاء معيّن » – وظاهر أن ذلك لا يمضي بعد إلى أبعد من ذلك - يجري ترسيخها لدى الأشخاص،وذلك بالضبط، باستبعاد الشروط المسبقة التي يستند إليها الشخص المتمدن لأجل التسامي باندفاعاته الجنسية الزاخمة المباشرة ، وتوجيهها نحو أشياء العالم الخارجي . ولا يمكن أن نعزو « أنا » فردياً للدوغون ، كما هي الحال بالنسبة لمجتمعات بدائية أخرى . فما سبب ذلك ؟

---

(١) راجع قاموس « المنهل » (المترجم)

« إن الشخص من الدوغون لا يرتبط بشخص واحد، بل العكس، فهو يوزع نشاطاته الجنسية على عدة أشخاص ، وسلوك الأم هو منشأ هذا الموقف ، فهي ترضع الطفل حتى عامه الرابع ، والارضاء المطلق لرغبات الطفل هو في المرتبة الأولى ، عند الدوغون . ولا يعرف الولد إذناً ولا حظراً ، وهكذا فهو لا يحس بقلق الفراق ، أو الانفصال ، وتجارب طفولته المبكرة خالية من العدوان ، إن الفرق في كيفية معاناة عقدة أوديب هام جداً . إننا ، في حضاراتنا ، نستبطن (نألف إلفة داخلية حميمة) أشياء ثابتة ، وأشخاصاً منفردين . أمّا الفتى الدوغوني فلديه طرق متعددة لاجتناب العلاقات مع أنثى واحدة . هذه العلاقات مرهوبة ، عند الدوغون ، بمقدار ما نخاف نحن ، في مجتمعاتنا ، من الأخطار المباشرة الناتجة عن النشاطات الجنسية الإباحية . وينزع الدوغون إلى قمع الميل لإقامة علاقة جنسية دائمة مع شخص واحد ، وبدلاً من ذلك ، نراهم ينزعون إلى التصرف والرد ، بتسام معين . إن « أنا » يتكون على هذا النحو هو أكثر مرونة وأكبر قدرة على التطبع . وهو يتكيف بصورة أسهل مع مختلف متطلبات النشاط الجنسي ، لكنه مستقل عن موقف شركائه في ذلك النشاط . والشكل الرئيسي للدفاع هو الانزعاج والتكدر من الارتباط ؛ إن « أنا » الدوغون يعمل بصفته « أنا » جماعة [1] » .

---

(١) تقرير عن المؤتمر العالمي الثالث والعشرين لعلم التحليل النفسي ، نشر في
Kôlner Zeits-chrifft fûr Soziologie und Soz ps No 4 ' 1963 p 778 .

انظر أيضاً باران ومورجينتايلر في كتابهما

Die Weissein denken zuviel - psychoanalystische Untersuchungen bei den Dogon in westafrika , Zûrich, 1963 .

هذه الدراسة هي مثال فذ ، ووحيد تقريباً ، يبين كيف يمكن تطبيق نظرية وتقنية =

لدى القراءة الأولى ، يبدو هذا الوصف وكأنه طوباوية شيوعية . إلا أن الدوغون ليسوا تابعين لهذا الوضع « الطوباوي » . لقد انصرفوا إلى ممارسة هذا الوضع الماقبل التاريخي وذلك في تبعية تامة لعلاقة الانتاج ، التي يندرجون فيها منذ ولادتهم ، وهم عاجزون تماماً ، من تلقاء ذواتهم ، حتى عن مجرد ملاحظة أو إدراك وضعهم ذاك ، ومقاومته أو تغييره . مؤكد أن المجمعة تحدث حتى سن متقدمة مع أدنى حد من التضييق على النشاطات والغرائز الجنسية . وبالتالي ، فإن أفراد قبيلة الدوغون مجردون من العدوانية . لكنهم ، في الوقت نفسه ، عاجزون عن إقامة علاقات جنسية مع شخص بمفرده . وهذه الظاهرة الأخيرة ، أي عدم إقامة اتصال جنسي بافراد وإنما بجماعات ، يمكن اعتبارها – لدى النظر إليها سطحياً – بمثابة هدف ممتاز لكن الدوغون عاجزون تماماً عن أن يقيموا ، بصورة **مستقلة ذاتيا** ، علاقات مع أغراض **ثابتة** . والحال ، فإن هذه القدرة هي الشرط الذي لا غنى عنه لكل تنظيم بشري ذاتي حر . الدوغوني رهن لموقف الشركاء (في العملية الجنسية) ، وهذا ، أيضا ، ليس معياراً سلبيا ، بالضرورة : فالتضامن والاتصال يولدان دائما على أسس تبعية . لكن الدوغوني ، هو إلى جانب ذلك ، عاجز عن التغلب على التبعية بعلاقات متبادلة . وهذا بدوره ، شرط إضافي مسبق ، لكل نشاط انساني فعال ونشيط – تلقائيا ، وهو التعريف الممتاز للتضامن في الصراع الطبقي . ونحن نجد ، باستمرار ، في الدراسة المنهجية لهذا النوع من المجتمعات البدائية ، هذا التداخل الصميم بين النتائج المتمناة أو الجديرة بالرفض – اليوم – لعملية المجمعة . كذلك نلتقي بهذا التداخل في كل دراسة لعملية تطور مجمعة الشخص البورجوازي . وتظهر حينئذ قدرته على **الحب** ، فقط بصفتها أحد مظاهر

= التحليل النفسي على استكشاف حضارات غير اوروبية ، دون ان تفرض على معطيات البحث مقتضيات التحليل النفسي ذات المحتوى الخاص بالبنية النفسية الاوروبية – الاميركية (عقدة أوديب ، فترة الكمون ، بنية الأنا ، الأنا ـ المثالي الخ) .

النتيجة ، أما المظهر الآخر الذي يتصف بالنزوع إلى الافتتان (Verliebtheit) العصابي واخلاص يكمله زواج أحـادي monogamie مطيع وكئيب ، يجعل الشخص عاجزاً عن إقامة علاقات جنسية زاخمة مع جماعة من الأشخاص ويتجلى انضباطه في شكل طاعة شرجية ، واستقلاله الذاتي تحدده أنانيـة المنافسة (الخاصة بمجتمعنا ، هذه الأنانية التي تمسخ قدرته على التفكير والتأمل ، إلى حد بلوغه مرحلة البـكم ، والصمت التام . والمسألة هي معرفة ما إذا كانت جميع الأنماط المتمايزة ، للتنظيمات الاجتماعية (المجتمعات) القائمـة على أساس البنى الطبيعية الفردية المتمايزة والمستقلة ذاتياً ، لا تضطر إلى تحمل نصيب نسبي من تصعيد الغرائز والرغبات الجنسية ، والتسامي بهـا ، بحيث يتضمن ، بالنسبة لموقف ايجابي إزاء تلك الغرائز والرغبات ، طابعاً ضاراً .

الوظيفة القمعية للنشاط الجنسي في النظام الرأسمالي منـذ نشوئه وفي ذروته .

لكي تتمكن الرأسمالية من التطور كنمط انتاج ، اجتماعي، لم يكن يكفي إبدال الحياكة اليدوية بالحياكة الآليـة ، والصناعات الحرفية artisanales بالمصاهر الكبرى وبالأفران العالية ومشاغل البناء الميكانيكي ، كذلك لم يكن يكفي أيضاً أن يتجه الناس من قراهم نحو المـدن ، لأجـل الانصراف إلى نشاطاتهم في الصناعة . بل كان يلزم ، بالأحرى ، أن تنطلق بعد عصور طوال « زنادات التفجير » التي بدأت بعملية الاستخدام التقني للكون ، وكان ينبغي في الوقت نفسه أن يحتفظ بعملية التطور هذه دون « زنادات تفجير » جديدة ، وكان يلزم كذلك ، في ذات الحين ، أن تتكون طبائع اجتماعية تستطيع أن تقود عملية التطور هذه ، وفي آن واحد ، الخضوع لها ، دون قيد ولا شرط .

في القرن السادس عشر ، والسابع عشر ، والثامن عشر ، أخذت تقوم ، في

أغلب الدول الاوروبية ، عمليـــة تطور التراكم الرأسمالي الأولي ، أي عملية تطوير اقتصادية ، لم تكن فيها وحدات وأنصبة متزايدة الكبر باستمرار ، من النتاج الاجتماعي الصافي ، والثروات الاجتماعية ، لم تكن تستعمل لأجـــل الاستهلاك المباشر ، (ولم يكن من المهم ، باديء بدء ، أن يكون ذلك من قبل ملاكين عقاريين ، أو أشخاص من طبقة النبلاء يملكون مناجم ، أو من قبل مزارعين ، أو من عامة الشعب) بل كانت كل تلك الثروات تستخدم لأجـــل « التجديد الموسع للانتاج » أي أنهـــا كانت تعود لتصب في عملية التطور الاجتماعية بشكل توظيفات جديدة . هذا الجزء من النتاج الاجتماعي الصافي لم يكن يمـــكن استعماله ، ولا استهلاكه . إن فهم ضرورة التأجيل الحازم للاستهلاك إلى ما بعد ، كان يعني ، منذ البدء ، بالنسبة لأغلب الأفراد ، التخلي عن الاستهلاك ، بكل بساطة . هذا التخلي كان ينبغي أن يترسخ ويتجذر ، على نحو أعمق ، في الطباع الاجتماعية لشعب ما ، لاسيا وأنه لم يكن هنـــاك أي قانون تقليدي لضمان هذا الموقف ، وان عملية التطور هذه ما كان يمكن أن يفهمها فوراً ومباشرة أولئك الذين كانوا في أسفل السلم من عملية الانتاج، والذين دائماً لم يكن لديهم سوى القليل جداً مما يستهلكونه . ولكن لا ينبغي الاعتقاد بأن عملية التطور هـــذه وسمات الطباع النابعة منها ، لم تمس سوى الفئـــات الاجتماعية العليا أو الفئات الاجتماعية الدنيا .

إن كل تنوع وتعدد ما ، ظهر فيما بعد بصفته انقـــلاباً تقنياً واسع النطاق جداً ، وعظيم القدرة ، لم يكن تحقيقه إلا بواسطة قسر معين ، لم يكن ، باديء بدء ، يقيد بأغلاله مختلف المنتجين ، بالعمل الاجباري والمجاعة . وكان يبدو أن أشكال القسر الخارجي ذات صفة عرضية جـــداً ، وانها تقوم بالمصادفة البحتة ، بالنسبة لعملية تكون الرأسمال : لكن هذه الأشكال كانت موجودة دائماً ، على كل حال . ولكي تحمي عملية التطور هذه بصورة فعالة ، وبصورة خاصة ، من الصدمات المتزايدة باستمرار بفعل الأزمات الاقتصادية ، كان ينبغي

ارفاق القسر الخارجي بقسر داخلي ، صميمي ، على قدر كاف من القوة والقدرة، لكي تمحي حتى آثار ذكريات الأوضاع السابقة حيث كان إرضاء الحاجات والمتعة أكبر ، نسبياً (ونقصد بذلك وحدة الانتاج والاستهلاك في انماط الاقتصاد السكونية) ولا يعني ذلك أنه لم توجد أشكال قسر داخلية صميمة internes في أنماط الاقتصاد والعصور التاريخية السابقة . لكننا نواجه هنا ، في النظام الرأسمالي لدى نشوئه ، خاصية تاريخية نوعية لهذا القسر الداخلي ، الصميمي . ويمكن أن يوصف هذا القسر في عمله وتأثيره الموضوعيين بواقع أنه يقصر جميع المزايا والصفات والنشاطات الانسانية على إمكان استخدامها في عملية الانتاج ، أي أنها يمكن « تحويلها » كلها إلى علاقتها التبادلية . وذاتياً ، ينبغي أن يطابق هذا القسر المفهوم بأن لا شيء يسير تلقائياً في هذا العالم باستثناء العمل ، وما يرتبط به من كد وبؤس – وأجر – . ويجعل من جميع النشاطات الأخري إما عملاً (تناول وجبة الطعام ، والنزهة لهضم الغذاء ، أو العلاقات الجنسية) أو أن تلك النشاطات توضع في صلة مباشرة بالعمل ، أي **مكافأة على العمل الذي قدمه العامل واخلاصه طوال اعوام للمؤسسة** . وقد نال الاذن أخيراً بالزواج من ابنة رب العمل ، الخ ، أو أن العامل ، بدلاً من أن يشتغل ، يقضي أيامه وهو ينط في الهواء الطلق مع أرملة ، الخ ، الخ .

ويحدد التحليل النفسي ، بمثابة **طابع شرجي** ، الطابع الفردي الذي يستبطن هذا القسر بأقوى ما يمكن من شدة وعزم ، ويجسده على النحو الأكمل. ويسميه فرويد كذلك، في مبحث وجيز في علم طبائع نماذج النشاطات الجنسية ، بـ « الطابع القسري ، الاجباري » وهو يقيمه على النحو التالي : « إن هذا الطابع يتميز بسيطرة الأنا المثالي ، الذي ينفصل عن الأنا ، في حالة توتر شديد. ويسيطر على هذا الطابع قلق مفعم بالاحساس بالذنب ، بدلاً من أن يسيطر عليه القلق لفقدان الحب ، وهذا الطابع يتجلى في نوع من التبعية الداخلية بدلاً من تبعية خارجية ، وينمي درجة كبيرة من الاستقلال الذاتي ، وعلى الصعيد

الاجتماعي يغدو الدعامة الحقيقية، ذات النزعة المحافظة قبل كل شيء، للتمدن[1].

بعد ذلك ببضع سنوات ، تابع أريـــخ فروم دراسة هذه الطباع لدى البورجوازيين الصغار ، الميالة إلى الفاشية ، وتوصل إلى الصيغة الوصفية التالية: **طباع مازوخية[2] تحكمية**. وقد بين أريخ فروم أن هذه الطباع قد فقدت عنصر الاستقلال الذاتي أثناء فترة الانكماش الاقتصادي ، وانطلاق عمليـــة التطور الاحتكارية باستمرار ، ذلك العنصر – أي الاستقلال الذاتي – الذي كان يميز طباع البورجوازية الصغيرة ، في البدء ، هي ، والبورجوازية قبـل كل شيء ، مبدلة ميولها المحافظة بميول شبه فاشية fascistoïdes .

إن مفهوم الطابع الشرجي يصف ، إذن ، طبعاً فردياً ، لكنه في النظام الرأسمالي يحـــدد طباعاً اجتماعية تسيطر جماعياً . والأمراض الظاهرة المطابقة لهذه الطباع هي العصاب الاستحواذي névrose obsessionelle وجميع الأعراض القسرية بصورة عامة (حالات الاحساس المرهقـة بالإكراه والقسر الخ – الاكراه على العد والاحصاء والاغتسال الخ) التي لا تظهر ، بالضرورة ، لدى جميع الأشخاص المالكين لهذه الطباع . وتزول الأعراض منذ اللحظة التي يستبطن فيها الـنزاع في الطبع[3] . ولدى تحليل ظهور الأمراض العصابيـة الاستحواذية ، نكتشف بصورة عامة ، أنه ، خلال المراحل السابقـة لظهور النشاط الجنسي عند الولد ، وبصورة خاصة خلال المرحلة الشرجيـة ، لم يجر اقناع الطفل بقبول حالات الكبت الجنسية المطابقة تـدريجياً ، ولا بالعطف الضروري ، إذا صح التعبير ، بصورة غير عضوية . بل بالعكس تماماً ، فقـد فرضت حالات الكبت الجنسية هـــذه منذ البدء بالقسر والاكراه وذلك من

---

(١) Freud, uber libidinose Typen, tome XIV p 510

(٢) المازوخية : التماس اللذة عن طريق تعذيب النفس – راجع «المنهل».

(٣) انظر ويلهلم رايش – Characteranalyse, wien, 1033 p 164 s.

جانب مربين (هم الوالدان) - لديهم هم أنفسهم طباع قسرية . وهكذا لم يبق أمام الولد ذي الطبع الشرجي المقبل سوى امكانية كبت غرائزه الجنسية كلياً ، دون أن يكون قد اكتسب القاعدة الضرورية لتكوين « أنا - لذة » ، كان باستطاعة الولد ، على أساس هذا الأنا - اللذة ، كبت غرائزه الجنسية عن قصد ووعي ، وأن يميز فيما بعد - وذلك شيء حاسم - بين الكبت ، ونبذ الرغبات الجنسية ، وتأجيلها ، وكان باستطاعته أن يتعلم التمييز بين ذلك كله ، والتصرف والرد [١] . ومن العناصر المكونة للطبع الشرجي أن تفرض بصورة متصلبة جداً ، وفظة ، ولا هوادة فيها ، العناصر التي تدخل في تكوين الأنا والتي ينبغي لها أن تتطور بتحويل اللذة الشرجية ، أي مختلف الوظائف الضابطة (احترام الترتيب والنظام) التي ترتكز على السيطرة المضبطة للنشاط المعوي . إن الأهل النظفاء ، ذوي الاستقامة ، والمنهيبين من المجتمع ، لم يكونوا يحسون في أي مجال ، أكثر من إحساسهم بالطبع المتصف بالرغبة الجنسية ، لدى ولدهم ، والذي لم يكتسب الصفة الاجتماعية بعد ، وإحساسهم بلذاته الشرجية ، والعناد الذي يصر به على التحديق في منتوجات هذه المنطقة من الجسم ، على أنها أشياء محبوبة . إنه يجري تحبيب الولد بهذه اللذائذ بنفس الكيفية التي يجري بها إنشاء العناصر التكوينية لأناه ، أي أنه يجري مسخها وتشويهها . ان أنا شخص ذي طبع اكراهي شرجي يتصف بدقته التامة ، ووساوسه ، وعلاقاته المشوهة مع الأغراض الجنسية ، كما يتصف بالتصلب الذي يحكم جميع نشاطاته . لقد عرض الطبع الشرجي هنا على شكل نمط نموذجي ، مثالي ، على نحو ما لا يظهر أبداً في حياة الواقع . وبصورة خاصة ، فإن العلاقة بين المرحلة الشرجية والأعراض الإكراهية (أو الطبع القسري) ليست أبداً علاقة وثيقة على هذا الشكل . لقد أثبتت تشخيصات لحالات خطرة من الأمراض العصابية الاستحواذية أنه يبدو أن هذه الأمراض ناتجة عن الانتقال من المرحلة الفموية إلى المرحلة

---

(١) انظر ويلهلم رايش - Der triebhafte character Vienne; 1935, p 59.

الشرجية . ورغم بساطتها الادراكية ، فإن هذا العرض المبسط يبدو أنـه في محـله .

إن سيطرة الطبـع الشرجي والمبـادىء الاقتصادية التي يقوم على أساسها ، تؤثر تأثـيراً عميقاً على تكون النشاط الجنسي . ويظهر النشاط الجنسي ، في الواقع ، منفصلاً عن العمل ، ومع ذلك فلا يمكن بلوغه إلا بالعمل ، ولهـذا النشاط الجنسي طابع المكافأة ، كالوجبة الدسمة أيام الأعياد ، والتمتع بالنوم حتى الضحى يوم الأحد ، والحصول على نقود ، بصورة عامة . وهكذا يخفض مستوى النشاط الجنسي ليصبح حركة من حركات العمل . وشأن العمل تمامـاً سيكون هـذا النشاط الجنسي : منحطاً ، قذراً ، آلياً ، ومقاساً بمقاييس المردو ، هذه الأشياء المضادة لطبيعة اللذة إن القدرة الجنسية تقاس بطريقتين:

١) القدرة لدى الرجل – كم « ضربة » يستطيع أن يطلق في وقت معين ، وكم من النساء قد « حاز » حتى الآن . أو عند المرأة : عدد طلبات الزواج التي رفضتها حتى الآن ، تواتر المرات التي يستدير الرجال لينظروا إليها بعد التقائهم بها في الشارع ، أو كيف ينظرون إليها باعجاب عند الالتقاء بها . الجنس يقاس إذن بمقاييس القيم التبادلية [١] .

---

(١) ان تغير الوظيفة الذي شهده موضوع الحياة الجنسية في الأدب لدى الانتقال من العصر الوسيط الى عصر النهضة يدعم التحديد الاقتصادي لتجسدات هذا النشاط الجنسي . ففي عصر النهضة فقط ، الذي ، كما نعلم ، كان يمارس تضييقاً أكبر مما كان يفعل العصر الوسيط ، على الممارسة الجنسية (ولعل ذلك لم يكن فقط بالنسبة للطبقة المسيطرة) ظهرت في الأدب بانتظام نمطي « موضوعات الكمية » لقدرة فحولة الرجال ، وقدرة المرأة على الشهوة والرغبة الجنسية (كم مرة ، وطوال كم من الوقت ، ومع كم شخص مختلفين جرى الجماع خلال ليلة واحدة) انظر موروس . المرجع المذكور . ص ١٤٥ : « ان عصر النهضة هو من جميع الوجوه ، عصر الانسان . لم تعد فحولة الرجال فيه بحاجة الى ان تثبت نفسها بمآثر بطولية ، كما كانت الحال في عهد الفرسان وشعراء التروبادور ، بل أصبحت تكفي قدرته الجنسية ، وفحولته ذاتها . ولعل بروز هذه الصفة هي أبرز خاصة من خصائص أدب النهضة ، الغرامي» . وهناك ولاشك مبرر=

٢) ولكن في سياق هذه العلاقات كقيم تبادلية ، يفقد النشاط الجنسي كل قيمة خاصة به ، ويقاس هذا النشاط حينئذ تبعاً لوظائفه في انجاب الأولاد .

وكلما قلت القدرة على أن يعزى إلى نشاط جنسي ما ، رغبـــة في انجاب الأولاد ، ازداد اعتبار هذا النشاط بمثابة « فساد وانحراف » . وهكذا فمنـذ ذلك الحين كانت العلاقة الفموية - الأعضاء التناسلية (التماس المتبادل بين الفم والأعضاء التناسلية) تعتبر بمثابة انحراف وتهتك ، رغم أن ممارسي هذه العلاقة لم يكونا يتعرضان ، قانونياً ، للعقاب . ذلك لأنه ، بقليل من الارادة الطيبة ، يمكن دائماً أن يفسر هذا الانحراف والتهتك على أنه إعداد لممارسة العـــلاقة الجنسية الطبيعية بين الرجـــل والمرأة . ونفس حكم الرأي العام كان يصيب عملية الاستمناء (العادة السرية) ، ولكن ممارسة هذه العادة لم تكن ، في أغلب الحالات ، تقابل بالعقاب ، إلا في المدارس ، والمدارس الداخلية ، والسجون الخ ، حيث يحظرها النظام . وفي هذا الصدد أيضاً يمكن أن يجري تفهم ممارسة العادة السرية على أنها قامت في « حالة استعجال ملحة » (ولعدم توفر الفرص لجماع طبيعي) . وأخيراً ، فإن اللواط والسحاق (اشتهاء المماثـــل) اللذين يبتعدان تماماً عن رغبة انجاب الأولاد يعالجان بمثابة انحراف يعرض مرتكبه للعقوبة بمقدار ما يبتعد عن « النموذج الزوجي » . وهكذا فإن علاقات اللواط والسحاق « بين شخصين مرتبطين بصورة مستمرة » (على شكل زواج) أقل تعرضاً للعقاب من هذه العلاقات حين تكون حرة [1] . إن العلاقـــة الشرعية

=للقول ان تغير الوظيفة هذا ذو صلة بالأنتقال من مرحلة الأقتصاد الزراعي السكوني الى مرحلة الرأسمالية التجارية والكولونيالية . وبصورة ذات دلالة كبيرة ، وجد أدب النهضة هذا منشأه في مدن ايطاليا واسبانيا التي كانت تمـــارس التجارة البحرية وتراكم الرأسمال ، ولم ينشأ في المانيا المتخلفة .

(١) انظر هانس جيزه ، « اللواط » مجموعه « المكتبة العلمية » بايو - ١٩٦٨ . ترجمة د. مازيه .

(إيلاج القضيب في أست الشريك) في العلاقات الجنسية بين شخصين من الجنس الواحد ، تعاقب بصورة بارعة جداً (!) وعلى نحو أشد قسوة ، (ذلك لأنـــه يرى فيها جرم لممارسة شبيهة بالمجامعة) مما تعاقب به ممارسة العلاقة الفموية — العضو التناسلي بين شخصين من جنس واحد — ولا شك في أن قسوة العقوبة على الممارسة الأولى تعود إلى أنها تواقحت على الرغبة في « تقليد » العلاقات الطبيعية بين الرجل والمرأة ، هذه العلاقات « المنجبة للأولاد » ، وممارسا العلاقة الشاذة يضعان بذلك العلاقة الطبيعية موضع السخرية ، بصورة مزدوجة .

ويبدو أن الحب لا علاقة له بهذا السياق ، ولا بهذا الاطار . إنه يفصل عن النشاط الجنسي ويحول إلى شيء نقي ، صاف ، مقدس لا يمس ، وشيء أثيري . وهو يعاد إلى المستوى الخاص بـه في المنظومة الاجتماعية للتناسل ، التي يحكمها المردود ، والوضع الأفضلي للربح ، والمزاحمة : إنه شيء هائـــل ، خارق ، لا تدركه الأبصار ، وهو ، في الحقيقة لا يجد له مكاناً في هذا المجتمع. وهذا الفصل يؤدي إلى أن يتعارض الحب مع النشاط الجنسي ، ويعزز ، بهـذا التناقض ، خفض قيمة ذلك النشاط . هذا الفصل القسري الاجباري بين الحب والنشاط الجنسي ليس، بأي حال من الأحوال ، مسألة ايديولوجية أو حتى مسألة تفسير. إن البورجوازي التقليدي يقوم ، بدوره ، بعملية الفصل هـــذه ، في حياته الشخصية : الفصل بين الزوجة والعشيقة ، وبين حفلة الرقص وزيارة الماخور ، بـــين مجرد الاهتمام والرعاية ، والشبق الشديد والتهتك [1] . والبورجوازي

---

(١) على الصعيد الفردي ، يتوقف البورجوازي عند مدخل المرحلة السلبية لعقدة أوديب ، أو أنه يتراجع عند بلوغه سن الرشد . إنه لم يتعلم التغلب على الاندفاعات الشهوانية مباشرة ، والموجهة نحو الأبوين ، ونقلها نحو أشخاص آخرين . ان بنيته النفسية المحددة بالثوابت العاطفية الماقبل الأوديبية ، تتأرجح بين الحط من قيمة الشخص المحبوب أو رفعه المبالـــغ فيه الى عالم المثال الأعلى : والمرأة ، في نظره ، لا يمكن ان تكون الا عاهرة او قديسة . — أنظر فرويد ، في مبحثه « اسهام في دراسة المنصر الأكثر شيوعاً ، من عناصر تحقير حياة الحب » .
R.F.P. — 1939 — IX — No1

الصغير يقلد البورجوازي ، والبروليتاري ، مع أنه يفتقر إلى الوسائل المادية لأجل بممارسة هذا الفصل عملياً ، لا يستطيع أن يعارضه بمبدأ مضاد ، مستقل ذاتياً . ويبقى الحب في طابعه الغريب والفريد ، شيئاً طوباوياً على غرار الوعد بالحرية للمجتمع بأسره . ويجري تحويل الحب إلى صورة لن يكون ممكناً أبداً التوفيق بينها وبين الواقع .

إن التربية الجنسية في ذلك العهد تعكس بأمانة المكان الذي يشغله النشاط الجنسي . إن النزعة الظلامية الجنسية ، في الخطب الرسمية ، هذه النزعة التي لم تعد بحاجة للدعم بأمثلة ، تطابق الحط من قدر الحياة الجنسية في الواقع [1] . والمهم هنا، هو أن التربية الجنسية الرسمية والتقليدية في ذلك العهد تعمل بوسائل ليست فقط متخلفة بالنسبة لشروط المعارف التقنية والاجتماعية ، بل هي تناقضها أيضاً باستمرار . فمنذ بدء هذا القرن ، كان من شأن أي طبيب ريفي ، أن يدحض بشدة ، في ميادين طبية مقارنة ، تأكيدات كالعلاقة بين الاستمناء (العادة السرية) وأمراض النخاع الشوكي ، أو العلاقات الجنسية أثناء فترة الحيض ، والتهابات الرحم . فإذا ما أخذنا في الحسبان التأثير الظلامي لايديولوجية الرأسمالية لدى نشوئها وفي ذروتها ، فإن مزاعمه ، كتلك التي تعج بغزارة ، بصدد نقص المرأة الطبيعي ، أو نقص الطبع النسائي النموذجي ، يمكن أن تطالب بـ « صدق وتحرّ للحقيقة ، أكبر ».

إن العهود المتميزة بـ « الانتصار المظيم للتقنية والعلم » تحتفظ ، في رأيها بصدد الحياة الجنسية ، بمخلفات ورواسب ما قبل رأسمالية ، إن لم نقل سحرية،

---

(١) في القسم الأول من كتاب رايش « الثورة الجنسية » (مجموعة ٨-١٨ ، « بلون » ١٩٦٨ ، ترجمه عن الأنكليزية قسطنطين سينيلنبيكوف) نجد مجموعة مكثفة من الأمثلة ، التي يعاد ذكرها اليوم في كتب التربية الجنسية الموجهة للفئات « المتخلفة » من السكان .

منبثقة من الممارسة والايديولوجية الجنسيتين للعهود السابقة . إن طرائق الاجهاض المستثار ، التي ما تزال قيد الاستعمال اليوم ، تقدم مثالاً عما نقول : فهذه الطرائق أشبه بطرائق عمليات مطاردة الساحرات [١] . هذه النفايات « التي فات أوانها » استطاعت أن تستمر في الحياة بسهولة ، بمقدار ما كانت السيطرة المستمرة قروناً قد رفضت « عن قصد » أن تعيد النظر في تفسيرات النشاط الجنسي (هذه التفسيرات المتصفة بالسيطرة الاكليركية ماقبل الصناعية.) وسنجد مجدداً هذا اللجوء النموذجي إلى ايديولوجية عصور سابقة حين سنعنى بدراسة الرأسمالية في عهدها المتأخر ، حيث يجري تحويل وظيفة النشاط الجنسي ، بواسطة عمليات التكييف والتزييف والتمييع ، وحيث المحرمات الجنسية الضرورية دائماً يجري الابقاء عليها بوسائل ايديولوجية جديدة .

إن الشروع في تربية جنسية مضادة للتربية الرسمية ، ومحاولات ممارسة جنسية ، في عصرنا ، تخالف العرف وما اصطلح عليه ، كثيراً ما تعاني من مماثلة غير إرادية لما تكافح هي ضده . أن الحركة الرومنطيقية وحركة الشبيبة (Wandervôgel) ، والأدب الرومنطيقي ، والشطر الرئيسي من الواقعية البورجوازية اتصفت دائماً بوجه سماه رايش « ضعف الليبيدو ، ضعف الزخم الجنسي (Libidoschwâhe) ، إن رغبة هذه النزعات في استثارة حياة جنسية تقدمية كان يضعفها كثيراً مبدأ وأساس الواقع السائد ، بحيث لم تتمكن

---

(١) في كتاب بول هـ. جيبهارد وزملائه

Pregnancy; Birth and Abortion, New york, 1958, p 194.

نجد تعدادا لـ « علاجات » المستعملة في اكثر الأحيان : الشاي ، والعفص او الدباغ (مادة تؤخذ من قشر البلوط أو من ثمر العفص الخ ، ومهماز الجودر ، والزعفران ، وزيت الخروع ، والكينين ، تلك هي الوسائل « الأكثر انسانية » على كل حال . (في بلادنا العربية يستعملون أيضا عصير البصل ، وهو ذو خطر شديد على حياة المرأة الحامل ـ المترجم) .

تلك النزعات من الدفاع عن نفسها ضد« ميولها الخاصة المعارضة للحياة الجنسية» ويلخص ويلهلم رايش « تناقض التربية الجنسية الشائعة اليوم » على النحو التالي: « إنها تتصف بما يلي : إنها تأتي دائماً متأخرة جداً ، وهي تحيط نفسها بالغموض والأسرار ، وهي تمر دائماً مروراً سريعاً على ما هو جوهري وأساسي : المتعة ، اللذة الجنسية . إن أولئك الذين يعارضون أي نوع من أنواع التربية الجنسية هم أكثر منطقية من وجهة نظرهم الرجعية. وتنبغي مكافحتهم لأنهم خصوم للحقيقة وللانسجام العلمي ، المنطقي ، لكن مواقفهم ، بصورة ما ، هي أكثر صراحة من مواقف هؤلاء المصلحين المزعومين الذين يعتقدون أن إرشادهم وتعاليمهم سوف تغيّر أي شيء ما »[1] . وقــد تعقد الوضع ، منذ ذلك الحين ، في وجوه عدة منه . إلا أن رايش قد صاغ ، وليس فقط بالنسبة لعهده ، الحقيقة الثورية البسيطة : لا إصلاح جنسياً بدون ثورة اجتماعية . يقول رايش : « إن الأزمة الجنسية [...] هي وجــه من الأزمة العامة من النظام الاجتماعي الاستبدادي . وهي لا يمكن أن تحصل على حل جماعي في هذا الإطار .

إن الوظيفة القمعية للجنس وللتربية الجنسية في عهد الرأسمالية لدى نشوئها وفي ذروتها يمكن تلخيصها كما يلي : لقد كان نظام الانتاج الرأسمالي يتطلب ، لكي يتمكن من أن يقوم ويتوطد اجتماعياً ، مبدأ قائماً على أساس المردود، جرى ترسيخه إلى حــد كبير في بنية الشخص النفسية بحيث لم يعد من الضروري فرضه باستمرار من الخارج ، بل كان يستطيع أن يعمل عمله بمثابة قسر داخلي ، حميمي . هذا المبدأ ساد بادىء بدء لدى الجماعات التي أقامت نظام الانتــاج الرأسمالي ، والتي حققت التراكم الأولي ، والتي تولت الحكم ، خلال عمليــات التطور هذه . لم يكن ذلك يمس بعد الفئات الاجتماعيــة الخاضعة ، في البدء ،

---

(١) « الثورة الثقافية » للمؤلف المذكور — ص ١٨٤ - ١٨٥ .

وكذلك فيما بعد ، لأسوأ عملية قمع خارجية ، أي للطبقة المسيطرة . وقد تحتم على الحياة الجنسية ، المحكومة بمبدأ المردود ، هذا ، أن تخضع لقيود وتضييقات حاسمة . إن عناصر أساسية في تكوين اللذة الجنسية ، وبصورة خاصة مقوماتها ومكوناتها الماقبل العملية الجنسية التناسلية ، قـد أخضعت لتحريم مشدد ، وجرى إضعاف وتقسيم العناصر الباقية « الشرعية » من اللذة الجنسية . وقـد جرى توجيه الباقي من الممارسات الجنسية التناسلية المسموح بها نحو مثال ideal العلاقات الزوجية الأحادية بين الجنسين ، أي « العلاقات الطبيعية » . لكن المكونات الجنسية المقموعة توضع في خدمة عملية الادماج والاستيعاب الاجتماعيين، وعملية تطور العمل ، وحتى المظاهر والتجليات الجنسية الصريحة هي ذاتهـا ، حتى ولو كانت قد حصلت على الشرعية من جانب النظام القائم ، ولكن على الأخص إذا لم تكن حاصلة على هذه الشرعية ، هي معرضة لطائفـة كبيرة من التهديدات ، والتحريمات ، والعقوبات . وفي هذا المجال أيضاً يجعل منهـا نشاطات « نافعة اجتماعياً » . هذه التضييقات وعمليات القمع ليست من عمـل الرأسمالية وحدها . ومع ذلك فالرأسمالية كانت أوّل من أنشأ ، على النطاق العالمي ، بعض أشكال القمع الجنسي ، ودفعها إلى حدها الأقصى .

الاستيعاب التكييفي والتضليلي في عهد الرأسمالية المتأخرة

« لكن الوضع ينقلب ، لدى دفعه إلى أقصى مداه »ذلك ما كتبه فريدريك انجلس في تحليله للقوى المنتجة وعلاقات الانتاج في النظام الرأسمالي ، وذلك في كتابـــه : « **الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية** » . ولو كان انفراج القمع الجنسي الصريح ، وازدياد الحرية الجنسية علامة لا « إنقلاب » الوشيك ، إذن لما كان لدينا ما نضيفه إلى دراسة ماركس وانجلس، سوى التعهد بدراستها دائما وباستمرار .

إن التشخيصات النظرية لـ « إنقلاب » النظام الرأسمالي إلى نظام اشتراكي

تقوم على أساس التحليل القائل بان القوانين الملازمة لنظام الانتـــاج الرأسمالي تنزع إلى تفجيرهذا النظام ذاته. إن اتساع تجديد الانتاج الرأسمالي و«آليـّـــة» l'automatisme (تلقائية) ادخار الثروات الاجتماعية ، والتحسين والاتقان التقنيين للقوى المنتجة ووسائلها المساعِدة ، تُطلِق عملية استقطـاب تُحوِّل تحويلاً تاماً ، إلى درجة الإلغاء annihile ، مبادىء الإنتاج ، والمزاحمـــة ، والاستثمار وفي « النهاية » ، وقبل الإطاحة بالنظام الرأسمالي، يوجد عدد متزايد أكثر فأكثر ، من البروليتاريين (أو الجماهير الأجيرة) يواجهون ، أقل فأقل ، رأسماليين مستقلين ؛ ويُستَبعد عدد متزايد باستمرار ، من الأشخـاص ، من الثروات الاجتماعية المتزايدة على الدوام ، والثروات ذاتها تُوَزَّع من قِبل وبين عدد يضيق باستمرار من الرأسماليين المستقلين أو عمـــلاء للرأسمال (الوكلاء ، مدراء الأعمال managers) . وتبعاً للنظرية الماركسية ، فإنه لن تلزم سوى صدمة صغيرة نسبياً ، هي الثورة ، لأجل تخطي قوانين الرأسمالية التي تكون قد تزعزعت تزعزعاً شديداً . لكن ماركس والجلس،في هذا، قد استصغرا بلا جدال ، في تشخيصاتها العملية التطبيقية ، قدرة الطبقة المسيطرة على حمـــاية قوانين الانتاح وتجديد الانتاج الرأسمالية . وفي نفس زمن تطور الرأسماليـــة الاحتكارية ، كان الرأسماليون يصوغون مجموعة كبيرة من تقنيات توطيد قدرة وتوسع الاستثمار ، وهي تقنيات بارعة إلى حد أنه ، بعـــد التحليل الصحيح ولا شك للقوانين الموضوعية لتطور الرأسمالية ، هذا التحليل الذي جرى في القرن التاسع عشر ، لم يمكن ، حتى ولو بصورة تقريبية ، تقييم العناصر المحققة لاستقرار الامبريالية .

إن تدابير حماية ووقاية النظام الرأسمالي الاحتكاري يمكن تطبيقهـا ، في الميدان الاقتصادي ، بوسائل مثل : السياسة المضادة للأزمات الدورية، وسياسة المداخيل ، ونقص الاستخدام المخطط ، للمصانع ، إنشاء وظائف استخدام ، بصورة مصطنعة ، لكي يجري ، عن عمد وبعد درس ، إيقـــاف عملية نشر

التآلية automatisation في العديد من قطاعات الاقتصاد ، الخ. ويقوم بمثابة معادل لذلك في الميدان الايديولوجي مجموعة كبيرة متنوعة من التقنيات والسيطرة ، كانت مجهولة في مرحلة رأسمالية المزاحمة ، وحتى في عهد الرأسمالية الاحتكارية الناشئة . وكانت الفاشية أول من وضع قيد التطبيق ، على نطاق واسع ، مثل هذه المجموعة من الوسائل الجديدة نوعياً ، أو كيفياً ، qualitativement nouveau لأجل توطيد السيطرة الرأسمالية . وقامت الفاشية ، من جملة ما قامت به ، بحرف طاقات الغريزة الجنسية لأغراض التدمير واتخذت المقاييس الأكثر ضخامة والأشد هولاً . وبعكس ما يحدث في رأسمالية المزاحمة ، فإن اضطرار الرأسمالية المتأخرة tardif إلى تحويل شطر كبير من الثروات الاجتماعية لصالح التراكم الموسع للرأسمال (التوظيفات) أو لصالح منتجات أخرى غير مخصصة للاستهلاك (بل المخصصة لقدرة التدمير) لم يعد يرتكز ، مباشرة وفورياً ، على التوصية الدائمة للتخلي عن الاستهلاك . وفي هذا الصدد ، فإن قضيتين من قضايا العقلنة أو الترشيد « Prolèmes de rationalisation » للبناء الفوقي تدخلان قيد العمل :

١) على الأفراد أن يتعلموا الاستهلاك : أن يستهلكوا حين يتطلب النظام ذلك ، وأن يفعلوا ذلك وفق ما يتطلبه النظام. لذلك ينبغي أن يُفتَقد الطابع القسري الشَرْجي التقليدي بعض صرامته وتشدده .

٢) كلما أصبح هذا النمط من الانتاج والاستهلاك الرأسماليين غير مفهوم ، وغدا يتوجب على الارغام بالانتاج على هذا النحو وليس بصورة مغايرة ، أن يمارس بصورة بارعة وغامضة ، أصبح يتوجب أكثر أن تُصوَّر للفرد العلاقات بين نمط الانتاج وطراز المعيشة بصفتها « سائرة هكذا تلقائيـاً ، وبصورة بديهية وطبيعية » .

ويستتبع ذلك ، بصدد الحياة الجنسية، الجواب التالي – الموجز، مؤقتاً – :

إن الحريات الجنسية ، الوهمية والحقيقية ، يجب أن تصبح كذلك أكبر ، بحيث يتوصل الأفراد إلى أن يقولوا من تلقاء أنفسهم : انظروا ، منذ عشر سنوات ، كان الأمل بعيداً في أن يتمكن الفتيان والفتيات من أن يرقدوا معاً دون خوف من حالات الحمل ؛ ومنذ ثلاثين عاماً ، لم يكن بوسع أحد أن يعتقد بأن الشبيبة هي ميالة إلى هذا الحد إلى النشاط الجنسي ، وأن الأزواج والزوجات سوف يصبحون شركاء متساوين ، وأن المرأة ستنال مثل هذه الحرية، والأخلاق ستصبح بمثل هذه الليبرالية – وباختصار : إن النشاط الجنسي قد « حُرِّر » قليلاً وجُنِّد لخدمة توطيد الحكم . وتَتَبَنَّى للنظام الاجتماعي لتجديد الانتاج بعض عناصر الرغبات الجنسية الظاهرة ، مع توسيع معايير الممارسات الجنسية المسموح بها . طبعاً إن الرغبات الجنسية الكامنة (المكبوتة) تستمر ، رغم ذلك ، في القيام بدورها كخادم مقصورة valet de pied * سواء كانت موافقة أم لا ، في عملية التبني هذه .

قبل الشروع في معالجة تجسدات ومظاهر **التحرير الجزئي للنشاط الجنسي** ينبغي لنا أن نوجز الاستخلاصات من ملاحظات هذا المقطع الوجيز بتفسيرين نظريين حول الصلات القائمة حالياً بين الحياة الجنسية ومجتمع الطبقات (الرأسمالي) .

نهاية الوظيفية المتصلبة (الصيغة للوثار هاسك) : إن هاسك في تحليل دراسي للانتفاضات الطلابية في الولايات المتحده، يطرح أسئلة تهمنا مباشرة : ما هي أسباب نشاط الطلبة الاجتماعي الجديد ؟ لماذا كان طلبة الخمسينات الأميركيون أكثر تكيفاً من طلبة الستينات ، مع أنه لم يحدث تغير كبير خلال

(*) الشخص المكلف بإيصال المتفرجين إلى أماكنهم في مسرح أو دار سينما الخ .
(المترجم)

السنوات الأخيرة ، وأن عدم « أمن وسلامة » وضعهم الاجتماعي وتقلقله[1] ظلا على حالهما ؟ إنه من السهل إقامة صلات بين الجواب الذي يقدمه ، وتفسيرنا لنهاية الفترة التي كانت تسود فيها أخلاقية جنسية ، قمعية كلياً .

يمكن وصف نموذج السلوك الذي صاغه نمط التربية القديم للطبقات الوسطى على النحو التالي : التخلي عن الاشباع المباشر للغريزة الجنسية وعن نيـل المتعة مباشرة ، وتأجيل نيل هذه المتعة إلى ميعاد لاحق ، ويجري تطوير قـــدرة إدراك آفاق المستقبل ومنظوراته ، ونتائج هـذه الآفاق ، الممتدة في الزمن ، والعجز عن فعل شيء من أجل ذاته ، مثلاً قراءة كتاب لأن قراءته تروق ، وليس لأن الشخص ، إذا لم يقرأه ، لن يكون لديه ما يقوله أثناء تبادل الحديث مع آخرين ، الخروج مع شخص ما ، لأننا نحب رفقته ، وليس لأننـا نريد أن يرانا الناس معها (أو معه) « ولتسجيل انتصارات» . إن التربية الكلاسيكية التقليدية للطبقات الوسطى تتلخص بالتدرب على « من أجل ... أن » ، أي على ضرورة اعتبار كل نشاط بمثابـــة نشاط وظيفي : - « ينفع لـ .. » « صالح لـ ..» أو « يسهم في ... » و « يساعد على »...ومن وجهة نظر « المجتمع » ، فإن هذه النزعـــة الوظيفية المتصلبة التي خـدمت جميع ضرورات توظيف الأموال ، وتأجيل الاستهلاك ، كانت « ذات وظيفـة معينة » . ولكن لدى انعام النظر في الأهمية التي اتخذتها قضايا الاستهلاك بالنسبة لقضايا الانتاج ، منذ عشرات من السنين ، فقد تغير الوضع ، شيئاً فشيئـاً ، حتى أصبح وضعاً آخر تمامـــاً . ولنتذكر الحث على الشراء ديناً « اشتروا الآن ، وستدفعون فيما

---

(١) هذه المصطلحات مأخوذة عن ليبسيت (statusinkonsistenz, statusunsichcrheit)والمعنى المستخدمة فيه شرحه رايش في محاولته « Studentenrevolten in Berlin und Berkeley » وذلك في مجلة New kritik ، العددين ٣٨ - ٣٩

بعد » – وهي صيغة قدر لها أن يغوص بسببها المواطن الطيب من الفئات الوسطى في أشد أنواع اليأس حلكة وسواداً . ولكن حتى من وجهة نظر الفرد ، فإن النزعة الوظيفية المتصلبة ، المقودة بتأجيل المكافأة ، قد أصبحت تطرح مشاكل متزايدة أكثر فأكثر في السنوات الأخيرة ، نظراً لأن سلوكاً تقيدياً بهذا النموذج غدا أقل صلاحاً ، باستمرار ، للهدف المقصود [1].

الطلبة ، في انتفاضتهم ، يحتجون على هذه « النزعة الوظيفية المتصلبة » التي أصبح يتصف بها نظام التعليم الجامعي ، أكثر منه في أي وقت مضى ، لكن هذه النزعة الوظيفية يزداد غموضها واستحالة فهم الطلبة لها لاسيما وانها غير مكملة كلياً بحالات قسر وارغام مماثلة في قطاعات المجتمع الأخرى . – ان مكونات ومقومات جنسية بصورة ظاهرة تدخل ، إلى حد كبير ، في انتفاضة الطلبة . ونحن نذكر طبعاً شعارات وحركات أعملوا من أجل الحب Fuck for peace أحبوا بعمق Love - in ، قبّلوا بعمق Kiss - in ، مارسوا الحب ، لا الحرب Make love - not war . في أشكال الرفض الجديدة هذه ، توجد ، من جهة « فورية – جديدة » تدخل في حرب ضد النزعة الوظيفية المتصلبة ، لكن هذه الفورية موسومة في أغلب الحالات ، بنزعة وظيفية متصلبة أخرى . وهكذا فقد قام الطلبة مرة يطالبون ، وسط تظاهرة جماهيرية واسعة جداً من عمليات العناق والتقبيل وذلك في مدرج المحاضرات بالجامعة ، كما طالبوا بالغاء النظام التقليدي (المتصلب) الذي يحظر على الفتيان والفتيات أن يتبادلوا العناق والقبلات في مدرج الجامعة ، كما يحظر على الفتيان زيارة الفتيات في المباني المخصصة لهن . والحال ، فقد أصبح مسموحاً ، منذ زمن

---

(١) لوثار هاسك - Rigider Funkionalisme und new unmittelbarkeit»
في مجلة « New kritik » العدد ٤١ ، ص ٥٤ وما يليها .

طويل بتبادل العناق والتقبيل في الشارع ، والسيارات ، وفي دور السينما .

ولعل الطلبة ، بهـذا المطلب من أجل توسيع كمي (السماح بالتقبيل) لم يقوموا إلا بانجاز ممارسة جنسية هي قمعية في حد ذاتها . ونحن لا ندري ماذا يمكن أن يكون هناك من شيء تحرري ، على المستوى الجنسي ، في تبـادل العناق والقبلات جهاراً وعلى مرأى من المـلأ ، لاسيا إذا ما احتفظ في الوقت نفسه بالقواعد الاجتماعية ، قواعد « مَن مع مَن » و « كم مرة » .

الازالة الموجهة للتسامي : (هربرت ماركوز) : لقد سجل فرويد ، في نظريته عن الحضارة ، أن للغرائز الجنسية نزوعاً بذاتها إلى التصرف وفقاً لمبدأ اللذة ، أي أنها تطمح وترغب في تحقيق ذاتها ، وانـه ينبغي لمؤثرات العالم الخارجي أن تحدث أقل ما يمكن من اضطرابات في هذه الغرائز الجنسية . إلا أن ثلاثة أسباب تعارض هذا المبـدأ باستمرار ، وتعرقل تحقق الغرائز الجنسية باستمرار : قوة الطبيعة الساحقة ، وهشاشة الجسد البشري ، وعـدم اكتمال المؤسسات البشرية (الاجتماعية) . ويقر فرويد بأن هذه الأسباب الثلاثة ، بما فيها الثالث ، لن يمكن إزالتها أبداً ، وأن البشر سوف يظلون مرغمين على الحد من رغباتهم الجنسية . ويعرف الانسان بأشكال مختلفة ، هذا الحـد من الغرائز الجنسية ، خلال تطور حضارته .

ولا يستطيع مبدأ اللذة أبداً أن ينمو نمواً مكتملا ، ان عليه أن يخضع دائماً لقيود وتضييقات قوية ، إلى هـذا الحد أو ذاك ، يتمثلها الفرد بصورة ناجحة بمقادير متفاوتة ، (بصورة « سليمة ، صحية » ، أم عصابية) . .ويسمي فرويد كل عملية تطور هذا « التمثل » و « التكيف » الإلزامي في إطـار الحضارة ، الاعتراف بـ « **مبدأ الحقيقة والواقع** ».

ولكي يستطيع مبدأ الواقع أن يقيم سيطرته ، فإنه يضطر لاخضاع الغرائز

الجنسية والمدمرة إلى تحويل عميق . ويميز فرويد بين التصميد sublimation والكبت . وهو يعني بـ «التصعيد» التحويل الدائم للغرائز الجنسية إلى نشاطات ليست جنسية بصورة مباشرة ، بل هي نشاطات (اجتماعية) (!) مركّزة على الحب والعشق . إن القدرات الفنية (الخلاقة) تعتبر بمثابة النتيجة ـ النموذج لعمليه تصعيد ناجحة . وهناك ظاهرتان مميزتان لعمليـة التصعيد : ١) انها لا يمكن أن تنتج إلا في الطفولة المبكرة ، أي في فـترة دخول الغريزة الجنسية المراحل الأولى تمامـاً من تكونها ٢) إن (التصعيد لا يترك أي أثر ممرِض pathogène لدى الفرد ـ بل إنه ، أي التصعيد ، يعتبر بمثابة استيعاب ، أو تمثّل (ناجح) للغريزة الجنسية . وبالمقابل ، فان الكبت يجري تعريفه ، باديء بدء ، بصفته الفصل الاجباري للغريزة الجنسية عن موضوع (غرض ، هدف) نشاطها (الغرض الجنسي) وبصفتها منعاً لهـذا النشـاط . وربما تنطمر القوى المحركة للغريزة الجنسية ، على مـدى العمر كـله ، لكنها تبقى قائمة وحية رغم ذلك ، تحتياً ، باطنياً . وترغم هـذه الغرائز الجنسية المكبوتة لأن تتجسد بصورة مغايرة للأشكال المحظورة . إن عودة (المكبوت) للظهور في داء العصاب تحتوي على هـذه الأشكال النموذجية من تجسد وظهور الغريزة الجنسية المحظورة والمقطوعة عن نشاطها .

لقد قام هربرت ماركوز في كتابـه « الحب والحضارة » بتحليل مفهوم (مبدأ الواقع) وأضاف إليه (مكونات إجتماعية ـ تاريخية نوعيـة) (معينة ، خاصة) : مبدأ المردود بصفته وجهاً تاريخياً مسيطراً على مبـدأ الواقع ، و القمع المشدد أي : (أنها القيود والتضييقات التي جعلتها السيطرة الاجتماعية ضرورية . ويجب تمييز هـذه السيطرة عن القمع الأساسي ، أي عن (تغييرات الغرائز) الجنسية التي هي ضرورية لكي يحافظ الجنس البشري على عيشه في الحضارة [1]) إذن ، فماركوز يجمع ما بين مبدأ المردود الصناعي وما

(١) ماركوز « الحب والحضارة » . مع أن ماركوز يميز مبـدأ المردود بصفته =

سماه فرويد « السبب » الثالث ، أي (عدم اكتمال المؤسسات البشرية) ، كما يجمع ما بين مبدأ الواقع بصورة رئيسية مع (السبب) الثاني ؛ أي الجهود التي ينبغي أن يبذلها البشر للتغلب على تفوق الطبيعة . وهـــذه الجهود تواجه

=الشكل التاريخي لمبدأ الواقع، أي أنه يقوم بتصحيح للتحليل النفسي بواسطة المادية التاريخية ، فان هذه المقوله تبقى في نظر ماركوز ، لا تاريخية ، في الأساس . وينبغي ، بالأحرى ، تمييز مختلف مبادىء المردود الصناعي ، تماماً كما ينبغي ان نميز ، في سياق المجتمعات البدائية ، والعصر القديم الكلاسيكي (أي عصر الأغارقة والرومـــان) والتطور الأجتماعي في أوروبا الغربية ، مختلف الطبائع الأجتماعية السائدة ، وبالتالي ، مختلف الأشكال التاريخية لمبدأ واقع هـــذه المجتمعات . فالأمبراطورية الرومانية ، مثلاً ، قد صاغت « مبدأ للمردود » يختلف عنـه في المجتمع الأغريقي القديم ، واعتمدت قبائل الموندوغومور مبدأ يختلف عن مبدأ الواقع لدى الأرابيش أو الدوغون . ان مبدأ المردود الرأسمالي هو ، من وجهة نظر علم التحليل النفسي ، مبدأ مردود شرجي ـ مبدأ لم يعد يطرح ، في ما يخص جهود المردود غير الجنسية أو المنزوعة الطابـع الجنسي ، السؤال : « مردود لأي هدف » ، بل هو لا يطبق مسألة « الهدف » إلا على التجسدات ومظاهر النشاط الجنسي الظاهرة ، المكشوفة . وينبغي بصورة عامة ، الاحتفاظ بهذا التمييز ، حتى ولو أن البلدان الاشتراكية ، في أيامنا ، بصدد سياستها وعلم النفس لديها ، تبدو اما أنها تتخذ تماماً نفس موقف أسلافها الرأسماليين ، وامـــا أن البلدان الأشتراكية لم تصبح بعد قادرة على التغلب على مبدأ المردود الرأسمالي . وهـــذا التمييز يغدو أساسياً ، هناك حيث يجري السعي لتحديد التراكم الرأسمالي أو الأشتراكي في بلدان العالم الثالث ذات المستوى المختلف من حيث التصنيع . وبصورة ما ، فجميع هـــذه البلدان تسلك سيرة تكون وانسال أوروبا الغربية ، ولكن بوتيرة معجلة ، في أقل من حياة جيل ، لكن عملية اللحاق هـذه على أسس اجتماعية ـ نفسية مختلفة تماماً عن نماذج مردود أوروبا الغربية . وسيقدم ، عاجـــلاً أو آجلاً ، وصف لخصائص مبادىء الواقع النامي المختلفة هذه ، ومبادىء المردود الصناعي ، ولكن سوف تتجلى فيها اختلافات أساسية عن مبادىء المردود ، السائدة اليوم في العالمـــين الأول والثاني . والصين والفيتنام تقدمان لنا منذ الان أفضل مثال على ما نقول . ولا شك أن هذا النقص في التمييز هو الذي يعارض بصورة طوباوية وغير تاريخية ما بين مبدأ اللذة من جهة ومبدأ المردود ومن جهه أخرى ، يماثل بين مبدأ اللذة هذا وبين مجموعات من الخرافـــات (ميتولوجيات) لا يمكن أن تخدم بمثابه نموذج للتحرر الا في مجتمعات أوروبا الغربية لأن هذه الميتولوجيات من حيث هي نموذج طوباوي للتحرر لم يكن باستطاعتها أن تتطور الا ضد مبدأ واقع هذه المجتمعات (انظر كتاب ماركوز « الحب والحضارة »).

الانسان ، كالعمل ، والتقدم في سيطرته على الطبيعة (تقدم القوى المنتجة وأنماط تلبية الحاجات ، والمتعة) .

والحال ، فإن ماركوز يضع هو نفسه ، في كتابه **« الانسان ذو البعد الواحد »** حدوداً وتضييقات لهذا المخطط البسيط من التفسير ، وهو يعيدنا إلى محور نقاشنا حول تغير العلاقة بين العمل ، والاستهلاك ، والجنس . يقول ماركوز : « كثيراً ما أُشيرَ إلى أنّ المجتمع الصناعي المتقدم يمارس درجة من النشاط الجنسي ، أكبر – « يمارس » بالمعنى الذي تصبح فيه هذه الحرية قيمة بضاعية وتجارية وعنصراً من العادات والتقاليد الاجتماعية . إنه يسمح ، في علاقات العمل ، في عالم العمل ، للجسد بأن يظهر بوضوح خصائصه الجنسية ، دون أن يكف ، رغم ذلك، عن أن يكون ـ أي الجسد ـ أداة للعمل[. . .]. أن هذه المجمعة cette socialisation لا تتناقض مع عملية نزع طابع العشق والحب عن الوسط المحيط ، بل إنها مكملة لها . لقد اندرج الجنس في نشاطات دعائية وفي علاقات عمل ؛ فهو يبدو ، إذن ، أنه يفيد من إشباع (موجه) للرغبة والمتعة [. . .] ، إن إشباع الغريزة الجنسية المسموح بها من قبل المجتمع ، والمتمناة ، هي ذات مجال أكبر بكثير ؛ لكن مبدأ اللذة قد طرأ عليه انقاص ، خلال عملية الإشباع هذه – نظراً لأنه محروم من المطالب التي يستحيل التوفيق بينها وبين المجتمع القائم . واللذة في هذا الشكل تولد الخضوع [. . .] ومبدأ اللذة يمتص مبدأ الواقع؛وتتحرر الحياة الجنسية(الأصح القول إنها تكتسب ليبرالية) بأشكال بناءة اجتماعياً . وهذا المفهوم يتطلب أن تكون ثمة أشكال قمعية من إزالة التصعيد ، تبرهن بالمقارنة معها الغرائز الجنسية والأغراض المصعدة عن ابتعاد أكبر ، وعن حرية أكثر ، ورفض إزاء المحرمات الاجتماعية . إن مثل هذا التصعيد يبدو أنه يحدث فعلياً في الميدان الجنسي [. . .] . إن عملية التحرير هذه للحياة الجنسية (وللنزعة العدوانية) تجرد

(بصورة ما) الغرائز الجنسية من شطر كبير من المصيبة والكدر، اللذين بوسعهما أن يكشفا للوعي أن العالم القائم لإشباع الشهوة الجنسية هو ذو قدرة وسلطة قمعيتين . صحيح أن الحياة تحوي كثيراً من المصائب وحالات البؤس ، وأن الشعور بالسعادة شيء هش – إنه قشرة رقيقة طلي بها القلق،والكبت والحرمان والقرف . هذه المصائب يمكن استخدامها بسهولة على الصعيد السياسي ؛ فإذا استحال عليها أن تتجسد بصورة واعية ، أمكن لها أن تغدو قدرة غريزية من أجل نمط فاشي للحياة والموت [1] .

أثناء المهرجان الجماهيري الحاشد يوم ١٨ شباط ١٩٦٨ ، والذي تلا المؤتمر الوطني الخاص بفيتنام ، قال رودي دوتشكه إن الفاشية لم تبق لهـــا قاعدة جماهيرية في المانيا . بعد ذلك بثلاثة أيام ، نظمت حكومة برلين – الغربيـــة بالاشتراك مع الأحزاب والنقابات تظاهرة كبيرة ، لكي تظهر « وجه برلين الحقيقي » . وقد نزل ٨٠ ألف شخص إلى الشارع ، مطالبين بسحق المعارضة الطلابية ، وتسديد الحساب دون رحمة لـ « باعثي التخريب والشغب » ، وذلك على كل حال ، ما عمدوا إلى تنفيذه عملياً لدى نهاية احتشادهم بقيامهم بمذابح ، وإن محدودة ، ضد معارضيهم . ومع أنه لم تكن ثمة حركة فاشية جماهيريـــة متلاحمة وظاهرة الملامح ، لا في الجمهورية الاتحادية الالمانية، ولا في برلين الغربية، إلا أن تلك الحركة ستأتي « في حينها » . ويمكن أن نحـــدد اليوم هذه الـ « في حينها » ، أي « في أية لحظة كانت » . اليوم ، وربما خلال بعض الوقت أيضاً ، يجري الحكم على النحو الأكثر فعالية ، اعتماداً على صبر الجماهير السلبي ، ومع المحافظة تماماً على القشرة الرقيقـــة التي تغلف القلق ، والغصة ، والكبت ، والحرمان ، والقرف . لكن القلق والروح العدوانية المتراكمين ، سيبلغان في

---

(١) هربرت ماركوز – « الانسان ذو البعد الواحد » – الطبعة الفرنسية – منشورات Minuit ، ١٩٦٨ ، ترجمة مونيك ويتنسغ ، ص ٩٦ إلى ١٠٠ .

يوم من الأيام ، حجماً كبيراً معيناً ، بحيث يتدفقان على المسرح السياسي ؛ ولن تكون حينئذ سوى حركة فاشية « عفوية » انبثقت من القاعدة . أو أن نظام السيطرة يمكن أن يزداد ، لأسباب سياسية واقتصادية ، عدم استقراره بحيث لا يبقى لديه أي اختيار آخر سوى تمزيق تلك القشرة (ذلك كان وضع وعمل حكومة برلين ـ الغربية بعد ١٨ شباط) ؛ وستكون تلك حينئذ تعبئة فاشية ، من فوق . وبديهي أن تقنيات السيطرة القائمة على التكييف والتزييف وتضليل الجماهير ، هذه التقنيات المستخدمة اليوم هي شرط لا غنى عنه لكي يقوم النظام الرأسمالي بوظيفته دون اللجوء إلى أشكال مكشوفة من الفاشية ؛ لكن هذه التقنيات الجديدة لا تكفي لتبرير التأكيد بأن الفاشية قد تم تخطيها تاريخياً .

٣

تكييف الحياة الجنسية والتربية الجنسية انعكاس للانقسام الاجتماعي

في نظام سيطرة الرأسمالية المتأخرة زمنياً ، تتشابك المكونات الأوليـــة القمعية والتضليلية ، للحياة الجنسية ، بصورة تظهر فيها تماماً خصائص العصر المميزة . لقد أشرت في القسم الأول من الفصل السابق ، إلى أنه ، لأجل فرض الاستيعاب الجنسي ، يلجأ النظام إلى مجموعة كبيرة متنوعة من طرائق التكييف والتزييف والتضليل والاستيعاب ، يستمد بعضها أصله من عصور تاريخية عابرة . وينبغي الآن أن نقوم بتحليل أهم هذه « الطرائق » .

إن تعبير « طريقة » لا يشمل الحقيقة إلا بصورة غير كاملة وذلك بالمقدار الذي تُخْضِع فيه ، بصورة ما ، ذاتاًفاعلة إلى مكيّف تضليلي أعلى ، لا وجود له بصفته كذلك . وبهذا القياس فإن « الطريقة » هي مفهوم عاجز يشير إلى نزعة اجتماعية قوية .

فوارق في الممارسة الجنسية ، تعزز انقسام الجنسين :

إن وجود فوارق تبعـــاً للجنس ولناحية الذكورة والانوثة ، في الممارسة

الجنسية والموقف إزاءْ الحياة الجنسية في مجتمعاتنا، هو واقع معروف. فالفتيان، مثلاً ، يمارسون العادة السرية بمرات أكثر مما تمارسها بها الفتيات، ونسبة الفتيان الذين يمارسون هذه العادة هي أكبر ؛ وبعكس الفتيات ، فالفتيات نادراً جداً ما يستعملن صوراً جنسية مثيرة أو مهيجات مساعدة . والنساء أقل تحدثاً عن الأرداف من الرجال ؛ لذلك فإنهن 'يرْغَمْن ' في عمليـــة استكشاف الممارسة الجنسية (في عملية الاستمناء ـ العادة السرية ـ مثلاً) ، أكثر ممـا يحدث لدى الغلمان ، أن يقمن باكتشافاتهن منفردات . ويمارس الرجال ، مراراً أكثر ، علاقات جنسية قبل أو خارج الزواج ، ولهذا السبب ذاته يكون لديهم تنوع أكثر في الشركاء ، مما يكون لدى النساء ، الخ ، الخ [١] . إن هـــذه الفوارق المدعومة بإحصائيات موثوقة تقودنا إلى مجموعة من الاستنتاجات وثيقة الصلة بالموضوع على الصعيد السوسيولوجي (صعيد علم الاجتماع) ، لا سيما حين يجري مقارنـــة تلك الاستنتاجات مع مواد في علم التحليل النفسي وعلم السلالة (الاتنولوجيا) . والاستنتاج الذي يفرض نفسه ، بادىء بدء ، هو التـــالي : إن الرجل ، حتى المتعرض للقمع اجتماعياً وجنسياً ، كان دائماً في ميدان الحياة

---

(١) انظر بصورة خاصة نتائج الدراسات التجريبية التالية ؛

1) Kinsey. Das sexuelle verhalten der Frau, Francfort 1954; 2) Friedeburg, Die wmfrage in der Intinsphâre, Cahier 4 de Beitrâge zur sexual forshung, stuttgart 1954 ; 3) Schwarzenauer; in Saller (éd) ; Sexualitât heute ، Munich 1966.

وهذا التحليل يعتمد على مجموعة الأسئلة التي وضعها فريدبرغ • ومن هذه الناحية يمكن اعتباره تحليلاً تكميليا .

4) Schofild, the sexual Bekavior of young People, Boston 1965.

الجنسية ، وفي بنية حضارتنا التقليدية ، مالكاً لمواقع السيطرة . وقد عكس على المرأة ، وبخاصة على زوجته وبناته ، القمع الاجتماعي والجنسي الذي ألحق به . إن هذه الاستنتاجات وأمثالها ، التي يمكن تنويعهـــا وتفسيرها بصورة لامتناهية ، هي دائماً صحيحة بالنسبة لأغلب العلاقات الراهنة بين الجنسين . إلا أنه سيكون ارتداداً إلى الاصلاح الجنسي في عشرينات هذا القرن ، أن نطالب في كفاحنا الجنسي الراهن ، بإلغاء هذه « الشروط التي لا تطاق » ، نظراً لأننا عند هذا المستوى من الحجج سوف نلتقي بمجلتي الماغازين النسائيتين « بريجيت » و « إيلترن » (الأهل) ، فإن لم يكن هذا الالتقاء مع أعدادهما لعام ١٩٦٨ ، فالمؤكد تماماً أنه سيكون مع أعدادهما لعام ١٩٧٥ . وثمـــة بضع علائم تتيح أن نتبين أنه يحدث حالياً تغير عميق لصورة المرأة المصنوعة بوسائل تكييف وتضليل الجماهير ، وبصورة خاصة بواسطة المطبوعات المصورة ، هذه الصورة التي تبقى ، حتى في الفترة التي أعقبت الفاشية ، وتحت طلاء من نزعـة المساواة الآلية ، تبقى ذات مفهوم قمعي مشدد . وقد استطاع ريناتي درونر منذ ست سنوات في دراسته Zum Frauenbild der illustreirten (المرأة كما تصورها المطبوعات المصورة) أن يسجل على ألسنة نساء كثيرات هذه العبارة النمطية « يجب أن يكون ـ الرجل الذي أريده ـ متفوقاً عليّ »[1] . وما عدنا اليوم نعثر على هذه العبارة ترد على هذا النحو المباشر في مجلة سبريجر « ايلترن » . إن المساواة بين الجنسين على الصعيد الايديولوجي (الفكري) وتحرر المرأة على صعيد الواقع الاجتماعي قد حققا ، خلال هـذه الفترة ، حالات تقدم كبيرة . لكن المشكلة تظهر مجدداً حيثما تبقى ، تحت مظهر صراحة رفاقية بين الشريكين ، معايير للذة والمردود متمايزة حسب كل جنس منهما ـ إن كان ذكراً أم أنثى ـ لا يمكن ـ أولا يمكن بعد ـ التخلي عنها ، نجد هذه المعايير المتمايزة يجب أن

---

(١) Renate Dôrner « Zum Frauenbild der illustrierten» in Das Argument, no. 22, 1962 , p. 43-48.

يكون الرجل والمرأة شريكين حقيقيين فيها ، وأن يغدق كل منهما على الآخر ، بصورة متبادلة ، الحب والثقة — في حين أن الرجل يملك دائماً وضعاً اجتماعياً مسيطراً ، لا يستطيع أن يقرر التخلي عنه ، وهو يشرك في هـذا الوضع ، ولا شك ، المرأة ، بمقدار أكبر مما تريده التقاليد ، ولكن ، على وجه التحديد، وفقط ، بمقدار أكبر . ويبدو أن العبارة النمطية قد تحولت اليوم ، على الصعيد الايديولوجي ، إلى الكليشة التالية : « صحيح أننا متساويان ، لكنني ، كامرأة، أحب أن أكون ملكاً له » . وحتى هذا المفهوم المعياري — لدى الفئات الوسطى طبعاً — سيستمر في التطور خلال الأعوام القادمة ، دون أن يقتدي تماماً ، على كل حال ، بطراز المساواة الأميركي ـ السويدي . إن تحقيق هـذه المساواة تفترض مسبقـاً وجود طباع اجتماعية من طراز المساواتي égalitaire والبورجوازي ، متجذراً ومترسخاً بصورة أكثر عمقاً بكثير في الواقع الاجتماعي مما هي الحال في الجمهورية الاتحادية الالمانية ، حيث الطباع الاجتماعية خاضعـة لميراث الأشكال الدولية السابقة .

وليس من الضروري في سياق هـذا الكتاب تفحص كل تنوعات الفوارق الجنسية التي ما تزال موجودة حتى اليوم ، والتي تعبر ، بأشكال معدلة ، عن الانقسام بين الجنسين . إن هذه الفوارق هي على صلة وثيقة ، أكثر بكثير مما يقر به أكثر المراقبين والمصلحين حياداً في ميدان الحياة الجنسية، بأشكال تجديد انتاج الحيوات الاقتصادية والاجتماعية الشخصية ، وهذه الأشكال المتمايزة تبعاً للفئات ، والمعبرة عن الانقسامات الاجتماعتة .

فوارق في الممارسة الجنسية اليوم ،
تعبر عن انقسام الفئات الاجتماعية .

يتأثر السلوك الجنسي للفرد ، حتى في أدق تفاعلاته ، بالوضع الاقتصادي ،

وبصورة أخص ، بالوسط الذي يعمل فيه ذلك الفرد . بادىء بدء ، يجب أن نذكر الارتباطات الايجابية المتبادلة (ظهور في آن واحد مع تواتر كبير نسبياً) بين العادة السرية والفئة العليا من المجتمع ، بين الممارسة المبكرة للعلاقات الجنسية لدى الجنسين والفئات الدنيا ، بين العلاقات الجنسية لأفراد من نفس الجنس (اشتهاء المماثل : اللواط ، والسحاق) والفئة الوسطى [١] . ثم يجب أن نسجل الواقع ، الذي لا يثير دهشة مفرطة لدينا ، وهو أنه كلما كانت درجة التعلم والمستوى الاقتصادي أعلى ، كانت التقنيات أكثر تنوعاً في العلاقات الجنسية : المداعبات التمهيدية تستمر وقتاً أطول ، وتجري العملية الجنسية في أكثر الأحيان والمرأة والرجل عاريان ، تحت نور مضاء .

إن كينسي هو أول من عرض هذه الفوارق وعلاقاتها الاجتماعية الوثيقة ، وذلك في مؤلفاته ذات القيمة التربوية الكبيرة .

إن ثلاثة أمثلة تجريبية ستكفينا هنا لكي نظهر بوضوح العلاقة المتبادلة بين السلوك الجنسي والوضع الاقتصادي :

١) في دراسة للسلوك الجنسي لدى الشبيبة البريطانية أبرز ميخائيل شوفيلد [٢] الواقع التالي : إن الفتيان الذين ، حتى سن معينة (مثلاً حتى سن السابعة عشرة) يظلون يرتادون المدرسة ، لديهم تجربة جنسية أقل من أترابهم

---

(١) انظر :

Klaus Dôrner « Homosexualitât und Mittelstandsgeellschaft » in Homosexualitât order politik mit dem S 175 Ko Ro Ro, n 943, Hamburg 1967, p. 126 ss.

(٢) ميخائيل شوفيلد ، المرجع المذكور ، ص ١٠٤ وما يليها .

المساوين لهم سناً ، والذين اندرجوا ، من جهتهم ، في عـــالم العمل . ولكن بالاضافة إلى ذلك ، فإن واقع الاضطلاع بعمل جسدي (manual jobs) أو غير جسدي (non manual jobs) ، داخل الفئات التي تعمل ويكون عليها أن تكسب مالاً ، يلعب دوراً كبيراً ، ولدى الفتيات ، على الأقـــل ، والنشاط الجنسي أكبر لدى الفتيات اللواتي ينتسبن إلى الفريق الأخير ، ولذلك دلالته . ويلاحظ أيضاً ، لدى الفتيات اللواتي يكون عليهن أن يعملن ، أن نشاطهن الجنسي يزداد بنسبة ما ينشأ لديهن من عـدم رضى عن عملهن . لكن « النشاط الجنسي » أو (التجربة الجنسية) لا تعني مطلقاً أن هـــذه الفتيات ذوات الممارسة الجنسية الكبيرة ، هن أكثر سعادة من زميلاتهن الراضيات نسبياً عن عملهن ، أو من زميلاتهن اللواتي في مثل أعمارهن ، واللواتي ما زلن يرتدن المدرسة . والوقائـــع أقرب إلى أن تثبت أن هاتيك الفتيات يبحثن في وقت مبكر أكثر ، عن الاتصالات الجنسية ، ويمارسنها مراراً أكثر ، لأنهن يكرهن عملهن ، أو أن هذا العمل لا يشبع مطامحهن ، وحينئذ يلتمسن اشباع هـذه المطامح في العلاقة (الجنسية) لكنهن على كل حال لا يجدن ما يبحثن عنه ، ذلك لأن عملهن قد جعلهن كذلك عاجزات عـن بلوغ المتعة الجنسية . إن شوفيلد لم يحدد ، على وجـــه التخصيص متوسط حالات بلوغ ذروة المتعة الجنسية لدى العاملات الشابات . ومن بين جميع الفتيات اللواتي يمارسن عـلاقات جنسية ، واللواتي طرح عليهن هذا السؤال : (هل تلذ لك ممارسة العلاقات الجنسية ؟) أجاب ٥٢ ٪ منهن فقط بكلمة (كثيراً) . وسيظهر المثال التالي أن النسبة المئوية للفتيات اللواتي أجبن بكلمة (كثيراً) هي أقـــل بكثير بين الفتيات المنتسبات إلى الفئات الدنيا .

لدى الفتيان ، لا نجد فرقاً مماثلاً بين فئات الشغيلة اليدويين وغير اليدويين . ويعيدنا هذا مجدداً إلى قضية عدم تزامن تحرير المرأة ، الاجتماعي والجنسي على حد سواء ، هذه القضية الملازمة للنظام الرأسمالي : مؤكد أن لدى الفتيان ، في

يحملهم مقداراً من « التجربة الجنسية » أكبر ، بمقدار ما يكونون قد غيروا أعمالهم مراراً أكثر (علامة على عمل غير موصوف) ويحتفظون بشطر أكبر ، من مداخيلهم ، لحاجاتهم الخاصة (علامة على استقلالهم عن العائلة) .

ولكن بتعارض مع هذا التكييف الاجتماعي الاقتصادي المتزايد ، للفتيان والفتيات ، تستمر المرأة في معاناة قمع جنسي أكبر ، تقليدياً . إن الاندراج في عالم العمل يستثير عادة ، أيضاً ، تكييفاً للحياة الجنسية مع المعايير الصناعية . إن مضاعفة التجارب الجنسية يعني تلقائياً ازدياد تجربة بلوغ ذروة النشوة الجنسية . والأمر بخلاف ذلك تماماً بالنسبة للمرأة . ولدى التبسيط المفرط يمكن أن نقول : إن المرأة ترد على التحرير الاجتماعي القمعي بتمجيد جماعي لحالة بلوغ ذروة المتعة الجنسية .

٢) هناك دراسة خاصة وضعها « لي راينووتر »[1] عن السلوك الجنسي للطبقة الدنيا ، وهي تقدم لنا معلومات حول العلاقة بين السعادة الجنسية الزوجية والوضع الطبقي . وقد جاءت تحليلات كنسي بالبرهان على أن قدرة المرأة على بلوغ ذروة المتعة الجنسية تزداد بنسبة درجة تزايد تعليمها . ولكن حتى منذ ذلك الحين (كان يفترض أن قدرة المرأة على بلوغ ذروة المتعة الجنسية لا تتوقف ، في الاصل ، على درجة تعليمها ؛ فإذا صح هذا الترابط ، فإنه

---

(١) لي راينووتر «Some aspects of Lover Class sexual Behavior» in Ira. L. Reiss (éd) the sexual Renaissance in America, No 2, année XXII du journal of social Issues, p 96 - 108.

وهذه النتائج قد دعمها ج - ر أودراي وم. هال في دراستها

« Role segregation and social Netvork in Middle Class, Middle - aged couples (in journal couples) in journal of Mariage and Family, : العام ٢٨ - ١٩٦٥ ص ٣٩٢ - ٣٩٥

سيكون ، على كل حال ، برهاناً جميلاً جداً على «انسجام الروح والجسد» . لقد اكتشف راينووتر ، باديء بدء ، ان نساء الطبقات الدنيا جداً ورجالها المتزوجين ، يجدون ، على حد سواء ، مقداراً أقل من الاهتمام واللذة (Interest et enjoyement) في العلاقات الجنسية الزوجية ، مما يجده أزواج وزوجات الطبقة العلوية – الدنيا ، وان هؤلاء بدورهم ، يجدون في العلاقات الجنسية الزوجية مقداراً ، من المتعة والاهتمام أقل مما يعرفه أزواج وزوجات الطبقة الوسطى Middle class . (انظر اللائحة رقم واحد)

اللائحة رقم واحد[1]

	من الفئات الوسطى	الفئات الدنيا–العليا	الفئات الدنيا–الدنيا
أزواج			
اهتمام ولذة عاليان	٧٨ ٪	٧٥ ٪	٤٤ ٪
اهتمام ولذة متوسطان	٢٢ ٪	٢٥ ٪	٤٦ ٪
زوجات			
اهتمام ولذة عاليان	٥٠ ٪	٥٣ ٪	٢٠ ٪
اهتمام ولذة متوسطان	٣٦ ٪	١٦ ٪	٢٦ ٪
موقف أقرب إلى السلبية إزاء الممارسة الجنسية	١١ ٪	٢٧ ٪	٣٤ ٪
يرفضن العلاقات الجنسية	٣ ٪	٤ ٪	٢٠ ٪

بحث راينووتر عن أسباب هذه الفوارق واكتشفها في نوع العلاقة بين مختلف الأدوار المنسوبة إلى كل من الشريكين تبعاً للفئات الاجتماعية . ذلك لأننا

---

(١) راينواتر – المرجع المذكور ، ص ٩٨ .

لاحظنا ، لدى قيامنا بتحقيقاتنا ، أن أزواج وزوجات الفئات الوسطى كانوا أكثر ميلاً لأن ينظموا بصورة مشتركة نشاطاتهم المنزلية ، في حين أن أزواج وزوجات الفئات العمالية والدنيا كانوا أكثر ميلاً إلى الفصل بين الدور الاجتماعي لكل منهم ، استناداً إلى انفصال حيواتهم أو سيرهم (Functioning) وانفصال مصالح الرجل والمرأة » . وقد استطاع رينووتر أن يصنف معطيات تحليله الى « انفصال متوسط » intermediater) segregation (و « انفصال عال) (highly segregated) للأدوار الاجتماعية في الحياة الزوجية ، وخلص من ذلك كله إلى الاستنتاج البسيط ، لكن الكبير الأهمية : انه كلما كان الانفصال أكبر في الأدوار الاجتماعية المنسوبة الى كل من الزوجين ، كان أكبر أيضاً «الانفصال» في العلاقات الجنسية .

اللائحة رقم ٢ [١]

الأزواج والزوجات ، من الفئات الدنيا ، ذوو الأدوار الاجتماعية الزوجية المنفصلة ، يحسون بلذة أقل ، في علاقاتهم الجنسية :

	انفصال متوسط	انفصال شديد
أزواج		
اهتمام ولذة عاليان	٧٢ ٪	٥٥ ٪
اهتمام ولذة متوسطان	٢٨ ٪	٤٥ ٪
زوجات		
اهتمام ولذة عاليان	٦٤ ٪	١٨ ٪
اهتمام ولذة متوسطان	٤ ٪	١٤ ٪
موقف سلبي ازاء الممارسة الجنسية	٣٢ ٪	٣٦ ٪
يرفض العلاقات الجنسية	ــ ٪	٣٢ ٪

(١) راينووتر ـ المرجع المذكور ، ص ١٠٠ .

ملاحظة :

هذه الاحصائية تشمل فقط الأزواج والزوجات البيض . وتلاحظ نفس الميول لدى الزنوج ، إلا أن النسبة المئوية لاشباع الرغبة الجنسية لدى الزنوج أكثر ارتفاعاً ، في مجمله .

— وبوسعنا أن نكمل نحن بقولنا : إنه كلما كان المستوى الاجتماعي للزوجين أدنى ، ازداد احساس الزوج والزوجة بعبء : أ) الاضطهاد المادي ، الذي يواجهه الشريكان ، ولكن أحدهما بمعزل عن الآخر ، في نضالهما الاقتصادي من أجل المعيشة ، ب) عدم كفاية التعليم الذي تلقاه كل منهما ، والذي يؤدي إلى أنهما لا يستطيعان ، عبر تجاربهما المعاشة ، بصورة منفصلة ، أن يصوغا معاً دائرة نشاطات مشتركة (تربية الأولاد ، الرياضة ، الثقافة ، الخ) ، بل بالعكس ، فإنهما يضطران إلى أن يحددا ، بصورة كاملة ، انقسام عملهما ، داخل حياتهما العائلية ، وضمن أوقات فراغهما ، ج) إنهما يمانيان عبء تربيتهما السابقة ، والتي كان عليهما خلالها أن يتعلما في وقت مبكر جداً .— على كل حال في وقت أبكر مما لدى الأطفال المنبثقين من الفئات الاجتماعية العليا — كما يحسان بأن الحياة الخاصة هي ميدان يتعارض مع جميع الميادين الأخرى ، وأن الميدان الأول لا يمكن أن يسلم إلا رغم الجميع وضد الجميع .

ويفترض راينووتر أن هذه العوامل الاقتصادية تلعب دوراً مماثلاً في العلاقات الجنسية ما قبل الزواج .

٣) إن المداعبات الممهدة للعمل الجنسي ، في الفئات الوسطى والعليا ، ليست فقط أكثر غنى من تلك التي تمارس في الفئات الدنيا : بل إنها تتخذ كذلك أهمية أكبر بكثير ، كيفيا وكمياً . وإلى جانب هذا ، فإن الاستمناء بالعادة السرية هي مصدر للمتعة يتزايد تواتره (كثرة عدد مرات ممارستها)

ووفرته كلما ازداد ارتقاء سلم الفئات الاجتماعية . وبالمقابل ، فإن فتيان وفتيات الفئات الدنيا يبدأون بممارسة علاقات الجماع بين الجنسين ، في وقت مبكر أكثر بكثير ، مما يحدث لدى أبناء وبنات الفئات العليا . طبعاً ، ان رجال وخصوصاً نساء الفئات الدنيا يتزوجون في وقت مبكر أكثر منه لدى رجال ونساء الفئات العليا . لكن هذا لا يفسر تلك الفوارق . والأحرى بنا أن نتساءل لماذا يتزوج أبناء وبنات الفئات الدنيا وهم في أول الصبا ولماذا نجد نشاطهم الجنسي قليل التنوع والتمايز الى هذا الحد . لا شك مطلقاً في أن سبب ذلك هو المصالح التقليدية للفئات العليا ، في توطيد سيطرتها ايديولوجيا واجتماعياً، ويتصف بأهمية أكبر بالنسبة لهذه الفئات ، أكثر منه للفئات الدنيا، أن يتزوج أبناؤها وبناتها متقيدين بالقواعد الاجتماعية ، ووصول الفتاة عذراء الى الزواج ، وعدم الخروج مع فتى من طبقة اجتماعية أدنى من طبقتها ، وبالنسبة للفتى ، أن لا يعاشر فتاة من طبقة أدنى من طبقته ، إلا وهو يعتبرها فاسقة ، الخ .

لكن هذا لا يستطيع مطلقاً أن يفسر كل شيء : إن على الفتيان الأحداث ، أبناء الفئات العليا ، أن يثابروا على تلقي تربية مدرسية أطول أمداً ! فهم ، إذاً ، حسب مفهوم الأخلاق البورجوازية ، محكومون، زمناً أطول ، بالامتناع عن ممارسة الجنس ، أو أيضاً أن يبقوا في مرحلة جنسية وسيطة ، لكي تبقى لديهم القدرة على التعلم والاستيعاب (لكي لا يضطروا لترك المدرسة أو الجامعة قبل الأوان ، الخ) . لكن هذا لا يوضح ، على كل حال ، لماذا نجد ممارسة العادة السرية أقل شيوعاً ، لدى أبناء الفئات الدنيا . والواقع أننا نعرف أن هؤلاء الشباب ، أو الفتيان منهم على الأقل ، يتعرفون الى العادة السرية في وقت مبكر ، شأن رفاقهم وأترابهم أبناء الفئات العليا ، بل يتعرفون الى تلك العادة قبل هؤلاء . لكن وسطهم العائلي، وتربيتهم المدرسية المحدودة، وعلى الأخص ، وضعهم كشغيلة ، لم تتح لهم أن يطوروا قدرة ذهنية مفكرة قادرة على تحقيق

تداعي الصور والأفكار الخ[1] . الا أنه ، لكي تستطيع ممارسة العادة السرية أن تحل محل مصدر ذاتي للذة ، فهي تتطلب قدرة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بهذه الوظيفة ، وقدرة تخيلية عالية ، وعند الاقتضاء ، سهلة الاستعمال . ويبدو أن هذه القدرة هي ، بصورة عامة ، شرط أولي لجميع الأشكال المتنوعة ، لاشباع الرغبة الجنسية . ولهذا السبب أيضاً يقبل شباب الفئات الدنيا العادة السرية بصفتها « مكبحاً مسعفاً » ، وليس بصفتها مصدراً ذاتياً للذة . إن نقص الرهافة ، وانتفاء طابع الحب وسحر الشهوة ، في العلاقات الجنسية لأبناء الفئات الدنيا ، يعودان في شطر لا بأس به منها إلى تشويه قدرتهم التخيلية .

ومن جهة أخرى علينا أن نسجل هنا ، في ميدان آخر ، قوة (الامتناع عن اللذة من أجل لذة مؤجلة ، أرفع مستوى) إن الوجه الاقتصادي الفظ لهذا المبدأ هو الذي يمس أبناء الفئات الدنيا . ويفرض عليهم الامتناع الفوري . (وتؤجل اللذة) ، أما التخلي الفوري عن الاستهلاك فمستحيل عليهم ، وهذه الأمور تعادل عندهم الامتناع الأبدي . وبالنسبة للفئات العليا وشطر من الفئات الوسطى ، فقد كان لهذا المبدأ ، على الأقل ، وجه (مربح) و (ممدن) ، وان كان مزعجاً في بعض الأحيان . وكان الفتى ابن الفئات العليا يلاحظ ، في أفضل الحالات حين كان يستلم ميراث والده ، ان (الامتناع) الذى أخضعته له تربيته المدرسية الطويلة الأمد ، وتعففه الجنسي الخ ، كان مربحاً . وكان على الولد الحدث من أبناء الطبقة العاملة أن يتخلى بصورة عامة ، عن التربية المدرسية

---

(١) انظر في هذا الصدد دراسة أورلدريش اوفرمان التي عرض فيها ولخص كثيراً من معطيات هذا الموضوع ، ولاسيما الأبحاث التفصيلية الأميركية :

Soziale schichtung und Begabung « in Zeits-chrift fur Padagogik, 6e supplement, weinheim 1966

الطويلة الأمد ، أي أيضاً ، وبسبب ذلك ، عن أوقات الفراغ ، وعن الحفلات الراقصة والممتعة الخ . وحين كان يتاح له ، شكليـــاً ، الدخول إلى المؤسسات التربوية ، لم يكن بوسع أحد أن يشرح له ما هي غاية هذا الامتناع الاقتصادي المرتبط به . وكيف يستطيع أن يطبق دفعة واحدة ، في حياته الجنسية هذا المبدأ ، مبدأ تأجيل إشباع الغرائز الجنسية من أجل لذة مؤجلة ، أرفـــع مستوى ، ، هذا المبدأ الذي لم يعرفه ، في عائلته ، ومدرسته ، ومحيطه ، إلا بصورة غير كافية اطلاقاً ؟ ولسوف يتوجب عليه ، بالأحرى ، أن يعلم بأن « الفجوة هي فجوة ، وأن يُنمّي لديه سمة من الطباع تعطيه مفهومـــاً عن الانسان ، خاضعاً ، راضخاً لنوع آلي مزيف من المساواة ؛ لذلك لن يتمكن من أن يدرك عبوديته الاجتماعية بصفتها كذلك ، ولن يرد عليهـــا الا بسخرية المهزومين الوقحة .

لقد أثبت ماركوز في تحليلاته السوسيولوجية أنه « يحدث منذ بعض الحين نزع قمعي للطابع السامي للغرائز والنشاطات الجنسية » . إن نتائج الأبحاث التجريبية – تقيّم ، في الحقيقة ، مظهر السلوك الجنسي ، فقط ، تماماً شأن الدراسات المتعلقـــة بالإيديولوجية والتكييف والتزييف التضليلي الجنسي في الدعاية ، والاستهلاك ، ووسائل الإعلام الجماهيرية الفخمة ، أقول إن نتائج تلك الأبحاث تجعلنا نفترض أن هذا التحول يحدث حقاً في الفئات الوسطى أكثر منه في الفئات الدنيا . وفي الوقت نفسه فمن الصعب كذلك رسم خط فاصـــل وواضح تماماً بين الفئات الدنيا والفئات الوسطى ، لا سيا وأن السلوك الجنسي لا يتغير بنفس سرعة تغير المداخيل أو أعمال الاستخدام . ولأجل خدمة أفضل « للحضارة الصناعية المتقدمـــة » ، فليس من الضروري – لم يصبح بعد من الضروري – إخضاع الفئات الدنيـا لعملية نزع قمعي للطابع السامي للغرائز الجنسية ، على نحو ما حدث بالنسبة للفئات الوسطى . مثلاً ، إن ازدياد الاستهلاك والتكييف مع نمط استهلاكي معين ، في الفئات الدنيا ، لا يتطلبان نفس الانقلابات

في السلوك كما هي الحال ، في الطبقات الوسطى . وبالنسبة للأولى لم تكن ثمة ضرورة شديدة لأن تكون لديها تقاليد ايديولوجية عن وظيفيـة متصلبة ، وضرورة التعفف ، ذلك لأن هذه الوظيفية كانت تضمن بصورة مباشرة أكثر بكثير بواسطة القسر الاقتصادي ، ومحيط عملهم ـ أي أبناء الطبقة الوسطى ـ دائرة قضائهم أوقات الفراغ والمتعة . ولكن يلاحظ ، في الوقت نفسه ، أن المعايير الجنسية لدى الفئات الدنيا هي أيضاً أكثر تصلباً ووضوحاً مما هي لدى الفئات الأعلى .

لا يستطاع أن يوضع على صعيد واحد تصلب المعايير الخارجية لدى الفئات الدنيا ، والوظيفية المتصلبة التقليدية عند الفئات الوسطى . والأصح القول إن لهذه الوظيفية وظيفة تكييف غير مباشرة (تماماً على غرار تَخلّفها : النزع القمعي للطابع السامي) ، أما الأخرى فذات وظيفة خارجية إجبارية لتحقيق التهدئة والاستقرار . إن النشاطات المهنية للأكثرية الساحقة ، لأفراد الفئـات الدنيا ، هي قليلة المرونة جداً ، وليست متعلقـة ولو قليلا جداً بمجرد مظهر للتقرير المستقل ذاتياً ، ومع ذلك فتلك النشاطات المهنية ترهق بثقلها الشديد « أفكارهم وتصرفاتهم » ، بحيث ينبغي إبدال فقدان الاستقرار الداخلي (أو الهوية) كلياً ، تقريباً ، وقد انبثق ذلك من النشاطات المذكورة،بضبطخارجي متصلب إلى أقصى حد ، إذا أردنا تلافي سقوط الفئات الدنيا في حالة لامبالاة تامة إزاء جميع المعايير القائمة . هـــذا الاستنتاج المشدد ، والمدعوم مع ذلك بدراسة الفئة الموجودة أيضاً تحت الفئة الدنيا المبنينة (ذات البنية) مثلاً ، فئة الطبقة الدنيا جداً Lower Lower Class الأميركية . إن،منظومة الرقابة الخلقية والعقوبات القضائية المتشددة لا تصل إلى الثقـــافات ـ التحتية ـ أو الباطنية ـ للأحياء الأشد فقراً (Slums) ، ولا « إلى حطام الناس ، غير المرغوب فيهم » ، الذين لفظتهم حركة الإنتاج . ومن طبيعة منطق الأشياء أن تعرف هذه الجماعات « فقداناً مطلقاً للقيم والمعايير » لا يلاحظ علماء الاجتماع

مثيلا له في أي مكان آخر، من تكاثر خطير للاصابات بداء الفصام (الشيزوفرينيا)، وحالات الزنا والبغاء، وبصورة عامة، تصرفات جنسية تتصف بفقدان تام تقريباً لثبات الهدف أو الاستقرار الشخصي؛ وسيان إن كان الأمر يتعلق بعلاقات جنسية بين أفراد من الجنسين، أو أفراد من جنس واحد (اللواط، والسحاق) [1].

الوظيفة الطبقية للتربية والتكييف والاستخدام الجنسية : تعزيز الانقسام الأجتماعي .

التربية الجنسية، كما تمارس اليوم، هي أداة تضليل واستخدام فعالة بصورة خاصة لأجل التكييف الاجتماعي؛ ولأنها تعطى دائماً الطابع الأكثر حداثة،

---

(١) هذا المعطى مستخلص من جميع الفحوصات العيادية التجريبية، التي تثير مشكلة حالات داء الذُهان، الذي يعبر توزيعه عن انقسام المجتمع إلى طبقات. والأبحاث الأميركية هي وحدها حتى الآن التي اهتمت بصورة دائبة بدراسة هذه المشكلة.

وأهم الترجمات أو الخلاصات باللغة الألمانية هي التالية :

1) Th. Lidz, Zur Familienwelt des Shizofren psychc XIll année, 1959, cahiers 5 - 6.

2) L. C Wynne et M. T Singer, Denkstôring und Familienbeziehung bei Chizophrenen, psyche, XIX année, 1965, cahier 2.

3) Heide Berndt, Zur Soziogensse psychiatrischer Erkrankungen, in Der Kranke in der modernen Gesellschaft, New Wsssenschaftliche Bibliothek, tome 22, Cologne et Berlin, 1967, p. 454 à 482.

وهذه المؤلفات تعرض كذلك الأبحاث الأميركية الرئيسية في هذا الداء ــ المعقدة.

فهي أيضاً بارومتر حساس جداً لحالات تقدم عملية التكييف هذه ومجموعة الأدوات المستخدمة لأجل ذلك .

لن نأخذ في الحسبان ، في هذا الفصل ، التربية الجنسية الرسمية التي يمارسها الجهاز الاداري التابع للدولة ، ولا مجموعة الكتب العلمية المؤلفة في هذا الصدد - التربية الجنسية - بصرف النظر عن مضمونها الانتقادي أو التوجيهي المشدد. بل سنتموضع دراستنا على مستوى أدنى ، وسوف نركز انتباهنا على الظاهرتين التاليتين ، إذ أن فعاليتها أكبر من فعالية التربية الجنسية الرسمية : السوق المخصصة للكتب الجنسية من طراز « كيف يمارس الآخرون الحب » و « الجنس في المكتب » الخ . والظاهرة الثانية هي المحتوى الجنسي المعبر عنه بصورة مباشرة أو غير مباشرة بواسطة المطبوعات الدورية الواسعة الانتشار جداً . هذه المطبوعات تبدو في أعين النقاد المدافعين عن القيم التقليدية ، بمثابة « طوفان » يستثيره ، من جهة ، جمهور واسع من المستهلكين المتهتكين ،المرضى بفكرة ثابتة واحدة هي الجنس ، وهم أشخاص دون وازع ولا حياء ، وينتجه من جهة أخرى ، أشخاص جشعون متعطشون إلى الربح ، يدافعون عن منافعهم الخاصة. ويقول أولئك النقاد: يجب أن يُقام ضد هذا الطوفان سد من التربية [1] ، ومعايير وقواعد سليمة [2] . وهناك نقاد اشتراكيون وغيرهم ، وهم تقدميون، يبسطون الأمور في أحيان كثيرة إذ لا يرون في ذلك النوع من المطبوعات سوى

---

(١) انظر : Brûggemann, Sexuelle Konflikte in Gymnasion, Heidelberg . 1969 .

وكثيراً غيره من المراجع المماثلة .

(٢) انظر من جملة كثير من المراجع التي تتحدث على هذا النحو :
Schelsky, Soziologie der sexualitât , Rde Hambourg, 1955. (وبخاصة ص ١٢٧)

نزعة وحيدة الخط نحو « منح المتعة الجنسية ظاهرياً »[١] ونحو « نشر الإثارة الجنسية الدائمة كبديل عن المتعة »[٢] أو نحو « النزع القمعي لطابع التسامي »[٣] . وهي نزعة يمكن على كل حال أن تمس جميع أفراد المجتمع بنفس المقدار ، باستثناء أولئك الذين يتمتعون بفكر انتقادي ، واع . هذا الموقف صحيح من حيث الأساس ؛ إلا أنه ينبغي أن يؤخذ في الحسبان التحفظ التالي : إن هذه العمليات والتفاعلات تستثيرها وسائل منوعة تبعاً للفئات الاجتماعية ، وكثيراً ما تكون تلك الوسائل متناقضة ظاهرياً . واختيار الوسائل يجري ليس فقط تبعاً لقابلية التلقي لدى الفئات المذكورة ومتوسط ذكائها ، بل أيضاً تبعاً للهدف النوعي ، أي الغرض من عملية التكييف هذه . بيد أنه ، حتى الأشخاص ذوو الروح الانتقادية ، والوعي ، ليسوا ، بصورة قبلية ، وسبقاً للتجربة a priori بمنجاة من عمليات الاكراه والارغام هذه ؛ إن النزع الموجه لطابع التسامي يدخل إلى منازلهم ونفوسهم أيضاً بواسطة عوامل خاصة ومنوعة بصورة ملائمة ، وينتجها ، على كل حال ، هؤلاء الأفراد أنفسهم .

إن كتب الجنس ، والمثيرات الجنسية التي تنشرها الأفلام ، والأزياء الشائعة ، والموضة ، والاعلانات ، والريبورتاجات الجنسية في المجلات المصورة الكبرى (الماغازين) وأبواب النصائح الطبية للعائلات ، والحلول الجاهزة للمشاكل الشخصية ، في المجلات المصورة (الماغازين) كل هذا « الطوفان » المشوش

---

(١) Rudi Dutschke. in Der Spiegel no. 51 - 1967 - p. 62

(٢) A. et M. Mitscherlick, Die Unfâhigneit zu trawern Munich, 1967. p. 290.

(٣) هـ. ماركوز ، المرجع المذكور آنفاً .

ظاهرياً والفاقد للنهج الموجّه يمكن تصنيفه تبعاً لمعايير التكييف الاجتماعي – الجنسي :

١) إن وسائل الاعلام الجماهيرية الواسعة الانتشار لتكييف النـــاس ، وأدوات التضليل والتزييف ، تعمل بواسطة مجموعـــة كبيرة من الرموز والحوافز والمحرضات التي تتدخل انطلاقاً من التنظيم الماقبل الجنسي التناسلي للفرد ، وتؤكد بتشديد على الدائرة الخاصة والعامة للحياة الجنسية التناسلية .

من جملة هذه المحرضات نجد : **الوعد بالسعادة المستحيلة** (الحب العظيم في إطار جذاب له جمال البلدان الشرقية النائية exotisme ، الحصول على الجائزة الكبرى في اليانصيب ؛ الاستغناء عن العمل إثر زواج من امرأة غنية ؛ **الشباب والفتوة** ، والجاذبية الجنسية الدائمة أبداً (وذلك بفضل الهرمونات ،وعمليات تدليك الصدر ، والعلاجات بالفواكه) ، سير الحيـــاة المهنية النرجسية Narcissiques (عارضات الأزياء ، وفتيات الغلاف الفاتنات، ونجوم السينما، وأبطال الرياضة) ؛ الجمع بين دوافع الاشمئزاز ودوافع النظافة (ظاهرات من فيلم « موندو كاني » ، سأكتسب الفتنة وأصبح مشتهاة منذ أن استعمل Xy ؛ **افراغ الروح العدوانية** على الجمـــاعات « المتحررة جنسياً » (اللواطيين ، والسحاقيات ، والهيبيين ، والطلبة) ؛ تعبئة واستخدام **القلق** الذي هو بصورة ظاهرة مضاد للرغبة الجنسية والمتصف بالعُصاب ، وهو في حالة الكون(حبوب مانعة للحمل تحدث نفس تأثيرات التاليدوميد) .

وفي السنوات الأخيرة ، عرضت المطبوعات المتخصصة في هـــذا الصدد بصورة واضحة وتفصيلية كيفية عمل هذه المحرضات ومثيلاتها الأخرى [١] .

---

(١) راجع بصورة خاصة و. ف. هوغ Zur Asthetig von Manipulation in Das Argument no. 25. 1967. p. 23-36

لكنها عرضت كما لو كانت تعمل وتؤثر بنفس الكيفية على جميع أغراض التكييف، باستثناء أولئك الذين يريدون الافلات من السعي لجعلهم « أغراضاً »، ويعتمدون لتحقيق ذلك الإفلات، تفكيرهم الانتقادي. لكن الواقع مختلف، فهذه الحوافز والحرضات مصوغة ومكيفة تبعاً للانقسام الاجتماعي وتبعاً لبعض الفئات الموجهة إليها تلك الحواجز، وتلك الفئات محددة عن درس وخبرة، في أغلب الأحوال.

٢) كلما كان المستوى منخفضا في سلم الفئات الاجتماعية، ستكون وسائل التكييف أكثر فظاظة وصراحة. ولكن قبل كل شيء: ستكون أكثر تصلباً معايير التكييف الاجتماعي والجنسي المطلوب بلوغها. وكلما كانت الفئة الاجتماعية أرفع، سيكون أكبر هامش المناورة، الذي يقوم بحسابه واضعو طرائق التكييف والتضليل، هذا الهامش الذي تمنحه الطبقة المسيطرة، ويترك للتنوعات الافرادية وللحريات الظاهرية.

ويبدو أن العديد من هؤلاء النقاد، وبينهم قبل كل شيء التقدميون، قد صاغوا موضوعتهم حول « نشر المتعة الجنسية ظاهرياً » أو « النزع القمعي للتسامي »، وذلك انطلاقاً من دراسة أرفع الفئات الاجتماعية بين الفئات المُكَيَّفة على أوسع نطاق، يعني: انطلاقاً من عملية التكييف متصورةً تبعاً للطبقة الوسطى بالضبط، أو في أفضل الأحوال تبعاً للطبقة العليا الوسطى، أي عملية التكييف التي تمارس تأثيرها على الشباب من رجال الأعمال، والمستخدمين، وأمناء سر الادارة. وينبغي تحليل ودراسة مجلتي **« توين »** و **« ايلترن »** ومع ذلك ينبغي أن لا ننسى **« برافو »** و **« دار نوي بلات »**.

لنأخذ بمثابة مثال المجلة المصورة الكبرى (الماغازين) « إيلترن »[1]

---

(١) يتعلق الأمر هنا بأعداد كانون الأول ١٩٦٧ من مجلة « ايلترن » (الأهل).

وهي أقوى مجلة تأثيراً بصدد التكييف الاجتماعي والجنسي للزوجين . إن هذه المجلة المصورة الكبرى تتوجه إلى الأزواج والزوجات الفتيـــان من الجماهير « الواسعة » للفئات الوسطى الذين هم في المرحلة الأولى من بدء استقرار حياتهم الحميمة ووجودهم المادي . وفي الصفحات الدعائية ، التي تأخذ حيزاً كبيراً من المجلة ، تسود الاعلانات عن الملابس العملية والشائعـــة ذات الاستعمال اليومي (بتعارض مع خياطة الملابس الفاخرة) والوجبات الجاهزة (الكابا ، الأليثي) والمقويات (تيترفيتول والمالكافيت) والألعابْ والملابس الداخلية و الـ auzy وزينات الهواية ؛ ولا نجد إعلانات عن السجائر والمشروبات . وهذه المجلة – الماغازين تقرأها ، بصورة خاصة ، النساء المتزوجات – أما المقالات « التي يوصي بها الآباء بصورة خاصة ، فيشار إليها بنجمة في فهرست المواد . والوصية العليا لهذه المجلة هي : السعادة الزوجية بأي ثمن كان !وتقدم تنازلات كثيرة لأجل هذه السعادة في القسم المخصص من المجلة للتربية الجنسية . ويمكن أن نقرأ في هذه الصحيفة ، بنفس نية كينسي ظاهريـــاً : « لقد اكتشف الأميركي كينسي ، لدى استقصاءاته ، فوارق كبيرة في فهم الحيـــاة الجنسية والسلوك الجنسي تبعاً لمختلف الفئات الاجتماعية في الأمة » . وهـذه الفوارق ذات دلالة بصورة خاصة مثلاً بصدد التعري أو المداعبات الممهدة للعمل الجنسي [....]. وهذا الموقف يتغير كلما صعدنا في السلم الاجتماعي . وكلما كان مستوى التعليم والوضع الاجتماعي أعلى كان تطلب العري أثناء الجماع ، أكثر [1] . أو أن المجلة تقدم نصائح عملية للحصول على أعلى حد من اللذة أثناء فترة الحمل : «[..] أو أن الرجل يعاشر المرأة وهي تدير له ظهرها . وتحـذر المرأة بشدة ، حين تكون فترة الحمل متقدمة ، أن تتخذ الوضع المسمى وضع الفارسة ، ذلك لأن قضيب الرجل يمكن أن ينفذ بسهولة عميقاً جداً ويستثير تحريضات آليـــة

---

(١) « إيلترن » العدد المذكور ، ص ١٢٤ .

ضارة »[1] . ويمكن أن ينشأ بادىء بدء ، لدى قارىء مثل هـذه الكتابات الانطباع ، المدعوم على كل حال بسيطرة أنماط الاستعمال الإعلاميـة في أعداد هذه المجلة وزميلتها ، الانطباع بأن الأمر يتعلق هنا ، بالضبط ، بعملية تكييف للزوجين ، كما تقضي بذلك الأزمنة العصرية ، وكما تتطلبه الحضارة الصناعية ، التي ورثت كثيراً من الأفكار المسبقة والأوهام اللاعقلانية . وهذه ، على درجة التحديد ، الفكرة السائدة في سلسلة من المقالات حول التربية الجنسية .

فان دي فيلده عام ١٩٦٧ : « هذا التقرير وضع نصب عينيه منـذ البدء ، بمثابة مهمة ، الازالة التامة للقلق وإلغاء عدم الاحساس بالأمن والسلامة ،وذلك بتقديم معلومات واضحـــة »[2] . لم يكن « ممكناً » ، منذ خمسة أو عشرة أعوام ، التحدث في مجلة نسائية عن توجيهات تتعلق بالصحة الجنسية ، بنفس الطريقة طريقة ما أوردناه من نمـــاذج : إن نمط التكييف ، المتطلب حتى من المرأة الصبية ، وذات النشاط المهني ، المنتمية إلى الفئات الوسطى ، ظل قبـل الفترة التي ذكرنا ، مخنوقاً بالخضوع. إذن هنا ، مع أن« إشباع الرغبة الجنسية» الذي يسمع به المجتمع ، والمرغوب فيـــه ، أصبح ذا نطاق أوسع بكثير » (ماركوز) : فإن المرأة تصبح غرضاً جنسياً « مستقلا ذاتياً » — في إطـــار قسر الزواج الأحادي . وحتى ماركوز لن يقول « إن مبدأ اللذة ، عبر هذا الإشباع ، قد تعرض لعملية إنقاص » . إن مبدأ اللذة لا يتعرض حتى لعمليـة إنقاص ، وذلك بسبب واقع أنه مقصور في هذه المجلة، على المرأة المتزوجة: إذا أننا سوف نرى أن مجلات مصورة أخرى، « تونين » مثلاً، توجه أيضاً إلى بعض التوسيعات لامكانية إشباع الرغبة الجنسية بالنسبة للشابة غير المتزوجة، المنتمية إلى الفئات الوسطى . لكن الشيء القممي هنا ، هو الصلة النوعية التي تربط هذ

---

(١) مجلة « تونين » العدد المذكور ، ص ١٢٧

(٢) المرجع ذاته ، ص ١٢٩ .

التحرر الجزئي بالمستوى الاجتماعي الاقتصادي المحرز في كل حالة من الحالات . والشيء القمعي هنا ، هو عملية حصر للأنماط المسموح بها من إشباع الرغبة الجنسية ، حسب ما يتعلق الأمر بامرأة متزوجة أو عزباء ، أو برجل أعزب ، أو متزوج ، أو عاشق، أو إذا كان الأمر يتعلق بمراهق حدث من الفئات الدنيا أو بمراهق حدث من الفئات المتوسطة . إن عمليات الحصر هذه ، المتغيرة تبعاً للأحوال ، تكمل وتحدد أيضاً من « الحريات الموسعة » في كل عدد من أعداد « إيلترن » (والمجلات المصورة الكبرى من نفس الطراز) . وهكذا نقرأ في نفس العدد من المجلة مقالاً « تكميلياً » كتبته ريناتي ، الضاربة الشابة على الآلة الكاتبة وموظفة الاختزال sténodactylo . إنها حامل من صديقها (« وهو فرنسي ، وبتعبير أدق ، كورسيكي ، وأمه فيتنامية ، ومهنته مهندس »)كانت ريناتي تريد ، بادىء بدء ، أن تجهض حملها [...] كنت أعرف طبيباً شديد اللطف ومحباً لخدمتي ، ثم قرأت ، مصادفة ، مجلة « **إيلترن** » ، فامتنعت عن عملية الإجهاض ، وولدت طفلي . وأنا اليوم سعيدة » . والأب يقطن طبعاً كورسيكا ، ذات المناظر الطبيعية البديعة ، ويحمل اسم غريمالدي ، البديع ، حاملاً بين ذراعيه طفله فريدريك الذي يفوقه جمالاً أيضاً . والشابة ريناتي ما تزال تعرف ، حتى اليوم ، كيف حدث كل ذلك ، تقول : « كما أنني ، حين كنت في قاعة الحمام ، أحسست بأجنحة المعجزة تلامسني بلطف ، كذلك أحسست الآن أنني سأعانق مصيري . لقد أحسست في تلك اللحظة بأنني ما عدت أستطيع الفرار من مصيري ، وهو أن أكون أماً »[1] . وهكذا انتهى أمر كل مظهر من مظاهر التربية الجنسية ، التي خنقت بسرعة ؛ ولا شيء عن الطابع الخطر أو غير الضار لعملية إجهاض تجري بصورة علمية ، ولا شيء عن التمييز الاجتماعي والحقوقي التي تقع ضحايا له الأمهات العازبات ، وأولادهن ، ولا شيء عن الحق في حياة جنسية مؤسسة على اللذة والتي تجدد مبررها الوحيد

---

(١) « إيلترن » العدد المذكور - ص ١٨ ، ٢٠ ، ١٣٢ .

في الشخص الانساني ، ولا يبقى سوى المعجزة ، والسحر ، وسحر البلدان النائية . هذا النمط من التوجيه التكييفي نجده أيضاً ، بصور متفاوتة الوضوح والجلاء ، في جميع المجلات المصورة (الماغازين) التي من هذا الطراز . ويمكن أن نستخلص من ذلك صيغة عن التوجيه التكييفي ، خاصة بمختلف الفئات الاجتماعية : إن توسيع اشباع الرغبة الجنسية في قطاع اجتماعي معين ، تجري تقنيته est canalisé في الوقت نفسه بتحديد استبدادي » (« انني ما عدت أستطيع الفرار من مصيري ») وبذلك يجري إلغاء ذلك التوسيع التحرري . وتظهر عملية « التوسيع » بمثابة هدية من قادة التوجيه التكييفي (« ثم قرأت مصادفة مجلة «إيلترن») . وهكذا فإن عبارة ماركوز تتخذ كامل معناها ، إذ يقول : « ولكن عبر هذا الاشباع للرغبة الجنسية ، تعرض مبدأ اللذة إلى عملية انقاص نظراً لأنه جرد من المطالب التي تتنافى كلياً مع المجتمع القائم . إن اللذة في هذا الشكل تولد الخضوع ».

سوف ندرك كل مغزى هذا الخضوع ، بوضوح ، حين سنقارن ، بين السياق الخاص للخضوع ، الموصوف في ما سبق وبين « عمليات توسيع اشباع الرغبة الجنسية » في فئات اجتماعية أخرى أو في مجموعات أخرى لأشخاص من أعمار معينة . إن عالم مجلة « توين » مكون من حياة جنسية قبل الزواج ، دون ندم ولا حسرات ، ومن أزياء وسلع شائعة ، درجة [١] وسيارات ، وحفلات عشاء أنيقة على الطراز الفرنسي ، وسير مهنية ناجحة ، وقليل من الثقافة ، والجاز وغناء الخنافس ، وطائفة من الأشياء التي يجب أن يمتلكها كل « توين » Twen (زوجين اثنين ، أو عشيقين) . ولا شيء يصف بصورة أفضل ، خصائص هذه الفئة من القراء ، مثل تعريفهم بأنهم « رواد الاستهلاك » ، هذا التعريف الذي ابتدع خصيصاً لهذه الفئة في دراسة تحليلية للقراء طلبها تروست « سبرنجر » [٢]

---

(١) درجة (بضم الدال وسكون الراء) أي الموضة (راجع « المنهل »)

(٢) « قراء (توين) » في Werbeträger - Analyse 1966 —

والواقع ، أن موقف التمرد لدى قراء « توين » الفتيان يجب أن يعالج بتهدئته بعمليات استهلاك مسرفة ، لا حد لها . إنهم (رواد) التكيف ، — ابتداء من جماعة المكسي — جوب حتى جماعة الجنسية المثلية (اللواط والسحاق) الذين لا يستطيع بعد أن يقترب منهم الأشخاص المنتمون إلى عالم مجـلات (برافو) و (ايلترن) و (نويزبلات).

لقـد اقترحت الصفحة الشهرية المخصصة للعلاقات الجنسية في مجلة « توين » لشهر تشرين الثاني على قرائها ، الموضوع التالي (لقد أرادت (توين) أن تعرف مدى الصعوبة التي يواجهها العازبون والعازبات في الحصول على حبوب منع الحمل في المانيا (...) . وكانت النتيجة تدعو إلى الارتيـاح . فوصفات الأطباء التي توصي ببيع هذه الحبوب لم تعد شيئاً نادراً) . وبواسطة أمثلة ملموسة ، يصف مكاتبو المجلة كيف توصلت إحدى الفتيات إلى الحصول على حبوب منع الحمل ، مع وصف « تفاصيل العملية » بدقـــة كبيرة . بل ويصل الأمر بالمجلة إلى حد إرشاد بعض قرائها ، إلى الأطباء الذين يمكن الاستعانة بهم ، في حالة عدم عثور هؤلاء القراء على أطباء يصفون لهم حبوباً لمنع الحمل تؤخذ بالفم : (إن الذي ليس لديه طبيب عائلة منفتح ، يستطيع الاتصال بمراكز الاستعلامات (انظر اللائحة أدناه) . ويستطيـع أن يحصل من أي مركز من هذه المراكز على عنوان طبيب تقدمي . أما أولئك الذين يريدون المزيد من المعلومات الأكثر دقة عن منع الحمـــل ، فنوصيهم بالحصول على الكتاب الوثائقي الذي وضعه الدكتور هوبيرت باسيا ، وسعر الكتاب ماركان (٢ مارك) ، ويمكن الحصول عليـه

= وهي دراسة وضعها معهد استفتاء الرأي العام،
ألنسباخ ، ص ٤ . راجع أيضاً تقرير هاينز شانر
Schichtenspezifishe Manipulation des springer - konzern.
10 - 2 - 1968

بالكتابة إلى العنوان التالي (Berlin [1] S D S, 140 Kurfustendam) .
ذلك شيء جيد . وربما سيدهش القاريء ذي الموقف السياسي ، من أن «توين» التي يملكها ، مع ذلك ، تروست (سبرنجر) كما يملك (برافو) و (إيلترن) تقوم بالدعاية لمنظمة تطالب بشدة بتأميم تروست (سبرنجر) . وربما سيرى في ذلك بادرة من بوادر الديمقراطية والليبرالية التي تحدو هذه المؤسسة الصحفية الكبرى . والسؤال الذي يهمنا ، باديء بدء هو : «ماذا ستفعل الفتاة بحبة منع الحمل ؟» . وفي تحقيق صحفي « خيالي » نشر في العدد ذاته ، تجيب عذراء غير معروفة الاسم ، قائلة بلهجة قاطعة – تماماً على غرار ما نجد في كل عدد ، على كل حال – : «أنا في التاسعة عشرة من عمري ، وما زلت عذراء حتى الآن . وباختصار ، يجب أن أتخلص من هذه الحالة» . والفتاة من بامبرغ ، ولدى خطيبها مفهوم أخلاقي يتوافق وذهنية أهل هذه المدينة ، وهو يريد أن تصل خطيبته عذراء حتى ليلة الزواج . فماذا تفعل ؟ إنها تذهب إلى مونيخ « لكي تتدبر أمرها » . فماذا تجد هناك ؟ تجد أن رجلاً حقيقياً لا يريد فتاة عذراء . « ولم يبق أمام عذراء لم تعد تريد أن تبقى كذلك،وقد ذهبت إلى حي شوابينغ (وهو « الحي اللاتيني » في مونيخ ، لم يعد أمامها سوى المتوهين ، والسكارى ، وعمال المناجم المفعمين خوفاً ، واللوطيين...ورقدت في السرير مع تيم . ولكن سرعان ما طردني إلى خارج غرفته . إنه لا يمارس الجنس مع عذراء . كل ذلك الخوف ، دون سبب ... وعرضت نفسي على طالب برليني (!) كان يسير من باب إلى باب يجمع الاشتراك لاحدى المجلات . وكشفت له عن محاسني ؛ فاتحة له مئزر حمام ، أبيض ، قصيراً جداً ، لا يوجد تحته أية قطعة ثياب » لكن هذه العملية هي أيضاً لم تنجح . وفي خاتمة المطاف لجأت هذه الفتاة للتخلص من بكارتها إلى رسام أبكم ، قام بذلك بلامبالاة تامة ، ودون إقبال شخصي ، بل تماماً كما يرسم لافتاته « هذه اللافتات الكثيرة التي لا تحصى ، والحاملة شعارات

---

(١) «توين» ـ تشرين الثاني عام ١٩٦٧ ، ص ٥٣ و ٥٩ .

أقصى اليسار ، وشعارات أقصى اليمين ، حسب الظروف » واختتمت قصتها بهذه العبارة : « لقد أصبحت سعيدة جداً مع خطيبي في بامبيرت[1] » .

يمكن القول عن هذه القصة ، النموذجية ، في ما تنشر « توين » ، انها أقل بدائية ببعض الفروق البسيطة ، من حيث بناؤها ، عن القصص المماثلة الهادفة إلى التكييف ، والتي تنشر في « ايلترن » و«برافو» . لكن في هذه الفروق البسيطة ، بالضبط ، تقوم عملية تمايز التكييف التضليلي ، تبعاً للفئات الاجتماعية : وبالمناسبة نقول ان القصة مكتوبة بأسلوب ذي وجهين ، مصوغ من جهة من تهكم لاذع جداً (يتيح للقارىء تغريباً وبعداً عن الاندماج الانفعالي في الحادثة ، لكي يعمد الى تقييمه لها ، من تلقاء ذاته) ومن جهة أخرى من أمر قاطع (يفرض المعيار الجنسي لما قبل الزواج) . أما الهدف التكييفي المقصود ، فهو ينتج عن هذا « الأمر الساخر » : ممارسة جنسية قبل الزواج ، نعم ، مغامرة أو مغامرتان ، أجل ، علاقات جنسية دون خوف ، نعم ، ولكن – إن « الممارسة الجنسية قبل الزواج » تعني في الواقع : حياة جنسية خاصة قبل الزواج . ولكن ما من شك في أنه ، حتى في إطار علاقة زواج أحادي لاحقة ، لا يمكن أن تقوم حاله التحديد الثابت لغرض جنسي ، وكامل ، نعني به القدرة على الحب ، لا يمكن أن تقوم تلك الحالة لدى أشخاص رُبّوا على هذه الطريقة . إن قراء « توين » يجري ابقاؤها في حالة وصفها ميتشيرليش ، في سياق آخر ، على النحو التالي : « ايجاد تنميط تام لمستويات الأشخاص (...) (وذلك عن طريق) الاثارة الجنسية الدائمة بواسطة بديل مزيف للذة ، وذلك لطمس عدم الرضى ، المتزايد شدة أكثر فأكثر ، الذي يولده القيام بعمل تافه ممل »[2] . إن مجلة «توين» وغيرها من عوامل التكييف التضليلي المماثلة ، في

---

(١) « توين » ـ تشرين الثاني ١٩٦٧ ـ ص ٦٠ وما يليه .
(٢) ميتشيرليش ـ المرجع المذكور .

الأفلام ، والدُرجة ، والصحافة ، لا يسببون فساد القدرة على الحب في البدء ، لكن عملهم ينحصر بعد ذلك في تقوية عملية الافساد هذه وتفاقمها إلى درجة الخطر . إن « إيلترن » الصحيفة الطيعة ، المنشأة من أجل جمهور « يعيش أجمل سني حياته » ، وكذلك عوامل تكييف أخرى مماثلة مخصصة لجمهور بلغ سن الرشد والنضوج ، تقوم حينئذ بتنميط مستويات هذا الافساد إلى أقصى حد يمكن تحمله .

إن « برافو » ، وهي المجلة الوحيدة النموذجية بالنسبة لدورها ، والمتميزة الخصائص حقاً ، والتي تتوجه الى فتيان وفتيات الفئات الدنيا ، لا تقوم فقط بالتكييف التضليلي بصورة أكثر بدائية ، أو أكثر ظهوراً : ان الهدف المعين من قبل التكييف هو أيضاً أكثر تصلباً ؛ الى حد أنه لا يمكن عملياً الحديث عن « نشر جو حياة جنسية ظاهرية » ، بل يمكن بالأصح الحديث عن « تحقيق تناسب صحيح » ، كمي وكيفي ، لممارسة النشاط الجنسي . لكن « برافو » لا تتوجه فقط الى فئة اجتماعية أخرى غير تلك التي تتوجه اليها مجلة « توين » . بل ان قراء «برافو» هم أيضاً أصغر سناً من قراء « توين » ، وقراء « برافو » هم قبل كل شيء ، فتيان وفتيات تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة والثامنة عشرة ، وينتمون الى الفئات الدنيا ، وقراء توين هم فتيان في الثامنة عشرة حتى العشرين من أعمارهم ، وينتسبون الى الفئات الوسطى .

ان مفهوم « برافو » للحضارة والأخلاقية يتصف بنزعة محافظة ، تهدف الى التكييف التضليلي . والقيم التي تقوم بنشرها هذه المجلة باستمرار ودون انقطاع هي : اللباقة الفروسية ، وبهجة العيش « ومعرفة متى تحين لحظة الجد » . والمعايير الجنسية للتكييف التي تهدف الى نشرها واقامتها مجلة « برافو » تبدو ، من بعض الوجوه ، تتناقض مع معايير (توين) . توجيهات برافو : إكسبوا المال في أقرب وقت ممكن ، وأكثر ما يمكن ؛ تزوجوا في أبكر وقت ممكن ، كونوا مستقيمين أحدكما ازاء الآخر ، واحذروا من نشوء كثير من المشاكل

بينكما ، والممارسة الجنسية ، في آخر تحليل ، ليست شيئاً مهماً جداً . لا تناموا معاً قبل أن تتزوجوا ، ولكن اذا اضطررتم الى ذلك – أي الى الرقاد معاً – فينبغي أن تضعوا نصب أعينكم دائماً فكرة تحقيق الزواج ، بأسرع وقت ممكن .

وتنشر (برافو) منـــذ بعض الحين تحقيقاً صحفياً جنسياً ، في حلقات اسبوعية . الا أن المعايير الجنسية تعطى اما دائماً في شكل نصائح أبوية ، واما بصورة مباشرة ، على نحو ما نجد في المجلات النسائية المصورة التقليدية ، في شكل ردود على مسائل شخصية ، ويقدم هذه الردود (رجل علم) هو ، مثلاً ، في مجلة (برافو) (الدكتور فولمر) .

مسألة سيلفيا

سؤال : « أنا في السابعة عشرة ، وجميلة جداً ، وذلك قيل لي كثيراً . ولي صديق لطيف جداً ، في العشرين من عمره ، وهو حالياً يقوم بخدمته العسكرية . ووالداي يعارضان صداقتنا ، ويسلكان إزاء الشاب سلوكـــاً غريباً . انهما يرفضانه لأنـــه ليس وسيماً ولأن قامته تعادل قامتي بالضبط . وباختصار ، فليس هو طراز الرجل الذي كان أبواي يحلمان به لابنتهما » .

جواب : « إذا كانت هذه هي العقبات الوحيدة التي تجعل أبويك يرفضان صديقك ، فعليك أن تتوصلي الى اقناعهما بقبول هذا الشاب . قولي لهما إنـــه يحس بالراحة حين يكون في منزلكم – ولو كان هذا غير صحيح . قولي لهما انه معجب كثيراً بوالدك ، وانـــه يتذوق بمتعة كبيرة قطعة الحلوى بالتفاح التي تصنعها والدتك ، أو أنه شديد الاعجاب بفسطانها الجديد . وبعد أن تكوني قد مهدت الطريق على هذا النحو ، فستتوصلين شيئاً فشيئاً الى اقناع ابويك . وإثر ذلك سوف يدركان ان الوسامة ليست هي كل شيء ، بل انها ليست أهم

شيء ، لاسيما عند الرجل ، لأجل النجاح في عقد صداقة وثيقة ، والسعادة في الحب وفي الزواج »[1] .

إن أهمية هذا المثال لا تقوم فقــط في كون قارىء « توين » النموذجي ، سوف يجد جواب « الدكتور فولمر » مضحكاً جداً . وعلى كل حال ، فذلك القاريء لا يعرف هذا النوع من المشاكل . إن شريكاً دميماً ، بالنسبة له ، على الأقل ، بالمقارنة مع معايير الجمال القائمة اليوم ، لا يمكن القبول به ؛ إلا اذا كان الأمر يتعلق بدمامة « أنيقة » ، يمكن بسهولة التوفيق بينها وبين الكليشهات الاعلانية ، بل هذه الدمامــة التي تتطلبها بالحاح هذه الكليشهات (من طراز عارضة الأزياء تويغي) . وأهمية هذا المثال تقوم قبل كل شيء في إفساد النتيجة المقصودة : مفهوم الأهل للقيمة ومتطلباتها المسلكية ؛ فالفتى ، ظاهرياً ، يهزم أبويه ويخدعهما . أما في الواقع ، فليس الأبوان ، بل الفتيان والفتيات أنفسهم هم الذين يرفضون شريكاً محتملا ، بسبب شكله غير الملائم . وسيلفيا تعزو هذا الرفض إلى أبويهــا ، وفي الوقت نفسه ، وإثر إطراء كاذب للأبوين يفتح المنزل أمــام الشاب ، بهذه الوساطة ، نحو أبنية قيم الأبوين . ويجري الأمر كأنما من واجب الفتاة أن تقنع أبويها بأنهما مضطران تماماً للقبول بشريك قليل الجاذبية ، بدلاً من القول بالعكس إن على الفتى أن يتعلم، لفرط حالات الاخفاء، الخضوع لذلك الموجب . وتزداد خيبة الأمل حين يقدم رجــال التكييف التضليلي باستمرار للأبوين مثلا أعلى للجمال والجاذبية يُظهر كل علاقة حب « طبيعية » بمثابة شيء تافه ، عديم الطعم . إن فتى الفئات الدنيا يعرف ضغوط « الحياة الحقيقية » وما فيها من حالات قسر وإكراه ، في وقت أبكر مما يعرفها فتى الفئات الوسطى . لذلك فإن الممارسة الجنسية واللذة – حتى في شكلها المكيف تضليلا ، والظاهري تمّحيان أمــام قضايا القبول « الخارجي » ، والتكيف مع عالم العمل والوسط العائلي . لذلك فإن التكييف المضلل في فئات

(١) « برافو » عدد ٢٠ – ١١ – ١٩٦٧ .

الشباب هذه يجري ، قبل كل شيء، ضد تفتح ـ ولو مُقنّى ـ للممارسة الجنسية، وليس ، مطلقاً ، كما نجد في « توين » بواسطة التحرر الجنسي الجزئي .

وإلى جانب هذه الفوارق الاجتماعية ـ الاقتصادية المرتبطة بالانتماء إلى الفئات الاجتماعية ، فإن هذه المجلات المصورة (الماغازين) تختلف كذلك في مجموعات أسئلتها الجنسية والاستفتاءات حول الحب . وفي كل عدد من أعداد « توين » و « برافو » المذكورة ، نجد مجموعة من أمثال هذه الاسئلة ، المصاغة على أساس نفس النموذج، إحداهما تحت عنوان «موعد ٦٨ » والاخرى « استفتاء (برافو) حول الحب » . وفي المجموعة الأولى من الأسئلة ، لا نجد فقط تفوقاً ، بالنسبة للمجموعة الثانية ، للاسئلة المتصلة مباشرة بالحياة الجنسية (تقريباً زهاء ١٥ سؤالاً من أصل ٧٣ ، مقابل ٥ من ١٠٠ في « برافو ») ؛ وتقدم كذلك مجموعة أسئلة « موعد ٦٨ » إمكانية اختيار مباشر للشريك . وبمثابة جواب ، يتم الحصول على عنوان شريك ملائم : « نحن هنا لا نعدكم بالفردوس . إن شخصاً ثالثاً لا يستطيع أن يعرف ما إذا كنتما ستحققان السعادة أم لا » [1] وإثر ذلك ، يحدد موعد مع هذا الشريك لأجل التعارف . وفي « برافو » يحصل المشتركون في الاستفتاء فقط على جواب من الناظمة الآلية الالكترونية ordinateur عن طباعهم الشخصية إن « الناظمة الآلية » الالكترونية سوف تجيب باهتمام وصدق . إنها تتكيف تماماً مع شخصيتك وذلك لأنها تعمل بواسطة المعلومات

---

(١) « توين » العدد المذكور ، ص ٩٠ . هاكم مثالا على الفوارق الطبقية في الوصف التكييفي ـ التضليلي ، للشريك : في الفئات الدنيا ، من الموافق تماماً للمعايير أن يأتي الشريكان الجنسيان ، أو الزوجان ، من نفس مجموعة المباني ، أو نفس الحي . وبالمقابل ، يجري تسهيل وعي قراء « توين » بصفتهم رواداً، ومؤكد أنه لن تنصح فتاة من فرانكفورت تشترك في الرد على اسئلة « موعد ٦٨ » الارتباط بشاب من فرانكفورت ، ولا حتى من هامبورغ أو ميونيخ . فهاتان المدينتان ، بعيدتان جداً، بحيث يصعب تحديد موعد للقاء في إحداهما، أما فرانكفورت، فهي قريبة جداً . وبالاحرى فالفتاة ستحصل على عنوان شريك يسكن في مايانس أويسبادن ، أو دارمشتاد ـ وقد تحققت من ذلك أنا بنفسي .

التي قدمتها أنت »[1] وكذلك تترك « تونين » في أجوبتها حرية ظاهرية أكبر للمشتركين في استفتائها ـ مثال نموذجي : السؤال رقم ٥٥ : (أنت في نزهة مشتركة ، مع شخص تحبينه حقيقة . وفجأة ترين شريكك يغازل فتاة أخرى . فكيف تتصرفين عندئذ ، وماذا يكون رد الفعل لديك ؟) أهاجمه ، محدثة له مشكلة . ٢) أحس بالألم ٣) آخذ أنا أيضاً بمغازلة آخرين . ٤) ابتهج بذلك . لا أهمية لذلك مطلقاً عندي) . إن أمثال إمكانات السلوك هذه ، التي ، طبعاً ، لا وجود لها ، في الواقع ، حتى بالنسبة لقراء (تونين) ، ليست موضوعية حتى بمثابة إمكانية اختيار وهمية بالنسبة لقراء (برافو) . وهنا نجد أن الشيء المهيمن هو نموذج الأسئلة الهادفة إلى تحقيق التكييف ، بدأب ، السؤال رقم ٢١ (مثلا ، رجل لا ينجح في الحياة . ١) هو شخص عديم النفع ، فاشل ؛ ٢) إنه في علاقاته البشرية والخاصة لطيف جداً ،غالباً . ٣) إنه فقط لم يحالفه الحظ) . إذن ، فتجاه (ذلك الذي لا ينجح) ، لا يوجد سوى موقفين ممكنين : إما إدانة قاسية ، إلى حد ما ، وإما تسامح يتضمّن هذا الحد أو ذاك من العجرفة.

إن باستطاعتنا تقديم الكثير من الأمثلة عن الفوارق الطبقية في التكييف الاجتماعي والجنسي ، أمثلة تؤخذ من مجلات مصورة اخرى، ومن أفلام، أو من مواد إعلانية ودعائية ولكن لا جدوى من ذلك ، في هذا المجال فباستطاعتنا على أساس الفروق والمشابهات التي تظهر (تونين) و (برافو) أن نصوغ موضوعتنا الثانية : ان هذه الفروق تشكل ، في شطرها الأساسي ، الفروق المتغيرة لعملية تطور واحدة الزامية تقود إلى الزواج الأحادي الإلزامي ، المؤسس على اقتصاد وتقنية السيطرة ؛ وهذا الزواج الأحادي هو ، في مجتمعنا المعيار المطلق لدى جميع الفئات الاجتماعية (هل يبقى كذلك ؟) . ان الفئات الاجتماعية الأدنى ، بموجب وضعها الأقتصادي ، تضطر لأن تتكيف في وقت

---

(١) « برافو » العدد المذكور ص ١ و ٤ .

وقت مبكر اكثر من سواها - وظاهرياً فقط - بصورة غير مشروطة أكثر مما لدى سواها ، نظراً لأن كل اختيار آخر مستبعد ، كليا ، وفي مجمل الأمر. ولهذا السبب قبل كل شيء لا يوجد مراسل لـ (**توين**) للفئات الدنيا : ففي سن العشرين أو الخامسة والعشرين ، تكون عناصر هذه الفئات قد تزوجت أو هي في طريق الزواج ، وفي هذا الزواج ، ينبغي لها أن تنثني فوراً أمام معايير استهلاكية تسيطر فيما وراء عالم (**توين**) على الهوايات والزينات الأنيقة المختلفة.

٣) كلما كانت الفئة الاجتماعية ادنى ، توجب ان يكون أكثر سمواً المثل الأعلى الاجتماعي المقترح لها، والذي يستخدم بمثابة نموذج للمعايير الاجتماعية والجنسية ، وفي الوقت نفسه كصورة للسعادة الموعودة .

وأسهل طريقة لإثبات الصلة المتبادلة بين المثل الأعلى الاجتماعي المقترح والشرط الاجتماعي الحقيقي لغرض التكييف ، تقوم في المقارنة بين المثل العليا الاجتماعية التي تقوم بنشرها المجلات المصورة الكبرى التي تعالج ميدان الحياة الخاصة . وسأقتصر ، في القيام بذلك ، على مجلات تروست سبرنجر لانها هي التي تعبر بصورة أفضل عن مجموعة تنوعات التكييف التضليلي (انظر اللائحة رقم ٣) .

ان مقولتي (مخصص بصورة عامة له) و (يقرأه بصورة عامة فلان أو فلان) ليستا متماثلتين ، بالضرورة . فبين قراء (برافو) ، مثلا يوجد ٣٨ ٪ ممن تزيد أعمارهم عن ٣٠ عاماً [١] كما أن بين قرائها كثيرين من فتيان الفئات الوسطى والعليا . إلا أن « القيمة م » [٢] بالنسبة لهؤلاء القراء ، لمقالات وصف الوقائع

(١) انظر دراسة Zeitschriften - Leseranalyse 1955, Arbeits-gemeinshaft Leseranalyse التي وضعت لحساب من قبل شركتي ديفو و انفراتيست - فرانكفورت .

(١) القيمة م . هي ايجاز لعبارة « قيمة المطابقة » وهي تعطينا الدرجة - المقاسة تجريبياً - لمطابقة مقال أو صورة أو مجموعة من الصور لوضع قارىء ما .

بصورة مطابقة تماماً ، ليست مرتفعة جداً كما يبدو ، مثلاً ، الرجال الذين بلغوا سن الرشد يتصفحون مجلة « برافو » بحثـــاً عن الصور ذات الإثارة الجنسية ، وفتيان وفتيات الفئة العليا لن يطلبوا مطلقاً مشورة (الدكتور فولمر) . إن مقالاً عن الحياة العائلية لروي بلاك ، وروح الأخوة الصادقة والرفاقية الحميمة التي يغدقها روي على شقيقه يقرأه فتيان وفتيات الفئة العليـــا بدرجة إدراك للمطابقة تختلف عن تلك التي يقرأه بها فتيان الفئات الدنيا .

مجلات مصورة	موجهة بصورة عامة الى	المثل الأعلى الاجتماع المقترح
إيلترن	النساء الشابات المتزوجات المنتميات إلى الفئـــات الوسطى ، واللواتي ليست لهـــن مطامح كبرى ،	بعض أمثلة النجاح الهائل، تختار من نفس هذه الفئة ، ولكن دائماً على المستوى الاقتصادي الأعلى ، طفولة رجل سياسية حقق النجاح ، ورجال عظام آخرين.
تو ين	للراشدين الفتيان العازبين المنتمين إلى الفئـــات الوسطى ، والذين تحدوهم مطامح الارتقاء والصعود الاجتماعي والاقتصاديين وينتمون لاحقـــاً إلى النخبة .	بعض أمثلة النجاح وكثيراً ما تكون ساحرة من بعض وجوهها غير التقليدية ، غير الامتثالية ، تختار من نفس هذه الفئة ، أو من الفئة التي فوقها تمامـــاً ، (مهندس معماري ، متعهـــد مبيعـــات ، نجم أو نجمة سينمائيان ، هيبيو يوم الأحد)

برافو	إلى الفتيان والفتيات من والفئات الدنيا الوسطى-الدنيا	مغنو الخنافس، نجوم السينما، لكن الذين لديهم بصورة خاصة ميول حميمة نحو الفئات الدنيا : روي بلاك ، بيار برياس ، الخ.
داز نوي بلات	قبل كل شيء للزوجين القانعين والمنعزلين ، المنتمين الى الفئات الدنيا	أعضاء السلالات الملكية وعائلاتهم .
مور زو	ليس الى أية فئة بصورة محددة .	نجوم السينما جميعاً .

هذه المقابلة بين المثل الأعلى الاجتماعي وغرض التكييف ، تبين لنا جيداً ، على الصعيد التجريبي ، انه مـــع ازدياد القمع الاقتصادي والاجتماعي ، يزداد كذلك الانفصام بـــين الحاجات الواقعية والحاجات الظاهرية ، بين الحاجات الفعلية ، والحاجات الممكن تلبيتها . ولا ترى الفئة الدنيا حياتها هي ذاتها إلا عبر صورة كبار المحظوظين أو الأبطال المصاميين ، أو ذلك الذي ربح الجائزة الكبرى في اليانصيب أو ذلك الرجل الماهر جداً ، رال ، وهو خادم أحـــد مجالس إدارة شركة ، الذي كان يحب حباً عظيماً زوجته التي كان مقضياً عليها بالموت فظل طوال أعوام يجهد حتى صنع لها بوسائله البدائية كلية اصطناعية ، أملاً في انقاذ الزوجة المعبودة [1]. وليس نادراً أن عدداً واحداً من مجلة « داز

(١) في مجلة « داز نوي بلات » عدد ١٦ - ١٢ - ١٩٦٧ ، ص ١٧ - طبعاً ان قضية زيادة الاستهلاك تشغل مكاناً ممتازاً في هذا الشكل من التكييف الطبقي . ان قراء هذه المجلة ينقسمون بصورة رئيسيه الى فئتين « اولئك الذين يهدفون الى الصعود الاجتماعي ، والمنعزلين ، المنطوين على أنفسهم » والفئتان ليس لديهما « وعي واضح تماماً لانتمائهما الى فئة ما ، بمعنى الطبقة الاجتماعية . (انظر في «داز نوي بلات» نتائج أحد التحقيقات البسيكولوجية، الذي أجراه=

نوي بلات » يروي قصص الحيــاة الحميمة لثلاث أسر مالكة أوروبية ، وفي القصص الثلاث ، تصف المجلة المصورة السلوك المحبوب جـداً ، والمفعم بالرعاية والاحترام الذي يسلكه الأمير الشاب إزاء الملكة – الأم – أي السلوك الذي يصبح نادراً أكثر فأكثر إزاء الأشخاص المسنين في مجتمعنا، وبخاصة إزاء مسنّي الفئات الدنيا . إن لنجوم السينما ، والأمراء والأميرات المتزوجين ، والأباطرة والأبطال الرياضيين نفس الوظيفة التي كانت لأنصاف الآلهـة في الميتولوجيا : إنهم بشر متفوقون على نحو لا يستطيع أن يكونه أي بشري ، إنهم يجب أن يكونوا قدوات ونماذج ، ولسلوكهم طابع قيمي . لكنهم ليسوا من هذا العالم ، ولا يمكن أن نعيش إلا بصورة مصغرة بالنسبة لما يفعلونه هم ، على نطاق كبير ، ولا مجال للتجاسر على منازلتهم في حياة الواقع ، ومهمة التكييف التضليلي هي تحقيق توازن للتطابق مع أنصاف الآلهة هؤلاء على مستوى خيالي « غـير حقيقي » ، أي على مستوى يحول دائمـاً الخاضعين لعملية التكييف التضليلي دون أن يعترفوا قائلين : إنها أشياء تافهة تلك التي يقومون بها . أو : إنني لن أتوصل أبداً إلى تحقيق مثـــل ذلك ، فنحن لا نعيش في نفس الشروط ، أو يقولون : لأجل الحصول على هذا النمط من الحياة العائلية ، يجب أن يكون لدينا مال كثير . وعملية تحقيق توازن في التطابق ، هـــذه ، تنطبق بصورة رئيسية على الفئات أو الجماعات التي يجري تكييفهم تضليلياً بواسطة مثـــل اجتماعية مختارة من فئاتهم الاجتماعية هم أنفسهم ، أو من فئة اجتماعيـة يمكن الوصول إليها ظاهرياً [1] .

= كرنيتست، فرانكفورت ١٩٦٢ ص ٨ وما يليها) ويردف التحقيق قائلاً: «ان حسها السليم يجعلها يبحثان عن العروض الأكثر فائدة وملاءمة من العروض الرخيصة ... وحين يكتشف مخزن يبيع بأسعار ملائمة بصورة خاصة ، فلا يكون ذلك توفيراً فقط ، بل ان هذا الاكتشاف يحس به علامة على ذلك بصفته انتصاراً شخصياً (ص ١٥) » . وتكشف داز نوي بلات عن هذه المعلومات الطريفة الهامة وفي الوقت نفسه تتيح لقرائها امكانية التغلب على المخـــاوف التي يوحيها اليهم بها عدم استقرارهم الاجتماعي .

٤) ان عملية التكيف الخاصة بكل فئة اجتماعية توجد « عمليـة مساواة اجتماعية » لكنها عملية تكييفية تضليلية داخـــل البنى الاجتماعية ذاتها . والثمن الذي ينبغي أن يدفعه الشخص لاجل (عملية المساواة) هـــذه هي التداخل الدائم لابداعات تكييفية تضليلية من الحاجات (نشر المتعة الجنسية ظاهرياً) مع اشباعها الوهمي .

ويجري في الوقت نفسه عزل الأفراد بعضهم عـن البعض الآخر ، وتمثيلهم بعضهم ببعض . ان (عملية تعميم) اشباع الرغبة الجنسية وتلبية حاجات أخرى له باديء بدء تأثير ديمقراطي – مزيف قوي جداً . ويعرف هو رخيم وأدورنو تقدم صناعة الانتاج الثقافي على النحو التالي : (ان الخطوة التي تقود من الهاتف إلى الراديو قد فصلت بوضوح دور كل شخص . ان الهاتف ، بصفته ليبرالياً ، كان يترك المخابر ايضاً يلعب دور الذات . والراديو ، بصفته ديمقراطياً ، يجعل من الجميع دون تمييز مستمعين ، وهو ، أي الراديو ، بصفته تحكمياً متسلطاً ، يخضع الجميع للبرامج ومراكز البث المتماثلة كلها دون استثناء[1]) . « الجميع » لديهم سيارات ، وملابس الرخاء والرفاهية (وهي كلمة تذكرنا كثيراً بالقيمة الاستعمالية الملابس ، بحيث تستبدل هذه الكلمة بسواها فيقال ملابس بسطاء الناس ، والجميع لديهم كذلك نقود للانفاق (نقود لمصروف الجيب) . وينبغي

---

(١) لقد أوضح تماماً هور خيمر وأدورنو هذا المبدأ للتكييف التضليلي المميز تبعاً للفئات الاجتماعية وذلك في كتابهما Dialektik der Aufklarung أمستردام ، ١٩٤٧ : « إن عمليات تحقيق التمايز المفعمة بالعواطف الحماسية الخطابية ، كما نجد في أفلام سلسلتي «أ» و «ب» أو عمليات التمايز في قصص المجلات المصورة على اختلاف مستويات أسعارها ، لا تنتج عن المادة نفسها ، بمقدار ما هي تهدف الى تصنيف وتنظيم المستهلكين ، والسيطرة عليهم ، وقد أعد شيء ما لكل فئة ، بحيث لا يفلت أحد من عملية التكييف ، والفوارق بين الطبقات يجري ترسيخها ونشرها » (ص ٣٤٧) »

(١) هورخيم وأدورنو – المرجع المذكور ، ص ١٤٦ .

حقاً تفحص بـذلة ما عن كثب جداً – وكثيراً ما لا يكون قادراً على ذلـك سوى الاختصاصيين وعابدي الموضة عبادة وثنية – لأجل التأكيد مما إذا كانت هذه البذلة واردة من «المخازن الرجالية» على الطراز الايطالي – الأميركي (بسعر ٣٥٠ ماركاً) أم من مخزن كبير (١٨٠ ماركا) أم من حانوت تقليدي للرجال (٦٠٠ مارك).

وتجرد الأشياء التبادلية، على حد سواء في ميدان السلع أم في دائرة الحياة الجنسية، من طابعها النوعي بصفتها مشبعة لرغبة ما. إن عدم إشباع الرغبة «موجود فعلاً». لكنه لا يحس به بوعي لا بصفته عدم إشباع رغبة ناتجاً عن استحالة الحصول على غرض معين، ولا بصفته عدم تلبية الرغبة الذي يعطيه الشيء المتوفر، الممكن الحصول عليه؛ وبالعكس، فإن عدم تلبية الرغبة هذا يموه بمنظومة ظاهرية وواقعية في الوقت نفسه من حالات مزعومة لتلبية رغبة، تارة بعملية استهلاك متزايدة الاشتداد باستمرار، وطوراً بأغراض جنسية لا يمكن الحصول عليها، في خاتمة المطاف. إن عملية توسيع تلبية الرغبة، الممكنة ظاهرياً بحاجات مزيفة تجري مضاعفتها إلى ما لا نهاية له، توجد – أي عملية التوسيع – الصلة الوثيقة، الحيوية في مجتمعنا، بين عمليات الإرغام المتعلقـة بالمردود (اتجاه نحو تلبية الرغبة، متزايد باستمرار) ونتيجته، وهي مصير الكبت والحرمان المميز للشخص المنحرف، المتهتك، سجين اللذة التمهيدية[1]، والمدفوع بذلك ذاته إلى تحقيق مكاسب وانتصارات، على الدوام. وعن طريق إقامة تداخل، يعطى صفة المؤسسة، بين حالات دائمة من عدم إشباع الرغبات، وحالات مزيفة من إشباع الرغبات، يحـال دون يقظة الوعي. أو بالأصح تجعل يقظة الوعي هذه أصعب بصورة متزايدة باستمرار في ميداني الإنتـاج والاستهلاك، يقظة الوعي هذه التي كان يستطيع في المجتمعات الطبقية التقليدية

(١) راجع في هذا الصدد الفصل الرابع من كتابنا هذا، وهو بعنوان «اختيار الغرض النرجسي، والحب، والنمط، واللذة التمهيدية الدائمة».

أن يبلغهـــا بصورة سهلة نسبياً ، جميع أولئك الذين كان ينزع منهم التصرف بوسائل الانتاج ؛ إنها يقظـة الوعي بأنه لأجل إشباع الرغبة ، يجب مصادرة إشباع الرغبة هذا من شخص ما (أي من ذلك الذى استملكه لذاته ، في الماضي: وهو الرأسمالي) . إن هذه المصادرة لا تحقق تغييراً كبيراً ؛ ذلك ما يبدو أنه يقوله العالق بقيود الحلقة المفرغة لعدم تلبية الرغبة ، وتلبية الرغبـة بصورة مزيفة ، لن يتم أبداً التوصل إلى إشباع الرغبة !

مع هذا النظام لتحقيق التساوي الظاهري والحقيقي في الاستهلاك ، بما في ذلك في دائرة الحياة الجنسية ، ومع الاحتفاظ باختلافات حقيقية في مستويات إشباع الرغبة ، يصبح من الصعب أكثر فأكثر الانتقال من النزاعات الاقتصادية والاجتماعية إلى النضال السياسي وبذلك إلى بدء صراع طبقي ، ولم يمكن بلوغ هذه النتيجة إلاّ بتقسيم الطبقات إلى ذرات ، والعزل ما بين الأفراد ، وذلك في آن واحد بواسطة عمليات الارغام المتعلقة بالمردود ، وطرائق تحقيق التكيف ، والتكييف التضليلي . بادىء بدء « يساوى » بين جميع الأفراد ، بحيث يصبحون غير قادرين على رؤية الفوارق الطبقيـــة ، وإثر ذلك يدخل هؤلاء الأفراد في مزاحمة بعضهم ضد البعض الآخر ، وكل منهم « سجين في فئته » ، لكي يحصل على الأقل على العلاقات الطيبة التي يعرضها عليهم نظـــام إشباع الرغبات ، المكيف تضليلاً .

ويحدث – لكي نتكلم بتعابير سياسية – انتقال للنزاعات الطبقيـــة نحو نزاعات أعطيت الطابع الفردي ، وقائمة على أساس المردود ، والمزاحمـــة ، والتكيف . لقد لاحظ أقصى اليسار منـــذ زمن طويل النزوع الى التمويه الايديولوجي للجبهات الطبقية في الرأسمالية المتأخرة زمنياً . لكن هذه النزعة ليست ، بأي حال من الأحوال ، فقط « تجسداً خارجياً » سياسياً ظاهريـــاً « للصراع بين الطبقات » [1] أي فقط إسقاطاً للنزاعات السياسية والاجتماعية

(١) انظر رايشي وغانغ « Vom antikapitalistischen Protest zur

على عدو خارجي (الشيوعية مثلاً) وتأثيره المرتد على الداخل ، وهو الادماج والاستيعاب السياسي . ومن شأن عملية الاستيعاب هـــذه أن تكون سهلة الاختراق بفعل تغيرات « السياسة الخارجية » . وبالعكس ، فإن هذا الأسقاط نحو الخارج يكمله انتقال للادراك الحسي للواقع الاجتماعي في الداخل . لقدجهدنا في أن نبرز ، في هذا الفصل ، بعض أسباب عملية الانتقال هذه . إن جميع هذه الأسباب تهدف الى جعل نظام الحياة الاجتماعية شيئاً غير مفهوم، غيرممكن فهمه ، وتصويره بصفته ثابتاً لا تغير له . وبالمماثلة ، في **وظيفتها الاقتصادية** ، فئات سكان البلدان الرأسمالية المتقدمة ، بعضها مع البعض الآخر ، مع فصلها في الوقت نفسه بعضها عن بعض بعمليات تمايز في الشروط **الاجتماعية** ، يجري إحداث اضطراب وتشوش في التكوين الجماعي للأنا لدى جميع أعضاء المجتمع؛ والقوى الطبيعية ألتي يمكن استخدامها في تشييد الحضارة ، تستخدم لتدمير هذه الحضارة . ان طبيعة السيطرة ذاتها ، تجد التعبير عنهـــا منزوع الصفة الشخصية ، تماماً ، في هذه المنظومة من عمليات الإرغام .

---

soziolist schen Politki»

في New Kritik العدد ١ ص ١٨ وما يليها

٤

الأخلاقية الجنسية للحضارة العصرية والتخطي القمعي للعُصابيّة الحديثة

لقد أثبت التحليل النفسي ، لأول مرة ، لدى دراسته أشخاصـــاً فاقدي التوازن جنسياً ونفسياً أن « غريزة الانسان الجنسية لا تهدف مطلقاً، في الأصل، الى غايات التناسل ، بل أن هدفها هو تحقيق أنماط محددة تماماً من بلوغ اللذة »[١] ان فرويد ، لدى معالجته أشخاصاً كانوا ، امّا عاجزين عن أن يحققوا بصورة كاملة العمل الجنسي مع الجنس الآخر ، واما أنهم كانوا يرفضون هذا النمط من تجسيد الغريزة الجنسية - سواء لأسباب خلقية (الامتناع ، التعفف) أو لصالح تجسدات أخرى معتبرة بمثابة منحرفة أو لواطية ـ سحاقية ـ والذين كانوا يتألمون من هذا العجز ، ولحالات الرفض هذه ، وهذه الانحرافات ، ان فرويد والحالة هذه كان مضطراً للبحث عن الأسباب الجنسية المحدّدة ، بصورة حاسمة ، لهذه المصائر . ولدى تفحصه الشخص (الجاري تحليله نفسياً) وتوجيه الاسئلة اليه ،

---

(١) Freud, Die « Kulturelle » Sexaulmoral und die moderne Nervosität, in Drei Abhan dlungen zur sexualtheorie, Fisher Bûcherei, no. 422, Francfort. 1961. p. 126 .

توصل فرويد إلى الاستنتاج بأن الغريزة الجنسية موجودة حقا منذ الطفولة ، لكنها في تلك الفترة ليست مركزة على الممارسة الجنسية مع شخص من الجنس الآخر ، بل هي بادىء بدء (**بدون غرض ، جنسية - غرامية - ذاتية**) . وهكذا يبدو أن الاثارة الجنسية لدى الطفل تنبثق من مصادر مختلفة : قبل كل شيء ، من المناطق المولدة للغريزة الجنسية والتي تحدث إشباعاً للرغبة الجنسية منذ تحريضها بطريقة خاصة . وحسب جميع الاحتمالات ، يمكن أن تقوم بوظيفة المناطق المولدة الرغبة الجنسية جميع مناطق البشرة ، وكل عضو من أعضاء الحواس . (وربما كل عضو أياً كان) ولكن توجد مناطق متميزة قابليتها للتهيج مضمونة ، منذ البدء بواسطة بعض الأجهزة العضوية . ومن جهة أخرى ، فإن التهيج الجنسي يحدث ، إذا صح التعبير ، بمثابة نتاج هامشي لعدد معين من عمليات التفاعل الداخلية ، شرط أن تكون هذه قد بلغت درجة معينة من الشدة ، وعلى الأخص حين يتعلق الأمر بانفعالات قوية ، حتى ولو كانت هذه ذات طابع مرهق . إن التحرضات الواردة من جميع هذه المصادر لا تكون قد تناسقت بعد في كل واحد ، لكن كلا منهما يتابع هدفاً منفصلاً لا يشكل سوى جني متعة معينة . ويقودنا هذا إلى التفكير بأن الغريزة الجنسية اثناء الطفولة **لا تكون ممركزة بعد** ، وأنها في البدء ، **بدون غرض** ، أي **جنسية ـ غرامية ـ ذاتية**[1] .

لكن النشاط الجنسي لا ينهج تطوراً عضوياً ، بل بالعكس تماماً ، فإن فإن المراتب والبيئات الانسانية المتمثلة للحضارة ، وبصورة خاصة أشخاص المحيط العائلي الذين يقيم الطفل معهم علاقات ، تعطي النشاط الجنسي اتجاهات وأشكال تعبير ، دقيقة تماماً . إن مرحلة حاسمة من هذا الاتجاه أو المجمعة لكنها ـ أي هذه المرحلة ـ ليست وحيدة مطلقاً ، هي النزاع الأوديبي ، الذي ينبغي

---

(١) فرويد - ثلاث دراسات في نظرية الحياة الجنسية ، مجموعه « أفكار » الفرنسية - منشورات دار غاليار - ١٩٦٢ ترجمه ريفوشوره - جوف ، ص ١٤٨ .

للطفل أن يتعلم خلاله : ١) التخلي عن جميع أغراض الجنس المماثل (توجيه الغريزة الجنسية) . ٢) أن يتخلى ، **مؤقتاً** ، عن أغراض من الجنس المقابل (نقل الغريزة الجنسية) ٣) أن يتخلى نهائيا عن الأب والأم بصفتهما غرضين جنسيين (حاجز الزنا) . هذه المكتسبات تضع أساس مجموعة كبيرة من القابليات الاجتماعية والفردية الهامة ، تعتبر أكثريتها لا غنى عنها مطلقاً في جميع المجتمعات المتميزة بأنماط انتاج واتصال وإشباع الحاجات متنوعة ومختلفة. إن تخطي عقدة أوديب بصورة مطابقة ، ملائمة ، أي بناءة بالنسبة لحضارة معينة ، يفترض سلسلة من القابليات المكتسبة سابقاً ، التي يرتكز أساسها بالضرورة على أشكال معينة من تجسيد واستيعاب غرائز جنسية جزئية أثناء المراحل السابقة (الفموية ، والشرجية ، والقضيبية) .

ومن اللغو والغموض المشوش القول إن الحياة الجنسية لدى الطفل تتوقف أو تتجمد ، لدى انتهاء عقدة أوديب . فالتوقف أو التجمد ليس سوى تعبير عن تخطٍ لعقدة أوديب ، التي كثيراً ما تنتج عن حالات شاذة حدثت لدى الانتقال من مرحلة إلى اخرى من مراحل النمو والتطور الجنسيين ، ولكن تكون له دائماً بمثابة نتيجة أنماط مرضية للتنظيم الجنسي الطبيعي اللاحق ، لدى المراهق والراشد ، ومن الخطأ أيضاً أن لا نرى في عقدة أوديب ـ كما كانت الحال في مراحل التطور الجنسي التي تسبقها ، وتلك التي تعقبها ـ سوى عملية تطور نفسية جنسية . وبالعكس ، بالنسبة لجميع المراحل البيولوجية للتطور الجنسي ، فإن قدرات يسمى مجموعها (اندراج أو اندماج أو استيعاب **الأنا**) مرتبطة بعملية التطور هذه . وهكذا فإنه يطابق تخطي المرحلة الفموية ، فترة تدرج القدرة **الادراكية** للفرق بين « أنا » و « أنت » والبدايات الأولى للسيطرة **الفيزيولوجية** على الذات ، والمهارة الفيزيولوجية ، واستيعاب نشاط عضلي كان حتى ذلك الحين غير منسق ، أساسياً . وفي المراحل : الفموية ، والقضيبية ، والأوديبية ، يستمر التطور بصورة شبه منهجية ومنتظمة القدرات الادراكية

والفيزيولوجية المطابقة للتطور الجنسي . لقد جرت معالجة عملية التطور هذه لأول مرة في نموذج سوسيولوجي للمجمعة من قبل تالكوت بارسونز[1] ، إلا أن بارسونز ينكر الاستقلالية الذاتية للرغبات البيولوجية - الليبدية (الشهوانية الشبقة) (الغرائز الجنسية الجزئية والمناطق المولدة للشهوة الجنسية) ؛ لذلك فإن نموذجه السوسيولوجي يعني تكيفاً تاماً للفرد مع المعايير الاجتماعية القائمة . لكن نموذجه إلى جانب ذلك يحتوي على أفضلية لا غنى عنها أبداً ، وهي ربط مجموعة الأفكار والتحليلات التحليلية - النفسية حول تطور الطفولة المبكرة ، بتفسير سوسيولوجي منهجي . ولكن ينبغي هنا الاحتراس من الخطأ الذي لم يقع فيه بارسونز وحده ، وإنما أيضاً علماء اجتماع آخرون ذوو عقل انتقادي ؛ وهذا الخطأ يقوم في انكار التعين الحتمي البيولوجي الأساسي لمراحل الطفولة الأولى،هذه ، الجنسية حسب رأيفرويد . ولم يترك فرويد أبداً حالاتالتباس أو غموض حول الحقيقة البيولوجية لهذه المراحل وقد دعمت الأبحاث التجريبية اللاحقة دعماً كاملاً هذه الآراء[2] . وهي ليست ، البتة « رموزاً معممة »[3] ، بل هي الأساس الحقيقيلكلتطور ثقافي أو جنسي أو طباعي caractériel .

إن انتاج الطاقة الجنسية ، تبعاً لوجهة النظر هذه ، لا تتوقف مطلقاً ، خلال الفترة المسماة فترة الكمون ، والتي تبدأ مع انتهاء عقدة أوديب وتستمر

---

(١) تالكوت بارسونز : « البنية الاجتماعية،والشخصية » نيويورك ، ١٩٦٤ ، وعلى الأخص في فصل « البنية الاجتماعية وتطور الشخصية ــ اسهام فرويد في نظرية الاندماج والاندراج والاستيعاب الاجتماعية في علم النفس وعلم الاجتماع » .

(٢) وبخاصة ابحاث رينيه أ . سبيتز Die Entstehung der ersten Objekt-beziehungen, stuttgart 1960 , et : Nein und ja. Die urprugne der menschlichen kommunikation. stuttgart. s. d (ملحق لمجلة بسيشيه) .

(٣) انظر مقولة « علم الاجتماع » عند بارسونز ؛ المرجع المذكور .

حتى بلوغ النضج الجنسي ، بل إن انتاج الطاقة الجنسية يحول نحو أغراض تختلف عن الأغراض الجنسية .

« خلال هذه الفترة ، كما قلنا ، لا ينقطع انتاج التحرض الجنسي ؛ إنه يستمر ويقدم احتياطياً من الطاقة هو ، بمقدار كبير ، محول نحو أغراض غير الأغراض الجنسية ؛ أي أن ذلك الانتاج يسهم في تكوين المشاعر الاجتماعية ، ومن جهة أخرى ، بواسطة الكبت والتكونات الردود - فعلية ، ينشيء حواجز جنسية ستقوم بدورها فيما بعد ، والاستنتاج الذي كان يبدو أنه يفرض نفسه هو أن هذه القوى المكرسة للحفاظ على الغريزة الجنسية في اتجاهات معينة ، تتطور أثناء الطفولة على حساب الحركات الجنسية التي لها ، في أغلبها ، طابع انحرافي ، في الوقت نفسه مع تكونها - أي تلك القوى - بمساندة التربية ، إن شطراً من حركات الطفل الجنسية ، المفلت - أي هذا الشرط - من التطور يمكن أن يتجسد خارجياً في نشاط جنسي »[1] .

أثناء النضوج الجنسي ، ستصبح الغريزة الجنسية مركزة نهائياً على أغراض جنسية من الجنس الآخر . ويعني فرويد ، بمثابة التحولين الأساسيين المرتبطين بالنضوج الجنسي . « تبعية جميع التهيجات الجنسية ، كائناً ما كان منشأها ، لأولوية المناطق التناسلية ؛ وإثر ذلك ، العملية التي يعثر بواسطتها على الغرض ، هاتان الظاهرتان ماثلتان مسبقاً منذ الطفولة ، في صورة أولية طبعاً : وتتحقق تبعية التهيجات الجنسية بآلية تستخدم اللذة التمهيدية الأولية بحيث أن الأعمال الجنسية ، التي كانت حتى ذلك الحين مستقلة بعضها عن البعض الآخر ، تصبح أعمالاً تحضيرية للعمل الجنسي الجديد - إفراز المواد التناسلية - الذي تبلغ فيه اللذة نقطة الأوج وينتهي الهياج الجنسي .. وأخيراً ، فقد لاحظنا أن اختيار الغرض

---

(١) فرويد - ثلاث دراسات .. المرجع المذكور - ص ١٤٧ - ١٤٨ .

كان معيناً بخطوط أولية مرسومة منذ الطفولة ، تستعاد لدى بلوغ مرحلة النضوج ، أي عواطف الطفل نحو أبيه وأشخاص محيطه ؛ ومن جهة أخرى ، فإن الاختيار ، يتحول ، بسبب الحاضر الذي يكون قد أقيم في تلك الأثناء بوجه ممارسة العلاقة الجنسية مع أحد الأبوين ، يتحول عن هذين وينتقل نحو أشخاص آخرين يشبهونهما . ويجب أن يضيف أيضاً ، في الختام أن عمليات التطور الجسدية والنفسية ، أثناء فترة النضوج الانتقالية، تجري باديء بدء دونما صلة بينها ، حتى اللحظة التي تتحقق فيها أخيراً الوحدة المميزة لحياة الحب الغرامية الطبيعية ، بعد أن تتدفق بزخم شديد حركة عشق جنسي شديدة جداً ذات طابع نفساني ، تنعكس على توتر الأجزاء التناسلية .

كل مرحلة من مراحل هذا التطور الطويل يمكن أن تصبح نقطة ثبات وتثبيت ، وكل عملية تجمع لهذا الامتزاج المعقد يمكن أن تتيح المجال لانفصام الغريزة الجنسية ، كما أثبت لنا ذلك فعلاً عدة أمثلة »[1] .

هناك نقطتان تتعلقان بهذا التطور تستحقان تأكيداً خاصاً عليهما .

١) إن الغرائز الجنسية الجزئية لا يجري نبذها ، على مستوى الممارسة الجنسية التناسلية ، المتطورة بصورة مكتملة ، لكنها تكون فقط « متبعة » لعملية الإنسال والممارسة المؤدية إليه . وحتى تعبير « **تبعية** » أو « **خضوع** » يشدد أكثر من اللازم على الدور القمعي **للاندراج والاندماج** في حياة المجتمع واستيعاب ممارسة علاقاته ، هذا الاندماج الذي تسعى اليه الغرائز الجنسية الجزئية أثناء النمو والتطور الجنسيين . ومؤكد أنه يمكن تصور أشكال غير قمعية لادراج الغرائز الجنسية الجزئية في ممارسة جنسية تناسلية كاملة وقادرة على تحقيق اللذة . ويطابق الحياة الجنسية التناسلية طابع « تناسلي » قادر على

(١) فرويد « ثلاث دراسات .. » . المرجع المذكور ، ص ١٥٢ — ١٥٣ .

النشاط والانضباط ، وكذلك على التخلي والعفوية، وذلك بفضل سيطرة وبراعة الغرائز الجنسية ، وبفضل تقبلها ، وقدرتها على التحقق واللذة . ان الأشكال النوعية التي تتيحها هذه المزايا ، أو اضمحلال واحد من هذه العناصر التكميلية ، تظهر بمثابة بنية الطبع الخاص بشخص وبمثابة خضوع قوي إلى هذه الدرجة أم تلك ، لمبدأ الواقع الساري المفعول (التكيف) وبصفتها الفرار أمامه أو التنفيذ القسري لمتطلبات مبدأ الواقع (داء العصاب Nevrose) وإما بمثابة مجابهة انتقادية مع مبدأ الواقع الساري المفعول (القدرة على السيطرة على الواقع). إن الطبائع التي تتبع بصورة قسرية ومتصلبة المعايير الجنسية التناسلية لمجتمع ما ، لا سيما مجتمعنا ، ليست ، إلزاميـــاً ، طبائع تناسلية . ويمكن أن يتيح سلوكها الاجتماعي والجنسي أنها لم تبلغ أبداً بنية تناسلية كلية . وهذه الطبائع ، الضعيفة جـــداً ، في الوقت نفسه ، لكي تتقيد بالمعايير الاجتماعية وكذلك لكي تناهضها ، فإنها تضطر لأن تحظر بصورة قسرية كل تجل أو تجسد خارجي لغرائزها الجنسية الجزئية غير المندرجة ، ولهـــذا السبب ، تفرض على نفسها سلوكاً ذا مظهر جنسي تناسلي ، غير فعـــلي ، والتعريف الذي أعطيه للطبع المطابق لهذا السلوك هو أنه « واجهة جنسية تناسلية » .

٣) « إن كل مرحلة من هذا التطور الطويل يمكن [...] أن تصبح فرصة لانفصام الغريزة الجنسية . » وإثر ذلك سوف نعالج مختلف حالات الانفصام الخاصة بالتمدن ، وذلك لكي نحدد ، انطلاقاً من مقابلة عملية نشوئها الاجتماعي والشخصية مع مبدأ الواقع الساري المفعول ، النمط الجنسي السائد اليوم ، أي طابع التنفيذ القسري للمعايير الجنسية التناسلية الفاقدة للأساس النفسي والجنسي التناسلي ، والتي نسميها طابع الواجهة الجنسية التناسلية .

قام فرويد بتقسيم حالات انفصام الغريزة الجنسية إلى « نوعين من الانحراف غير السليمة ، غير الصحية ، بالنسبة للحيـــاة الجنسية الطبيعية ، أي المولدة

للحضارة ، التي تتعارض تقريبا تعارض الايجابي والسلبي [1] ، وذلك تبعـــاً إلى ١) نقطة الثبات والتثبت حيث بدأ النمو يصبح مرَضياً ٢) درجـــة الانفصام و ٣) الشكل الذي اتخذه الانفصام. هذان الانحرافان هما ، من جهة ، أمراض العُصاب ، (إن الأمراض الذهانية - نسبة إلى ذُهان Psychose - كانت ومـــا تزال على نطاق واسع عسيرة التناول بالنسبة إلى التحليل النفسي وذلك بسبب القواعد البنيوية لطريقته - ومن جهة اخرى ، **الانحرافات الشاذة** (حيث عرقلت عملية تثبيت طفولية على غرض جنسي مؤقت أولوية وظيفة التناسل) وأخيراً الميل الى ، **وممارسة العلاقات الجنسية مع أفراد من نفس الجنس** (اللواط - السحاق) (« حيث الغرض الجنسي تحول عـــن الجنس المقابل ») المختلفان (أي اللواط والسحاق) عن الغرض الجنسي والجنس المقابل ، من حيث تركيبهما ذاته . إن الأكثرية الساحقـــة من المنحرفـــين والعصابيين ليسوا منحرفين أو عصابيين إلا بالنسبة للحضارة والتمدن ، اللذين لا يريدون أو لا يستطيعون تلبية متطلباتها . مؤكد أن العُصابيين قد قمعوا (أو كبتوا) جميع تجسدات الغريزة الجنسية ، اللامشروعة من وجهة نظر التمدن والحضارة ، وفي كثير من الأحيان قمعوا حتى التجسدات المشروعة ؛ لكن الكبت ليس هو الإلغاء ؛ وما يجري كبته ، يعود في شكل غير جنسي ظاهرياً ، لكنه مغتذٍ بالنشاط الجنسي المكبوت . **والمنحرفون** هم ، ذاتياً ، في وضع أكثر ملاءمة ، في البدء : لقد قمعوا قليلاً جداً من مكونات الغريزة الجنسية (البدائية) الى المظاهر الانحرافية المختلفة Polymorpho-Perverse ولم يتوصلوا أبداً ، لهذا السبب ، إلى تنظيم كامـــل للغريزة الجنسية ، إذن إلى شكلها التناسلي وما يطابقه من تثبيت العلاقة مع الجنس الآخر ، هذا التثبيت الموجه نحو العمل الجنسي . وإما أيضاً انهم - أي المنحرفون - ارتدوا ، بعـد بدئهم علاقات جنسية طبيعية مع أشخاص من الجنس الآخر ، ارتدوا إلى مرحلة

---

(١) Freud - Die (kulturelle) Sexualmoral p 127. o. c.

من السلوك الجنسي الطفولي بصورة ظاهرة ؛ ومن وجهة نظر اقتصار الغرائز الجنسية ، فإن الارتداد يوصف انطلاقاً من نقطة التثبت، حيث تجمد التطور، بمثابة انفصام للغريزة الجنسية .

وليس جميع المنحرفين يتخلون ، بشكل مطلق ، وبدرجات متساوية ، عن « ذروة اللذة النهائية » والتحرير الانتماظي لتوتر اللذة ، بواسطة بلوغ ذروة الشهوة ، التناسلية . لكن إحداث ذروة الشهوة والعملية الجنسية ، بالنسبة إلى المنحرفين ، إما أنه يقوم بدور ثانوي ، ملحق بسواه ، وإما أن بلوغ ذروة اللذة الجنسية يحدث فقط بممارسات طفولية من المتعة التمهيدية ، منفصلة كلياً عن اللذة الجنسية النهائية . ويوجز فرويد على هذا النحو الفوارق والعلاقات بين العُصاب والانحراف الجنسي ، يقول :

« في حالة قيام رغبة جنسية شديدة كفاية ، ولكن منحرفة، هناك مخرجان ممكنان . الأوّل ، وليس من المفيد تفحصه قبل دراسة الثاني، هو أن الأشخاص المعنيين يظلون منحرفين جنسياً ويكون عليهم أن يتحملوا نتائج انحرافهم بالنسبة لمعايير التمدن . والحالة الثانية — وهي أهم من الأولى بكثير — هي التالية : إنه يتم الحصول ولا شك ، بتأثير التربية والمتطلبات الاجتماعية ، على قمع للرغبات الجنسية المنحرفة ، لكن هذا القمع ليس كذلك، بل يمكن تعريفه، في أفضل حال ، بصفته إخفاقاً لعملية القمع . إن الرغبات الجنسية المكبوحة، لا تتجلى حينئذ بصفتها كذلك — وهنا يكمن النجاح — بل تتجسد بكيفيات مختلفة ، من شأنها أن تلحق نفس الضرر بالشخص ، وتجعله عديم النفع بالنسبة للمجتمع ، كما لو كان قد عمد إلى الإشباع المباشر لهذه الرغبات المقموعة : وهنا يكمن إخفاق عملية التطور ، التي تتغلب بمرور الوقت على النجاح . وظاهرات التعويض التي تظهر حينئذ نتيجة لقمع الرغبات الجنسية ، تكون نتيجتها ما نسميه ، نرفزة عصبية ، وبتعبير أصح ، عُصاباً نفسياً . العصابيون هم هذه الفئة من الأشخاص ، الذين يتوصلون ، تحت تأثير متطلبات التمدن ، رغم أن

جهازهم النفسي يعارض ذلك ، الى قمع لرغباتهم الجنسية ، وهو قمع ظاهري فقط ومآله الاخفاق دائماً ؛ وهم لهذا السبب لا يبقون على تعاونهم مع منجزات التمدن إلاّ بواسطة انفاق كبير للطاقة وافتقار داخلي ، أم أنهم يضطرون للانسحاب مؤقتاً ، وهم مرضى . لقد قمت بتعريف الأمراض العصابية بصفتها « الصورة السلبية » للانحرافات الجنسية ، وذلك لأن الحركات الانحرافية تتجسد في هذه الحالة بعد الكبت في اللاوعي النفسي ، لأنها تحتوي على نفس الميول ، ولكن مكبوتة ، التي لدى الانحرافيين « الايجابيين »[1] .

كان فرويد يفترض أن ثمة بالنسبة لكافة المنظمات الاجتماعية علاقة تناسبية بين مستوى تطور الحضارة (درجة التمايز الاجتماعي ، المنجزات الثقافية والانتاجية) ودرجة قمع الرغبات الجنسية ، هذا القمع الذي يحتاج أليه هذا المجتمع لأجل الحفاظ على مكتسباته . وفرويد ، بهذه الآراء لم يقف لا الى جانب « الحضارة » ولا الى جانب « الرغبة الجنسية » ؛ بل فقط هو يصف علاقاتها التناحرية ويعود من ذلك دائماً الى الاستنتاج بأنه كثيراً ما ينبغي أن يدفع ، لأجل الحفاظ على الحضارة ، ثمن ليس مرتفعاً جداً ، من القمع والمرض . وهو لا يقيم تفاوت الثمن ، هذا ، انطلاقاً من القيم الاخلاقية المطروحة خارج ميدان التحليل النفسي ، بل يفعل ذلك تبعاً لنفس معيار ميزان – حضارة / رغبة جنسية : إن العصابيين لا يستطيعون « الإبقاء على اشتراكهم في بناء الحضارة الاّ لقاء انفاق كبير للطاقة ، أو يضطرون للانسحاب مؤقتاً من حياة المجتمع ، وهم مرضى » .

« وإنما أود استلفات الانتباه نحو النقطة التالية : إن داء العُصاب ، حيثما يسود ، ولدى أي شخص كان ، يستطيع أن يُحبِط أي هدف حضاري ، ويقوم بذلك بعمل القوى النفسية المقموعة والمعادية للحضارة . وهكذا ، فإن

---

(١) Freud, Die« Kulturelle » sexual moral L. c. p. 128

ما ينبغي للمجتمع أن يسجله ، اليس هو ربحاً أحرز لقاء تضحيات ، لأنه ليس ربحاً ، إطلاقاً، بما أن المجتمع يدفع ثمن الطاعة إزاء أوامره وتعليماته الأخطبوطية تزايداً في حالة التوتر العصبي)[1] . لقد وضع فرويد ، في دراسته « **الاخلاقية الجنسية للحضارة العصرية والعصابية الحديثة** »، بالاستناد الى التاريخ الفردي للنمو والتطور الجنسيين ، مخططاً أولياً لتطور الحضارات ، وذلك لدعم رأيه ، القائل .أن تطوراً متزايداً للحضارات ، يرافقه تزايد في قمع الرغبة الجنسية في هذه الحضارات . إن آخر المراحل التي وصفها فرويد تطابق بذلك ، لأول وهلة ، الدرجة العليا ا « الوظيفة القمعية للحياة الجنسية » .

« بالنسبة لتاريخ تطور الرغبة الجنسية ، يمكن إذن أن نتميز ثلاث مراحل في الحضارة : مرحلة أولى ، حيث نشاط الشهوة الجنسية حر ، حتى عبر أغراض التناسل ؛ ومرحلة ثانية ، حيث يحظر كل ما يخص الرغبة الجنسية ، باستثناء ما يخدم التناسل ؛ ومرحلة ثالثة ، حيث التناسل الشرعي مسموح به بصفته غرضاً جنسياً ، ان الخلقية الجنسية لحضارتنا تطابق هذه المرحلة الثالثة »[2].

هذا المخطط الأولي يناقض جميع نتائج البحث الإناسي (الانتروبولوجي) ، الذي كان يمكن أن ينشأ ابتداء منه تاريخ للتطور الجنسي في علاقاته بالحضارة ، بل إنه يناقض حتى الاكتشافات الانتروبولوجية التي يستند اليها فرويد[3] . والواقع أن فرويد يعمد ، في هذا المخطط الأولي إلى مماثلة ضمنيــة بين الحضارة **والحضارة الجنسية التناسلية** ، التي من المؤكد أن يمكن أن يكون فيها النشاط الجنسي حراً ، شأنه في « المرحلة الأولى » ، وذلك عبر أغراض التناسل، ولكن حيث جرى ، مبدئياً ، تحقيق السياق أو الإطار النفسي ـ الاجتماعي للتناسلية

---

(١) فرويد ،المرجع ذاته ص١٣٨

(٢) Freud . Die «Kulturelte » Sexualmoral

(٣)المرجع المذكور ـ ص ١٢٦

الفيزيولوجية ، وبالمقابل ، فإن المقارنة ، التي قام بها فرويد ، عَرَضاً ، بين ما هو « فموي » و « آكل للحوم البشر » يجب أن يؤخذ فعلاً مأخذ الجد ، بالمعنى الذي يطابق فيه طبعاً فردياً محدّداً بدقة (فموياً)وشكل تنظيم اجتماعي محدد بدقة أيضاً (بدائي ، سكوني ، آكل للحوم البشر ، الخ).وحسب هذا المفهوم، فإن الممارسة الجنسية التناسلية لن تكون حينئذ ، فقط ، صفة خاصة بشخص معين ، كائنة ما كانت مرحلة الحضارة ومستواهـا الاجتماعي ـ الاقتصادي . وبالعكس فإن الطباع الجنسية ـ التناسلية لا يمكن أن تتكون إلاّ في اقتصاد بلغ درجة مرتفعة نسبياً من تمايز أنماط الانتاج ، وفي تنظيم اجتماعي مطابق لها، حيث المتطلبات الموجهة إلى وظيفة أنا الفرد هي كذلك جد مرتفعة . وفي هذا السياق سيدرج بين وظائف أنا الفرد : الفهم الواعي لعمليات التطور الاجتماعية والتقنية ، والقدرة على التفكير والرقابة والتوجـه والانضباط ، الاجتماعية ، ومعايير المردود ، وقدرة السيطرة على الرغبات الجنسية ، والتصعيد .

وتزداد دهشتنا إزاء هذا السهو الذي نجده لدى فرويد حين نعلم أنـــه هو نفسه قد لاحظ مراراً أن الفرد ، خلال تطوره الكياني عليه أن يلحق بوتيرة معجلة بمجمل العمل الذي حققته الحضارة قبله (أي عملية نشوء الحب الجنسي) باستثناء الشطر الذي يحتمل أن يكون قد أمكن نقله بواسطـة التراث خلال تاريخ الحضارات . ومن هذا الاستثناء،كان ينبغي للثاني أن يترتب عليه بصورة بديهية ، وهو أن المراحـــل الماقبل الجنسية التناسلية للتطور الجنسي الفردي تطابقها مراحل ، سابقة للجنسية التناسلية للتطور الجنسي « الجمـاعي » (بفتح الجيم) ، أي تطور تاريخ الحضارات — وهي مراحـــل جرى ، بمرور الزمن ، امتصاصها وتحويلها خلال التاريخ . والواقع ، أن الرغبة الجنسية في المرحلتين الأولين من « مراحل الحضارة » ، إذا كانتا تعودان إلى مجتمعات مـا قبل — بورجوازية ، ليست — أي الرغبـــة الجنسية — حرة خارج أغراض التناسل المشروع ، إلاّ أن الأولوية التناسلية لم تكن قد قامت بعـــد ، والوعي الحر

المطابق لها لم يكن قد فرض نفسه ، بعد ، إجتماعياً . فإن لم يكن فرويد قادراً على تميز ذلك ، فلأنه ، قبـــل كل شيء ، كان سجيناً بصورة كلية ضمن إطار الثقافة البورجوازية ولم يكن باستطاعته أن يفكر جميع نماذجه التاريخية ـ حتى نموذج ما قبل التاريخ ـ عملية قتل الوالد ـ إلا داخـــل مقولات الحضارة البورجوازية .

إن « العصابية العصرية » هي عرض الداء الجماعي للعصر ، هذا الداء الذي قام فرويد بوصفه وتحليله ، وبالضبط « مرحلته الثالثة من مراحـل الحضارة » . وخلال هذه المرحلة يعاني عدد كبير من الأشخاص كثيراً ، من الاخلاقية الجنسية المفروضة عليهم ، بحيث تصبح مهددة الغايات النهائية للحضارة ، التي يتوجب عليهم أن يتحملوا من أجلها هذه المعاناة ، إن عدداً كبيراً حـداً من الأشخاص يصبحون مرضى لدى تقيدهم بمعـايير « التمدن » ويضطرون « للانسحاب » . مؤكد أن هناك الطرائق الكلاسيكية للحيلولة دون ظهور داء عصابي مكشوف أو إخفاء هذا الداء ، مثل الاخلاقية الجنسية المزدوجة لدى الإنسان ، والقرار إلى الرفض الجنسي ، ونزعة التدين ، أو أعمال الخير لدى النساء . إلا أن هذه الكيفيات في إخفاء داء العصاب لا تحمل وحسب آثار المرض ـ وذلك يمكن السماح به لمصلحة المجتمع ذاتها ـ بل إن الأمراض العصابية ومحاولات اجتنابها، تناقض ، مع الأخذ في الحسبان تقدم التطور الاقتصادي والكيفية القمعية المنظم بها هذا التطور اجتماعياً ، تناقض على الدوام المتطلبات الناتجـــة عن ذلك ، والمتعلقة بأدوار الأفراد الاجتماعية المضبوطة . لقد استخدمنا أعلاه مثال الوظيفة المتصلبة لأجل معالجة هذا التغيير في الوظيفة : فمن جهة ، لأجل صالح صيانة الحضارة ، لم تعد القيود الجنسية المتصلبة ضرورية ؛ ومن جهـــة اخرى ، وفي مصلحة صيانة منظومة تجديد الانتاج الاقتصـــادي ، يصبح ضرورياً بصورة مباشرة تحقيق « انفراج » في هذه الاخلاقية الجنسية ، التي هي ، في حالة تصلبها ، في منشأ أمراض العصاب الفردية (العصابية العصرية) . وهكذا فمع الأمراض

العصابية ، بل وربما بدلاً من هذه ، تظهر دائمـــاً وبصورة أكثر تواتراً أشكال ذهانية لأمراض سببتها الحضارة .

إن منحرفي عهد الانهيار هذا قد رفضوا ، ونعبر عن ذلك مانحين إياه طابعاً مثاليا ، أن يضطلعوا كلياً بالحالات الارغامية للحضارة وأخلاقيتها الجنسية . وهذه القدرة على المقاومة أكسبتهم مكافأة . فقد استطاعوا أن « يوفروا على أنفسهم حالات وعمليات الكبت » . وكثيراً ما يسميهم فرويد أبطال الحضارة؛ وحين لا يكونون سجناء انحرافهم ، فهو يستطيع أن يقدمهم بمثابة (أشخاص أصحاء لكن غير أخلاقيين إلى درجة غير مرغوب فيها اجتماعياً) [1] . ومؤكد تماماً أن هذا التقسيم لا يصح إلا بالنسبة لنمط المنحرف المنمنم ، الذي لا يقتصر على كونه أسمى من الاخلاقية الجنسية ومن منتجاتها العصابية ، بل إنه يسيطر كذلك بصورة ما على انحرافه هو نفسه ، ولا يصبح عـــاجزاً عن السيطرة على الواقع .

إن العجز ، الذي يظهر في زمن مبكر جداً ويبقى ، لاحقا ، عن الحـد من الرغبة الجنسية ، ولكن على الأخص العجز عن تحويلها أو نقلها إلى غرض آخر وذلك بصورة عامة من أعراض الانحراف ، وهو يجعل أولئك المصابين به عاجزين عن تحمل الواقع ومجابهته ، وهو أيضا من أعراض حالات الانهيار الذهاني في سن الرشد ولكن على الأخص في سن الحداثة ، أي مختلف أشكال داء الفصام والذهان الهذياني ، ولدى إعطاء مخطط أولي يمكن القول عـــن جميع هؤلاء الأشخـــاص : إن أسرتهم لم تمنحهم الطابع الاجتماعي بصورة كافية ، ولم يكن لديهم أمثلة متجانسة ، كان باستطاعتهم أن يتعلموا انطلاقا منها تحويل الرغبة الجنسية وضبطها وتوجيهها ، وإعطاء هذه الرغبة الجنسية نوعيتهـا الحقيقية ومختلف أشكال السيطرة على الذات . وهذه المزايا والصفات تفرض لاحقـــا

---

(٢) Freud. Die Kulturelle... المرجع المذكور .

(بصورة مباغتة) من جانب العالم المحيط (المهنة ، المدرسة ، جماعات الفتيان ، والنضوج الجنسي ، الشريك من الجنس الآخر) مع المزيد من حالات الارغام والضغوط . إن الشخص ، المنهار نفسياً واجتماعياً ليس على مستوى متطلبات الواقع هذه المباغتة ، ولذلك فهو يضطر لأن يحل محلها عملية دفاع غريزية - جنسية ، تبدأ باكراً جداً وتظل بدائية جداً . إن حالات الانهيار العصابية ليست سوى التعبير الأكثر ظهوراً عن مختلف أشكال السلوك الفوضوي الذي يمكن أن يتراوح بين الانحراف الجنسي الظاهر والذهان السريري . وتحدث حالات الانهيار هذه بعدد له دلالته عند الأطفال والأحداث المنبثقين ، إما من عائلات كانت فيها العلاقات بين الأبوين - والاولاد قائمة على أساس الزنا الصريح، وإما عن عائلات كانت فيها الام مفرطة العاطفة والحنان إلى درجة مَرَضية - ولكن مع تناقضات في هذه العاطفة - وإما أيضاً من عائلات يقدم فيها الوالد والأم إلى الولد عروضاً لتحديد الشخصية ، متناقضة الى أقصى حد ، وغير متلاءمة ، بل ان الأبوين يتنافسان في عروضهما ، وهؤلاء الأولاد ليسوا مسلحين بالقدرات التي لا غنى عنها (التحديد المتجانس للشخصية ، واختيار الغرض ، وتطوير وظائف الأنا وتحقيق استقراره ، الخ) للسيطرة اللاحقة، على الواقع . إن جميع عمليات وتفاعلات الجمعة هذه المفضية الى الانحراف الجنسي أو الى داء المصاب تبدو متصفة باختلال في تطوير الطفولة المبكرة وقبل زمن طويل من المرحلة الأوديبية ، وعلى وجه التخصيص في المرحلة الفموية والشرجية لتحديد الشخصية ، والحصول على اللذة ، وبلوغ الغرض ، وتكوّن الأنا .

وإذا كان يمكن ، بشكل من الأشكال ، أن تتطابق المراحل الفرويدية للحضارة مع أنماط مختلفة من اشباع الرغبة ، على الصعيد الاجتماعي والفردي والجنسي على حد سواء ، فإن المرحلة الاولى يمكن أن تطابق النظام الاقطاعي، والثانية مرحلة الانتقال من الاقطاعية الى الرأسمالية ، والثالثة : الرأسمالية ،

المتصفة بالنزعة البيوريتانية . وبالتالي ، يمكن اعتبار أننا بلغنا اليوم « مرحلة رابعة » ، حيث حدث انفراج في الاخلاقية الجنسية التي تسمح فقط بالتناسل المشروع بصفته الهدف الجنسي الوحيد ، لكن هذا الانفراج لا يتماثل تماماً مع حرية تتجاوز أغراض التناسل ، لكنها ارتداد إلى الوراء ، إلى ما قبل العلاقة الجنسية التناسلية القسرية . وهنا يمكن الحديث تاريخياً عن انفصام جماعي (انحلال) للبنية التناسلية لدى الرغبة الجنسية ؛ ومن وجهة اقتصاد الرغبات الجنسية ، في وضعها على مستوى الشخص المنعزل ، فإن المرحلة التناسلية للحياة الجنسية لم تعد تُبلغَ أو هي لا تُبلغَ إلا بصورة غير كاملة ، وعلى هذا الأساس ، يلاقي العرقلة بصورة خاصة التقدم من « العشق الجنسي الذاتي » الى الحب الغرضي – حب الشخص الآخر – ومن استقلالية المناطق المولدة لشهوة الحب الجنسية الى اتحادها في تنظيم من الشهوة الجنسية الشديدة الواعية الموجهة نحو الغرض ، ذلك لأن عملية تطور المجمعة التي لا غنى عنها ، يتزايد ضعف عملها أكثر فأكثر ، أو انها تختفي كلياً ، وذلك لأن نزعات متعارضة تثور ، قبل ذلك ، بمختلف الصور ، وتعمل بصورة أكثر فعالية . ان تجليات وتجسدات طباع فردية واجتماعية تتكون على هذا النحو ، وما يطابقها من ممارسة جنسية ، تقدم وجوه شبه هامة مع أنماط السلوك العصابية .

النضوج الجنسي الدائم والحركية الجنسية

إن « الاستيعاب أو الاندراج – الانعزال » للأفراد ، الذين عالجنا أوضاعهم في الفصل السابق ، يرتكز قبل كل شيء على ثلاث ظاهرات نفسانية : ١) على إضفاء الطابع الوثني على الأغراض الاستهلاكية ، والاغراض الجنسية ، واغراض الاستهلاك « اليومي » الجاري) ٢) وفي الوقت نفسه على لامبالاة عامة إزاء هذه الاغراض و ٣) على قلق غير محدد لكن راهن دائماً ، من فقدان

هذه الأغراض [١] . وهذا القلق يبدو أنه العنصر الذي يقوم باستيعاب الأفراد المنعزلين ، مبقياً على عزلتهم .

جميع هذه الظاهرات تحيلنا إلى وضع خاص لعملية تطور الشخص ، وهو يتصف ، في وقت معاً ، بالقلق وباللامبالاة بالغرض : الطفل الصغير تابع إلى أقصى حد ، وهو في حاجة إلى كثير من الحماية . وهذه التبعية هي ، في حد ذاتها ، خاصة بالطبيعة البشرية ، وينبغي أن يكون هدف التربية تخطي هذه التبعية ، وأن تجعل من الولد رجلاً راشداً بالغاً أشده ، وواعياً ، وقادراً نسبياً على أن يحدد ذاته . لكن الطفل ليس تابعاً فقط ،بل هو أيضاً أناني وغير اجتماعي وهو لا يحب إلا ما يضمن له إشباعاً مباشراً لرغبته ، دون اعتبارلماهية الغرض. ان الجهاز العضوي للطفل،كما يقول فرويد ، ذو درجة عالية من شهوة ـ الحب ـ الذاتية والطفل يستخدم لكي يشبع رغباته الجنسية الشهوية - الغرامية - الذاتية ، مصادر اللذة (المناطق المولدة لشهوة الحب الجنسي) المتنوعة جداً . ومؤكد أن الولد الصغير لا بد وأن يلاحظ مبكراً جداً أنه لا يستطيع دائماً أن يشبع رغبته دائماً بذاته (مثلاً : إن الثدي ، مصدر اللذة ، هو ملك أمه، وليس له) بل ان أشخاصاً يضطلعون بذلك ، الذين هو تابع لهم ، بالتالي . ان عملية التطور التي يدرك في نهايتها الطفل أنه تابع ، تتوافق مع تكون نواة « الأنا » الأولى (تكون الوعي) . وإثر ذلك ، هذه التبعية يجب تجاوزها بفضل مكتسبات وانتصارات متزايدة للأنا . وكيفية حدوث عملية التطور ،

---

(١) قام بابراز هذا العامل جيداً و . ف . هو غ : المرجع :

(Warn - Asthetik und Argst) in Das Argument. No 28. année 1964. p. 27.

« (...) إن نمط عمل الدعاية القائمة على التكييف التضليلي : أنه يحدد ما هو مرغوب فيه، ويكيف ويستخدم على هذا النحو القلق الكامن من فقدان الحب » .

سيكون لها تأثير حاسم على صحة أو مرض الحدث المراهق ، والشخص الراشد البالغ أشده ، بالنسبة لمعايير حضارة معينة .

إن عملية التطور هذه ، أي التربية ، الهادفة إلى تحقيق استقلال الولد ، تعرقلها مراجع جديدة للمجمعة خارج العائلة . ودون علم العائلة ، مع استخدام تأثير هذه ، تُدخل هذه المراجع في الجهاز النفسي للشخص آليات مضادة تهدف إلى إبقاء الفرد على مستوى التبعية القابلة للضبط ، والتوجيه ، والتكييف التضليلي . وواقعُ أن الأشخاص حالياً يتفلتون ، في وقت مبكر ، أكثر من العائلة ، لا يناقض وجهة النظر تلك ، بل إنه ، بالعكس ، يفسرها . ويبدو أنه يشير إلى نهاية الوظائف التقليدية للعائلة ، لا سيما إذا كان هذا الاستقلال المبكر ليس النتيجة الحقيقية الصادقة للتربية العائلية ، بل إذا كان ، بالعكس ، انتصار التربية الخارج - عائلية على العائلة ، وإذا ما تبين من جهة أخرى أن هذا الاستقلال هو تبعية متزايدة إزاء مراجع أخرى .

وهكذا فإن التطور النضوجي - الجنسي ، وهو هدف تسعى اليه الحضارة تقليدياً ، لا يعود يتحقق ، بل بالعكس فإن الشخص يجري إبقاؤه في حالة نضوج جنسي دائمة . وكما سبق أن رأينا ، ففي مرحلة النضوج الجنسي يجب أن يتحقق هذا الهدف ، أقصد « إتباع جميع مصادر الإثارة والتهيج الجنسي إلى أولوية المناطق التناسلية الجنسية ولعملية اختيار الغرض » . ويُعرّف هذا الغرض بصفته قائماً على ممارسة علاقة مع شخص من الجنس الآخر ، وخارج أفراد العائلة (أي أنه قائم على غير أساس الزنا بالمحرم) ؛ وتتطلب حضارتنا أن لا يتصور المرء سوى غرض واحد ، في وقت معاً . لكن الإتباع للعملية الجنسية التناسلية وامتلاك غرض مقابل ، لا يمكن نجاحها الا إذا كان المماثلة الأولى مع شخصيتي الأبوين ، وهي مماثلة متعددة الوجوه والقوى (مؤلفة من حب وبغضاء) وهي خاصية العلاقات بين الأبوين - والأولاد أثناء فترة الكمون ، يُستبدل بها انفصال إزاء الأهل ، هذا إذا كان ذلك ممكن الحدوث ، أي إذا كان باستطاعة

الفتى والفتاة بلوغ الاستقلال والوعي ، لدى الصراع الذي يضعهما في مواجهة الأم والأب ، إنه ضعف سلطة الأبوين ، المحدد اقتصادياً وتاريخياً (لا سيما في المانيا أثناء عهد الفاشية) يبدو أنه يسهّل حالياً ، من حيث الوجوه الخارجية ، عملية الانفلات ، لكنه يجعلها أكثر صعوبة ، من حيث وجوهها الداخلية . وفي هذا الصدد يكتب أ. وم. ميتسشيرليش قائلين : « بتدني سلطة الطاعة إزاء الأب في العائلة ، تتاح للولد إمكانية أكبر بكثير منها في الماضي للتجسيد الخارجي لنزعاته الأوديبية . وعملية التطور هذه لا تأتي فقط بحرية أكبر . ولكن يمكن أن تكون نتيجتها أيضاً ضياع أكبر ، نظراً لأن هدف الأب أو الأم ، الذي يتحول نحوهما الاحتجاج الصريح ، تتدنى قدرته باستمرار على التقاط وتثبيت المدوان[1] . وبديهي تماماً ، أن الأبوين إن لم يعودا يستدعيان كثيراً تثبيت المدوان عليهما ، فذلك لأنهما في وقائع الحياة قد فقدا شيئاً من قدرتهما. مؤكد أنه ما زال يمكن مكافحتهما ، لكن خوض مجابهة فعلية معهما ، واستعمال كل الطاقة والعزم ضدهما ، قد أصبح مستحيلاً . في مثل هذا الوضع ، لا يستطيع الآباء والأبناء إلاّ الارتداد إلى مرحلة طفولية على حد سواء بالنسبة للجانبين . » ويبدو أن كلاً من الآباء والأبناء يبحثون عن والد – والد أسمى – ولكن يتخذون منه موقفاً ازدواجياً وهم ليسوا على استعداد لقبوله ، دفعة واحدة ، بمثابة مثل أعلى »[2] .

وإذا كان الاستقلال إزاء الأبوين يجرى تسهيله على هذا النحو من الخارج ، فليس ذلك ، في الأساس ، لكي يتمكن الأولاد ، بصورة أسهل من أن يضطلعوا بـ « دور الأبوين والأهل » ، وأن يصبحوا راشدين واعين وقادرين على أن يحبّوا . ومن جهة أخرى ، فهذا الاستقلال يغدو أكثر صعوبة بواقع أن الأبوين

---

(١) أ. وم. ميتسشيرليش . المرجع المذكور . ص ٢٣٠

(٢) ميتسشيرليش . المرجع المذكور . ص ٢٣١ .

الضعيفين قد حلت محلها مراجع مجمعة خارج ـ عائلية ذات قدرة جبـــارة ؛ والحال ، فإن مقاومة هذه المراجع هو أكثر صعوبة لا سيا وأنها - أي هــذه المراجع - لا يمكن تشخيصها ، تحديدها في أشخاص ، وأن الأولاد لم يسبق لهم أبداً أن تعلموا المقاومة ؛ إن ساحة التدريب التي كانت تقدمهـا لهم عائلتهم لم يكن لها وجود مطلقاً . وهكذا فما من انفصال أو استقلال حقيقي يحدث –في هذا النموذج – وجل ما يحدث هو نقـــل لتحديد الهويات الحقيقية لأشخاص ازدواجيين ، سابقين لعقدة أوديب . ويصف ميلتشيرليس خاصية هذه العلاقة على هذا النحو : « إنهم – أي الفتيان من الأبناء والبنات – لا يحتجون ، لكنهم ليسوا جد متعقلين على كل حال ؛ بل بالعكس ، فإنهم يذكروننا باليتامى الذين تصفهم أنـّا فرويد ، والذين انقطعت لديهم ، بفقدهم الأم ، الرابطة الطبيعيـــة بالأم ، منذ زمن مبكر جداً ، دون أن تحل محلها رابطة أخرى على مستواها ، ويظهر لدى هؤلاء الأولاد بعد نمو طبيعي أثناء الطفولة ، اضطرابات خطيرة في فترة البلوغ »[1] .

ولا شك مطلقاً في العوامـل الجديدة للمجمعة الخارج ـ عائلية ، ترفع هي أيضاً ، إلى مرتبة معايير التكيف ، الصريحـــة أو المستترة ، ولكن المركزية دائماً ، المتطلبات التقليدية بصدد التحولات البلوغية ـ بلوغ النضوج الجنسي – . وهذه « العوامــــل » تعمل حينئذ بصورة لا يمكن إلاّ أن تبقي الفرد في حالة التوتر الممضة ، حالة البحث عن الفرض، وفي حـــالة من التوتر الجنسي غير المُرْضية من حيث الميول . وقـــد وصف فرويد ، بصورة جميلة ، على هـــذا النحو « تحولات البلوغ » ، قال : « إن الصفة الطبيعية للحياة الجنسية يضمنها التقاء تيارين ، متجهين نحو الغرض، أي الشخص موضوع الحب، والهدف الجنسيين : تيار الحنان ، وتيار الحس الشهواني . ويحوي أوّل هـذين

---

(١) ميتشيرليش – المرجع المذكور ـ ص ٢٣٨ .

التيارين في ذاته ما تبقى من التفتح الأوّل للحياة الجنسية الطفولية . ويحدث شيء أشبه بشق نفق يجري من الجهتين »[1] .

ويبدو أن الهدف الظاهر للمراجع الجديدة للمجمعة ، ولعوامل التكييف التضليلي يقوم في أنه يجري الحفر من الجهتين بنشاط محموم ولكن في اتجاهين حتماً لا يلتقيان ، ويبقى بينهما فارق معين ، وإن قليل ، وهما لا يقودان أبداً إلى نور النهار بل يظلان إلزامياً في ظلمات التوتر والقلق والغصة وعدم الشعور بالأمن وبالسلامة .

هذا التناقض هو على كل حال في أساس مجمل الدعاية المكيفة التضليلية لنشر الإثارة الجنسية بواسطة الأفلام والمجلات المصورة الكبرى (الماغازين) وأشكال التعبير التي تتخذها الآن العلاقات بين الفتيان ، في الأزياء (الموضة) والرقصات ، والموسيقى . ويجري دائماً عرض طائفة مختلطة مشوشة من الأغراض والأشياء الجنسية ، تتوجه بصورة فيتشية (توثينية) إلى الرغبات الجنسية الجزئية غير المتناسقة ؛ من هذه الأغراض والأشياء « التي يجب الحصول عليها » ، والتي تعِدُك ، في آن واحد ، بالبهجة وإشباع المتعة والسعادة الأبدية والتي ما إن تحصل عليها حتى تحملك على تمني أغراض جديدة من طرازها .

كذلك كانت حياة الحب البلوغية التقليدية ذات أساس هو مفهوم أن البحث عن الغرض (أو عملية اكتشاف الغرض) لم تنته بعد ، لكن الشخص البالغ يعمل تبعاً لمبدأ « الاختيار النرجسي للغرض » . ومؤكد أنه يقع بإخلاص وشعور عميق في حب جميع الأغراض الممكنة والمستحيلة ، بصورة واضحة ، بل هو يستطيع حينئذ حتى أن يتردد بصورة مدهشة بين اختيار غرض من نفس الجنس ، أو من الجنس الآخر . ويبدو أن « نقص الجدية » الذي يُنسَب عادة

---

(٢) فرويد « ثلاث دراسات » المرجع المذكور ، ص ١١١ – ١١٢ .

إلى هذه العلاقات الغرامية يقوم تماماً في واقع أن الفتيان والفتيات ينجحون بسرعة لا يعرفها الراشدون الناضجون ، في سحب حبهم أو عبادتهم أو إجلالهم لشخص أو لشيء ، لكي ينقلوهـــا بكاملها إلى شخص آخر أو شيء آخر . وبصدد صلات العشق هذه كتبت أنّا فرويد تقول : « هـذه العواطف المفعمة وجداً وحرارة ، والعابرة جداً ، ليست مطلقاً علاقـات غرضية بالمعنى الذي يعطيه لهذه الكلمة الأشخاص الراشدون ، بل هي فقط ميول للعثور على النفس في الآخرين ، ومن النوع البدائي جـــداً ، وهي مماثلة لتلك التي نستطيع العثور عليها في المرحلة الأولى من نمو ولد صغير ، قبل ظهور أي حب غـرَضي . ومن جهة أخرى ، فإن عدم الثبات الخاص بمرحلة البلوغ يكف عن أن يسجل لدى الذات تغيراً للحب أو القناعة ، بل بالأحرى فقدانـاً للشخصية نتيجة لتحقيق جديد للذاتية في العثور على غرض جديد »[1] لكن هـــذه الصلات الغرامية التقليدية ، في مرحلة البلوغ ، تقدم درجة عاليـة من العفوية والإخلاص ، تخلو منها بصورة مؤلمة جداً الصلات الغرامية – الاستسلامية في أكثر الأحيـان – بين الأشخاص الراشدين .

والحال ، فإن الصلات الغرامية المحددة بمفهوم « مرحلة البلوغ الدائمة » تخلو من الثبات والنضج ، المميزين لعلاقات الراشدين الغـرَضية ، مثل خلوها ، على حد سواء ، من الصراحة الغامرة في مرحلة البلوغ . ويبدو عليهـــا منذ البدء عجزها عن الامتلاك الحازم للغرض ، وأنها غير قادرة على القيام بعملية امتلاك شهوانية ـ غرامية ـ ذاتية (نرجسية) ناجحة ، تكون ضرورية للتوصل الى صلات غرامية بلوغية ، مخلصة ودفاقة ذاتياً ، معروفة سابقاً . وهؤلاء العشاق لا يستطيعون أن يتجاوزوا مرحلة البلوغ ، وذلك قبل كل شيء ، لأنه تنقصهم

(١) أنـا فرويد . « الأنا وآليات الدفاع » مكتبة التحليل النفسي ـ المنشورات الجامعية الفرنسية ـ باريس ـ ١٩٦٩ . ترجمته عن الالمانية أنا بيرمان . ص ١٥٧ – ١٥٨ .

الركائز النفسية والانفعالية الماقبل البلوغية ، التي لا غنى عنها لكل نمو وتطور صحيحين لمرحلة بلوغهم . وتصل إلزامياً ، بهؤلاء إذا كانت لديهم علاقات حقاً، إما إلى اضطرابات عُصابية – عابرة على الأقل – (كالخُدار المهبلي عند المرأة ، مثلاً) ، وإما إلى مواقف أشبه بالمنحرفة تطابق تلك ، كنزعة الدونجوانية عند الرجل ، مثلاً (الباحث عن الغواني dragueur) .

هذا الشكل المُكَيَّف من الانحراف يمكن تفسيره انطلاقاً من مِثال الدونجوانية التقليدية أو الجديدة ، على حدٍ سواء . هؤلاء الدونجوانات ليسوا فوضويين ، ولا متمردين ، ولا ظاهري المرض (عُصابيين بالمعنى الاجتماعي) ولا حتى منحرفين ، بالمعنى الدقيق للكلمة . إن الدونجوانية التقليدية هي، في النموذج التحليلي ـ النفسي ، سيرة تنتمي إلى ميـل الشخص نحو أفراد من نفس جنسه (اللواط – السحاق) ، بصورة كامنة. والمصاب بها – أي النزعة الدونجوانية – قدر له أن يمر ، بصورة فاشلة ، بعملية مماثلة ذاتية (وجود الذات في شخص آخر والتعلق به) في شخص الأب . وحين يأخذ فيما بعد ، بالركض المستمر ، وراء تَنوُّرة نسائية مثالثة الخ ، ويحل ويشتهي خلال بضعة أيام أو حتى بضع ساعات فقط كل امرأة من اللواتي يظفر بهن ، ثم يتركهن يغصن في شقاء المصيبة بعد أن يستجبن لرغباته ، فإنه في الواقع ، يركض للحصول على والدته ؛ وفي اضطرار جبري على التكرار ، يُلحِق بها الألم الذي ألحقته به أثناء المرحلة الأوديبية ، حيث كان في مرتبة أدنى كلياً في عملية المنافسة التي كان يحابه بها أباه ، بحيث أنه كان محظوراً عليه – أي الابن – حتى القيـام بعملية مماثلة (الحب الوجودي للذات في الآخر) – هذه المماثلة التي كانت تجعل ممكناً الميل إلى نفس الجنس (اللواط ـ السحاق) بشكله الصريح . لكن هذا الدون ـ جوان التقليدي « يعاقب » على سلوكه « العشوائي » بأعراض داء العصاب ، الممثلة في العجز عن الانتصاب وعن قذف المني ، وهو يظل بذلك في مواجهة دائه . وهو يعاني آلاماً مبرحة من جراء ذلك . إن دوريان جراي ، بطـل قصة

أوسكار وايلد المعروفة ، هو ، في وقت معاً ، واحد من هؤلاء الدونجوانات ، وشخص « يعيش في فترة بلوغ دائمة » ، (يبقى فتى شاباً على الدوام) مؤكد أنه لا يوصف لنا لديه أي عرض ظاهر من أعراض داء العصاب ، لكن الواقع هو أنه يتناول المخدرات باستمرار ، ويكون مآله أن يصبح قاتل ذلك الذي يكشف له عن سر « فتوته الدائمة ، وعيشه مرحلة البلوغ المستمرة » .

إن الأشكال الراهنة للدونجوانات تبدو أنها تنجو من « عقاب » الإصابة بالعُصاب . ففي الرأسمالية المتأخرة زمنياً ، يعطى طابع المؤسسة حالياً لنظام من الدونجوانية « كاملا تماماً بحيث سيزيل دائمـــاً أكثر فأكثر مع مرور الزمن الأوجاع التقليدية التي كانت تسببها الحضارة (الأمراض العصابية التي كان يعيها المصابون بها) . وقد جرى الحديث حتى الآن عن ذلك النظام ، بصفته مجـالاً اتساعياً جديداً ، منحته الطبقة السائدة ، للحركة الجنسية ؛ إلا أن هذه الحركة ليست سوى الوجه الخارجي لتحول « يمس » للمرة الثانية في تاريخ الرأسمالية « ركيزة الطبـاع الاجتماعية »[1] . إن هذا التوسع سوف يزداد اشتداداً مع الزمن ؛ وهو منذ اليوم موضوع دعاية متزايدة باستمرار . وسنرى عما قريب أن المجلات المصورة الكبرى المخصصة للأحداث المراهقين تقدم لنـــا مؤشرات « علائم » هي أكثر بلاغة أيضاً في الولايات المتحدة .

هذا النظام يرتكز ، في جملة مرتكزاته ، على انفراج بالنسبة لحالات امتلاك الفرض ، أو بالأحرى على توجيه جديد للمجمعة ، يستبعد كل امتلاك غـَرَضي

(١) هذه الصيغة الجميلة : (« An den Grund der sozial-characterе rûhrt ») هي لماكس هوركهايمر في دراسته بعنوان ؛

« Die juden und Europa » in Zeitschrift fûr sozialforschung, année VIII. Paris· 1939 . p. 118

دائماً . وتبعاً لوجهـــة النظر هذه ، ينبغي أن تعزى الأمراض المصابية التي ما زالت تلاحظ في أيامنـــا ، والتي هي في الواقع ، متواترة جداً (كثيرة الحدوث) والنزاعات الجنسية الأخرى الحادثة ذاتياً ، في شطر منها ، إلى بقاء معاند للقدرة القديمة على امتلاك غرض ما ، ومن جهـــة أخرى إلى التناقضات والتطور الموضوعي غير المتزامن ، لمختلف المؤسسات التربوية ؛ وهذه المؤسسات تعطي الفرد ، في أفضل الأحوال ، فكرة غامضة عن تناقضات مجتمعنـــا التناحرية . والواقع أننـــا ننطلق ، من أجل عملنا السياسي ، من تناقضات المؤسسات هذه ، مع اختيارنا بمثابة موضوع للعمل التربوي السياسي ،ظاهرات مختلفة مثل التآلـّي * l'automation في االمؤسسات والمصانع ، والبنيـــة الاقطاعيـــة للجامعات ، وتزايد فقر مواردها المالية أو القمع الجنسي في المؤسسات المدرسية .

اختيار الغرض النرجسي والحب ، والدُرْجة(الموضة) واللذة التمهيدية الدائمة .

إن الآليات والتطورات التي عالجناها حتى الآن تصف نزعة من نزعـــات الحياة الجنسية في مجتمعنا . وهكذا فسنواصل القول : لا يصبح الأفراد عاجزين عن أن يتزوجوا ، وأن يحبوا في اطار الزواج الأحادي ، وإنجـــاب الأولاد وتربيتهم ، وأن يفصلوا بصرامة ودقـــة الحياة الجنسية عن العمل ، الخ ، بل إن من واجبهم أن يحققوا كل ذلك . لكن هذه القابليات تفقد تلاحمها ، وبذلك نفسه تفقد ما كان لها أساساً في المجتمع البورجوازي من قوة الاستيعـــاب والادماج الاجتماعي – وإن كان هذا لم يتحقق إلاّ نادراً جداً – . وبـــدلاً من هذا التلاحم تظهر ضغوط وحـــالات قسر وإرغام وحريات ظاهرية محوجزة

(*) راجع قاموس « المنهل » .

(مقسمة بحواجز عديدة cloisonné) ومجزأة إلى مصالح متباينة تقوم بين كل منها جدران فاصلة ولا تاريخية ahiastorique - تتكامل فيما بينها مع ذلك. ويمكن أن تستخدم حينئذ الحريات المتزايدة لتبرير تزايد عمليات وحالات القسر والإرغام . لنأخذ مثلاً بسيطاً: إذا كانت توجد في الزواج حريات اتخذت تقريباً طابع المؤسسات ، تلزم الزوجين على ضبط علاقاتهما اقتداء بمبدأ العلاقات الخارج - زواجية ، غير المزعجة ، أو حق الضرورية ، فإن الارغام الاجتماعي المتجسدة خصائصه في الزواج والمفروض بصورة دائمة يصبح أخف عبئاً ، وأكثر شرعية ، وأصعب على كشف القناع عنه ، ويفرض « المعنى الجديد » للزواج ، نفسه بسهولة أكثر ، بصفته عاملاً متميزاً للتكييف المباشر . ولكي نستطيع أن نفهم بصورة أفضل الشيء الذي يضمن تماسك نظام التكييف المباشر ، هذا ، وعلى أية عوامل متميزة يستطيع أن يرتكز ، علينا أن ندرس بضعة آليات أخرى لهذا النظام، مرتبطة مباشرة بما عالجناه في المقطع السابق .

إن النرجسية le narcissisme ليست مماثلة بصورة مباشرة للشهوة والحب الذاتيين بمقدار ما أمكن أن يبدو حتى الآن . ففي وقت مبكر جداً ، ينمو ابتداء من هاتين الرغبتين ، في الوقت نفسه مع تطور « الأنا » ابتداء من الوحدة الأولوية في الطفولة الأولى للأنا وللانفعال اللاواعي le ça [1] .

---

(١) يسأل فرويد في كتابه « الحياة الجنسية » - مكتبة علم التحليل النفسي ، المنشورات الجامعية الفرنسية ، باريس ، ١٩٦٩ ، ترجمة دنيز بيرجيه وجان لا بلانش ، في الفصل الخامس من الكتاب ، وعنوانه « لأجل ادخال النرجسية » : « ما هي علاقة النرجسية (...) مع نزعة الحب الشهوانية - الذاتية ، (...) . من الضروري الاقرار بأنه لا يوجد منذ البدء، في الفرد، وحدة يمكن مقارنتها بالأنا ، ويكون على الأنا ان تخضع لنمو وتطور . لكن الرغبات الجنسية الغرامية - الشهوية الذاتية تكون موجودة منذ البدء ، لذلك ينبغي ان يأتي شيء ما ، نشاط أو عمل نفسي جديد ، يجب ان يأتي ليضاف الى نزعة الحب الشهوية الذاتية لأجل اعطاء شكل النرجسية . » (ص ٨٤) .

وفي رأي البناء التحليلي النفسي ، أن الفرد يتلقى ، أثناء تكون الأنا لديه ، غرضين جنسيين بدائيين : « نحن نقول إن لدى الكائن البشري غرضين جنسيين أصليين : هو ذاته ، والمرأة التي تعنى به ؛ ونحن نفترض مسبقاً ، في هذا، وجود النرجسية الأولية عند كل كائن بشري ، هذه النرجسية التي يحتمل أن يؤول بها الأمر الى أن تتجلى بصورة مهيمنة في اختياره للغرض [1] » ولدى تحليل فرويد مصير هذين الغرضين الجنسيين في الطفولة الأولى ، يصل فرويد عبر ذلك إلى أن يميز نمطين من اختيار الغرض لدى الطفل والراشد ، وهو يسمى النمط الأول **اختيار الغرض عن طريق الدعم** ، وهو يقصد بذلك ، بصورة أساسية ، ما حاولت وصفه بواسطة مقولة تركيز الغرض النفسي (ونموذج عملية الدعم هذه هو تبعية الطفل نحو الأم ، مصدر اللذة) ويسمي فرويد النمط الثاني **اختياراً نرجسياً للغرض** (أن يعتبر الشخص ذاته غرضاً لحبه [2]). ويقوم هذان النمطان على أساس فرضية « النرجسية الأولية » ، ويقصد بذلك وضع لشهوة الفرد الجنسية الزاخمة le libido ، حيث تتجه منه نحو الخارج دفعات ورغبات جنسية شهوانية قوية (مثلاً : يحب الفرد شخصاً آخر) . ويتصف النمط الثاني بواقع أن هذه الدفعات الجنسية ـ الشهوانية القوية موجهة بصورة أساسية نحو شخصه هو ذاته ، لذلك يسمى أيضاً هذا السلوك « نرجسية ثانوية » .

كان باستطاعة فرويد أن يطبق هذا التمييز على اختيار الغرض « المذكر » و « المؤنث » نموذجياً . وكان هذا يطابق ، على حد سواء ، الممارسة الجنسية

---

(١) المرجع ذاته ـ ص ٩٤ .

(٢) فرويد ـ المرجع المذكور ـ ان التمييز بين هذين النمطين يقوم على أساس التمييز ، من الزاوية الاقتصادية ، بين رغبات الأنا والرغبات الجنسية ، وهو تمييز تخلى عنه فرويد فيما بعد لصالح مزدوج غريزي هو : الرغبة الجنسية ـ التدمير. الا ان التمييز بين هذين النمطين لاختيار الغرض هو صحيح ومضبوط .

لدى الفئة العليا الميسورة من المجتمع [١] ، وهي وحدها التي قام بتحليلها فرويد كما يطابق المعايير العامة للعلاقات الجنسية واختيار الشريك في انظمة السيطرة الرأسمالية والأنظمة السابقة :

« ان المقارنة بين الرجل والمرأة يظهر حينئذ أنه توجد في علاقتها بنموذج اختيار الغرض فوارق أساسية ، وإن لم تكن طبعاً ذات انتظام مطلق . إن الحب الممتلىء للغرض حسب النموذج عن طريق الدعم هو شيء مميز للرجل بصورة خاصة . وهو يظهر الافراط المدهش في التقدير الجنسي ، الذي منشأه بالتأكيد في نرجسية الطفل الأولية ، ويستجيب ، إذن ، لعملية نقل لهذه النرجسية إلى الغرض الجنسي . هذا التقدير الجنسي المفرط يتيح ظهور حالة الافتتان Verliebtheit الخاصة تماماً [٢] تكون أشبه بحالة إكراه أو إرغام عصابي ، تنحدر على هذا النحو نحو افتقار الأنا في الشهوة الجنسية الزاخمة لصالح الغرض ، ويختلف عن ذلك تطور النموذج المؤنث الأكثر انتشاراً وربما الأشد نقاء والأكبر صدقاً وأصالة . وفي هذه الحالة ، يبدو أنه في فترة التطور البلوغي ، يستثير تكون الأعضاء الجنسية الانثوية ، (التي كانت حتى ذلك الحين في حالة كمون) ازدياداً للنرجسية الأصلية غير ملائم لحب غرضي منتظم يرافقه تقدير جنسي مفرط . وتقوم لدى الأنثى ، لا سيما في حالة تطور نحو الجمال ، حالة تكتفي المرأة فيها بذاتها ، مما يعوضها عن حرية اختيار الغرض ، هذه الحركة التي يعارضها فيها المجتمع . مثيلات هذه النساء ، عند الكلام بدقة ، لا يحببن سوى ذواتهن ، تقريباً بنفس شدة حب الرجل لهن وشغفه بهن .

---

(١) يستعمل فرويد هذه الصيغة في مقال قائم على التأمل والتفكير الانتقادي بصدد الحدود الاجتماعية للتحليل النفسي بصفته علماً علاجياً . انظر :
Wege der psychoanalytischen Therapie. tome XII. p 192.

(١) نفضل هذا التعبير على عبارة « الوجد الغرامي » التي استعملها لابلانش (ملاحظة من المترجم الفرنسي) .

وحاجتهن لا تجعلهن ينزعن إلى الحب ، بل إلى ان يكن من موضوع الحب ، ويروق لهن الرجل الذي يحقق هذا الشرط »[1] .

إن هذا يدعم الفرضية القائلة بأن أنماط اختيار الغرض ، المنتَجة والسائدة حالياً ، يتدنى أكثر فأكثر تحقيقها لشكلي اختيار الغرض ، الصافيين ، أي إما الشكل المحِب لسواه ، وإما الشكل النرجسي الذي يريد أن يحَبّ . وبالعكس فلدى الجنسين ـ أو بصيغة أكثر سوسيولوجية ـ لدى أفراد متزايدي العدد باستمرار ، يبدأ ظهور (مزيج) من هذين الشكلين : فهؤلاء الأشخاص يبقون نرجسيين تماماً كالمرأة البورجوازية ، ولكن دون أن يستطيعوا الاكتفاء بأنفسهم كما تفعل تلك المرأة . وهم يحبون كما يحب الرجل ، ولكن (بدون ما يملك من قدرة على إزالة حالات الكبت ، وتصحيح حالات الانحراف الجنسي)[2] وهم أيضاً أقل حظاً من هذا الرجل في بلوغ تغير لافتتانهم إلى حب حقيقي . ذلك لأنه في الحد الأقصى ، لا يبقى ثمة شركاء ، قادرون على الحب ، بل يبقى فقط أشخاص أصبح أمرهم يقتصر على التماس اتساع نرجسي لأناهم الضعيف .

إن حالة افتتان entichement الرجل البورجوازي ، هذه الحالة التي قام بتحليلها فرويد، تتصف بتدفق الشهوة الجنسية الشديدة (أو شهوة الأنا الجنسية الزاخمة) النرجسية على الغرض . وهكذا ترفع الشهوة الجنسية الشديدة الغرض الجنسي إلى مرتبة مثل أعلى جنسي . وبالمقابل (وتبعاً لنمط اختيار الغرض الغرجسي ، يحدث حينئذ حب ما كانه الشخص وما فقده ، أو أنه يحب من يملك الصفات الكاملة التي ليس لدى الأول أي شيء منها)[3] ، وفي الحالة

(١) فرويد - « الحياة الجنسية » - المرجع المذكور ـ ص ٩٤ .
(٢) فرويد - « الحياة الجنسية » - المرجع المذكور ـ ص ١٠٤ .
(٣) المرجع ذاته .

المثالية تملك (المرأة) هذه المزايا ، وهي في غنى عن الركض وراء (مثل أعلى للأنا) ، ويكفيها أن تجد نفسها راضية عن ذاتها في الحب الذي يكن لها . إذن حسب وجهة النظر هذه ، ينبغي أن نميز بوضوح وجلاء بين أن **يحب المرء** ، **وأن يكون محبوبا** ، (إن الحب ، في ذاته ، بصفته رغبة ملتهبة وحرماناً يحط من شعور الاعتزاز بالذات) ، أما أن يكون المرء محبوباً ، فهو ، بالعكس ، يعلي هذا الاعتزاز بالذات ، حتى لو كان المرء لا يحب (حقيقة) والوضع الذي تتطابق فيه الحالتان، يجري تعريفه حينئذ بصفته **حبا سعيداً حقيقياً**،الشخص يحب ، وهو محبوب - وهو (وضع أولي أصيل) في رأي فرويد ، — وفي رأينا أنه حالة طوباوية من نسج الخيال ـ (حيث شهوة الغرض الجنسية الشديدة ، وشهوة الأنا الجنسية الزاخمة ، لا يمكن تمييز إحداهما من الاخرى)[1] .

وبدلاً من هذا الحب السعيد الحقيقي ـ الذي يتصوره فرويد على هذا النحو، بصورة لا تخلو من مغالاة حماسية — تظهر في أيامنا، حالات متزايدة باستمرار، وبوضوح أكثر أشكال افتتان عصابية جديدة ، تتصف بفقدان القوة ، على حد سواء ، لأجل امتلاك غرض ما ، أو التمكن من دعم أنا يمر في حالة ضعف ويكون الدعم بتوجيه الشهوة الجنسية الشديدة نحو الخارج ، كما تتصف بعجز الشخص النرجسي أن يكفي نفسه بنفسه (على نحو ما هو مصنوع في أيامنا هذه) . إن نقطة الانطلاق التي كان « الفرد البورجوازي » يوجه منها شهوته الجنسية الزاخمة نحو الخارج، كانت **الأنا القوي**. وأثناء التربية واستيعاب الشخص من جانب العائلة والمجتمع ، تعلم هذا النمط المثالي للفرد أن يوفق بين متطلباته الغريزية الجنسية (الانفعالية اللاواعية) وبين العالم الخارجي والقواعد الخلقية والمعنوية لممثلي التربية المستبطنين (الأنا ـ المثالي) ، هكذا تكون الأنا القوي

---

(١) المرجع ذاته ص ١٠٣ ـ ١٠٤ .

إلى هذه الدرجة أو تلك إن درجة معينة من قوة الرغبة الجنسية وتأجيل اشباع الغرائز الجنسية المباشرة (وتحمل الكبت حتى درجة عالية) وكذلك تحويل الرغبة الجنسية (التصعيد أو التسامي sublimation) تشكل جزءاً من موقف الأنا القوي، المستقل ذاتياً هذه العلاقة التي ذكرناها حين قلنا وضع الشهوة الجنسية الشديدة (أو القدرة على السيطرة على الغرض) أو أيضاً (الحياة الجنسية التناسلية الراشدين) يبدو حالياً، كما أشرنا إلى ذلك في المقطع الأخير، يتغير، بصورة ثابتة، ولكن لا ينبغي أن نرى في هذا التغير تلطيفاً عاماً وبحتاً للحدود المفروضة على الغرائز والرغبات الجنسية، على نحو ما يخلص إليه ميتسشير ليش، حين يتحدث عن (الاشباع اللامحدود للرغبات) لدى الشبيبة الراهنة، إذ يقول: (إن الاشباع اللامحدود للرغبات كانت نتيجته أن أصبح الفتيان والفتيات في وقت مبكر جداً قابلين للتدجين والخضوع للسيطرة، وذلك بسبب تجارب اللذة التي لا يتملمون السيطرة عليها .. ونغتنم المناسبة لنقول إن ما يقدم لهم بمثابة حرية ليس سوى التشجيع المعطى لسلوك، ظهر في وقت مبكر، وهو الآن يجمد وأشبه بسلوك شخص تعاطى مخدراً فالحياة الجنسية تغدو، إذن، مخدراً، ولا تخدم، حينئذ، بالمعنى الضيق للكلمة، إلا الاشباع ـ الذاتي للرغبات، وليست مرتبطة بأي تبادل للمشاعر، أو بأي معرفة حميمة للغير)[1] ومؤكد أن نتيجة ذلك تكون (الانحراف المكيف) . لكن الأمر لا يكون حينئذ إشباعاً لا محدوداً للرغبات، وإنما إشباعاً موجهاً مقوداً عن بعد . ان القاعدة التي يجري على أساسها التكييف التضليلي لاشباع الرغبة، هي ما يسميه ميتسشير ليش (ضعف أنا الفرد إزاء متطلبات الرغبة الجنسية ومتطلبات حالات الارغام الاجتماعية[2]) . إنه أنا غير متكون اجمالاً، بصورة كافية لكي يلعب دور الوسيط بين (الانفعال اللاوعي le ça من جهة، والأنا المثالي

---

(١) ميسشيرليس، المرجع المذكور، ص ٢٩٠ .
(٢) المرجع ذاته ـ ص ٢٨٦ .

والعالم الخارجي ، من جهة أخرى . ويتعرض الأنا حينئذ لهجمات شديدة من الخارج ، وذلك على حد سواء من متطلبات الرغبة الجنسية أو من قبل حالات الارغام الاجتماعية . إن البنية الغريزية - الجنسية لهؤلاء الأشخاص قد أعدت إعداداً ضئيلاً (أولوية العملية الجنسية التناسلية) . ولكن إذا كانوا يسلكون سلوك الأشخاص الذين تعاطوا مخدراً ، فلا يبدو أن ذلك هو بسبب حد غير كاف للرغبات الجنسية ، بقدر ما هو بسبب نقص تكوين الرغبات الجنسية ، و نقص في تكوين الأنا (وعلى وجه التحديد نقول إنه لا ينبغي الجمع بين هذين النقصين الأخيرين كما لو كان صمود أحدهما يستتبع إضعاف الآخر) . هؤلاء الأشخاص يظهرون (عن قصد) مزودين بأنا ضعيف ، وقد جرى إبقاؤهم منذ سن الحداثة في حالة من الطاعة ، وذلك بواسطة تمارين تلطيف جنسية ، ترمي إلى هدف محدد تماماً . إن (عمليات التلطيف) هذه - وهي ليست كذلك كما هو بديهي تماماً ، إلا من وجهة نظر تاريخية - مرتبطة بتكوين للرغبة الجنسية غير كاف ، أي أنها مرتبطة بالعجز عن مركزة الرغبات الجنسية الجزئية . وليس باستطاعتي أن أعين كيف يرتبط بقاء الرغبات الجنسية هذا وهي في مرحلة طفولية (غير ممركزة) ببقاء وظائف الأنا على مستوى تطور طفولي (تابع وضعيف) . ومؤكد أن هؤلاء الأشخاص ينزعون إلى الانهيار تحت عبء (أولوية العملية الجنسية التناسلية) ، هذه الأولوية التي تفرضها عليهم الحضارة ، حين لا تبقى سوى واجهة خارجية ، توضع باستمرار موضع التشكيك والمحاكمة وإعادة النظر من قبل تحديات سابقة للرغبة التناسلية . ويسلك أولئك الأشخاص حينئذ سلوكاً - وإن كان متكيفاً اجتماعياً ، ومستتراً - لكنه مماثل لسلوك المنحرفين الذين درس فرويد (١) حالاتهم ، أو المجرمين الجنسيين الذين قامت

---

(١) في هذا الصدد انظر : فرويد - Ein kind wird gescklagen. toıne XII. p. 213.

* كثيراً ما نجد لدى هؤلاء المنحرفين جنسياً أنهم هم أيضاً كانت لهم ، أثناء سن البلوغ ، عادة ، بداية لنشاط جنسي طبيعي . لكنها لم تكن قوية كفاية ، وجرى التخلي =

بدراسة حالاتهم جماعة كنسي في تقريرها (المسمى « الجانحين جنسياً » (١) .
هؤلاء الأفراد ، بعد بدئهم محاولات (طبيعية) للاتصـــال الجنسي بأفراد من الجنس الآخر ، في فترة ما بعد سن البلوغ، يتراجعون إلى مرحلة طفولية ظاهرة لإشباع الرغبة الجنسية ، حين يصطدمون بحالات المعارضة ، الاولى ، التي تناهض بنيانهم الجنسي ، الطفولي أساساً .

هؤلاء الأفراد ، ذوو البنيان الجنسي التناسلي الظاهري ، ينبغي لهم ، ابتداء من سن معينة ، أن يقدموا دون انقطاع البرهان على قدرتهم الجنسية التناسلية بممارسات علاقات جنسية مع أفراد من الجنس الآخر ، أو نزهة الجماع لكي يُعتَـرف بهم اجتماعياً . لكنهم عُزّل تجاه هـذه الممارسة ؛ إنهم ، في الواقع ، عاجزون عن اختيار الغرض ولديهم بنيان طفولي نرجسي، دون أن يكونوا ، رغم ذلك ، حائزين على استقلال النرجسيين الذين يكفون أنفسهم بأنفسهم ، فلدى أولئك الأفراد ، المذكورين في أول هذه الفترة ، بنيان لما قبل الممارسة الجنسية ـ التناسلية ، وهم ، رغم ذلك ، يمارسون علاقـــات جنسية تناسلية باستمرار ، وفي حالات كثيرة ، وكأنما بالأكراه ، يجب أن نبين إلى أي حـد

= غنها أمام العقبات الأولى التي لا بد لها أن تظهر . وحينئذ يعود الفرد نهائياً ، الى ثبات على موقف جنسي طفولي .

(١) انظر في هذا الصدد جيبهاردس وآخرين، New - york 1955. p 75

« (...) حين كان طفلاً ، كان يمارس ألعاباً لما قبل سن البلوغ ، تشبع رغباته ، لكنه في الأزمنة الأولى لما بعد سن البلوغ ، اضطر لأن يتبين أن الوصول الى رفيقاته الفتيات أصبح أقل سهولة بكثير ، لقد مضى زمن عمليات الاستكشاف والألعاب المتبادلة ، الخالية من الخجل . لقد أصبح للفتيات الآن مطامح اجتماعية ، وغدا لهن سلوك راشد ، بصورة ما ، إزاء الحيــاة ، الجنسية ـ كان الشاب يحس بالارتباك والضيق حين يكون بين فتيات في مثـــل عمره ، وهو وضع نموذجي لدى الفتيان ، لكن رده على هذا الوضع لم يكن رد فتى نموذجي ، لقد كان يعود نحو فتيات قاصرات ، لا يصلن إلى سن البلوغ ، وكان ذلك يقوده الى أول اعتقال يتعرض له ».

بصف مدرك conlt « الشخص الواقع تحت تأثير المخدر » هذا السلوك . هذا المُدرَك يصف عملية استعباد غريزي - جنسي مَرَضي خاص بأكثر من حالة من حالات الانحراف الجنسي ؛ إلا ان الأحرى ان نسمي الأشخاص الذين ينطبق عليهم هذا النموذج الذي أرى فيه نزعة اجتماعية ، أشخاصاً عقلاء ، حكماء (بالمعنى الذي تقصد إليه انا فرويد) . لكن ما يميز هؤلاء ويحدد خصائصهم وصفاتهم ، بالتأكيد ، شأن كثيرين من المنحرفين جنسياً ، هو إصرار على ممارسة اللذة التمهيدية ، الأولية ، وثبات فيها ، وعجز عن إشباع الرغبة الجنسية في ذروة المتعة النهائية ؛ وبعبارة أخرى ، فهم متعلقون ، وكثيراً ما يكون ذلك دون وعي منهم له - بحالة توتر جنسي دائم . فماذا نقصد بذلك ؟

إن نظرية التحليل النفسي ، استناداً إلى دراساتها بصدد مسار نشوء الأمراض العصابية ، توضح وجهة النظر التالية : إن حالات التوتر الجنسي ، بصرف النظر عن موضع ظهورها وعما يستثيرها ، إنما تتصف بشعور من الكدر والانزعاج (توتر غير مُلذ) ، ويعمل هذا الشعور بمثابة محرك (تغير الحالة النفسية) . وتكون حينئذ (اللذة القصوى) أي ذروة المتعة الجنسية ، تبعاً لشدة اللذة ، هي الأكبر ، لأنها أكبر انفاق للطاقة ؛ ويأتي بها بكاملها انفراج ؛ إنها لذة تستند إلى إشباع الرغبة ، وبها يختفي ، إلى حين ، توتر الشهوة الجنسية الشديدة (الليبيدو) [٤] . إن السير المميز لعملية إشباع الرغبة الجنسية يتيح

---

(١) فرويد « ثلاث دراسات .. » المرجع المذكور سابقاً ، ص ١١٤ . وقد جاء فيه بصدد طابع اللالذة ــ الكدر ، الغم ــ : « مهما كانت الخلافات في وجهات النظر ، التي نجدها في علم النفس ، العصري ، فإنني أصر على القول بأن شعوراً متواتراً له دائماً طابع كدر وغم ، طابع لا لذة.وما يحملني على إقرار ذلك ، هو أن هذا الشعور يتضمن حاجة لتغيير الحالة النفسية ، وذلك غريب تماماً عن اللذة ، ولكن منذ اللحظة التي نصنف فيها التوتر المستثار من قبل التهيج الجنسي ، بين مشاعر الكدر ، فإننا نصطدم بواقع أن هذا التوتر ، يحس به الشخص ، ولا شك مطلقاً ، بصفته لذة وحيثما كان ، في جميع عمليات التطور الجنسية ، نجد ، في وقت معاً ، التوتر واللذة (...) » .

لنا أن نتميز في داخلها ، بواسطة آلية اللذة - الكدر، اللذة التمهيدية الأولية، من ذروة اللذة ، النهائية .

(يبدو لي أن هناك مبرراً لتأكيد هذا الفارق بين اللذة المستثارة بواسطة تهيج مناطق مولدة للذة الجنسية ، وبين لذة قذف المواد الجنسية التناسلية ، ويتم ذلك التأكيد باستخدام مصطلحات مختلفة. ويمكن الاشارة إلى أولى هاتين اللذتين بصفتها لذه أولية تمهيدية ، في مقابل اللذة النهائية . اللذة الأولية التمهيدية هي نفس ما يمكن أن تؤدي إليه الرغبات الجنسية الطفولية ، وإن بكيفية بدائية . والشيء الجديد الذي يظهر هو ذروة اللذة ، النهائية ، التي هي بالتالي ، وحسب كل الاحتمالات ، مرتبطة بشروط معينة لا تظهر إلا في سن البلوغ . ويمكن أن نورد على النحو التالي صيغة الوظيفة الجديدة للمناطق المولدة للشهوة الجنسية وميول العشق : (إن هذه المناطق تخدم ، بواسطة اللذة الأولية التمهيدية ، المحرزة كما كان يحدث الأمر لدى الطفل ، تخدم في إحداث لذة إشباع الرغبة الجنسية ، التي تشكل الدرجة العليا [1]) .

مؤكد انه لا ينبغي أن نعتبر القدرة على بلوغ ذروة اللذة ، النهائية ، كما لو كانت مرتبطة آلياً بتكون أعضاء جنسية أولية . إن فرويد لا يؤكد ذلك هو أيضاً ، حين يجعل بلوغ ذروة اللذة النهائية تلك مرتبطاً وظائفياً بـ (قذف مواد جنسية - تناسلية) . إن تواتر حالات العجز الجنسي أو البرودة الجنسية النفسية المنشأ ، يثبت أن القدرة الفيزيولوجية ليست سوى شرط ضروري ولكن غير كاف لبلوغ حالة الانتعاظ [2] (الخاص بسن الرشد) .

وهكذا ، إذن ، فإن العلائم الجلية لـ (ضعف الجنسي التناسلي) ليست

---

(١) المرجع ذاته .

(٢) حالة الانتعاظ - بلوغ اللذة النهائية .

سوى التعبير الأكثر ظهوراً عن واقع أن شدة ذروة اللذة النهائية هي ذاتها تتوقف على مجموعة تنوعات العوامل النفسية . إن غياب الانتعاظ كلياً ليس سوى النقطة القصوى لسُلّم تكون النقطة المقابلة لها ، في نظرنا ، (اكتمال) لذة إشباع الرغبة . ويوجد بين هاتين النقطتين مجموعة متغيرة جداً من تنوعات حالات ذروة اللذة النهائية يجري الاحساس بها ، بكيفيات مختلفة ، ومؤكد أن كثيراً منها لا يستحق تلك التسمية . ومهما يكن ، فإنه يمكن الشك في أن الانتعاظ الأعلى لا يحدث إلا في اتحاد الأعضاء التناسلية ـ كما يؤكد ذلك ، مثلاً ويلهلم رايش في نظرياته الجنسية التناسلية [١] ، أو أنه لا يحدث إلا في نوع ممارسة العلاقة الجنسية بين فردين من الجنسين لهذا الاتحاد ، ومن جهة أخرى ، فإن اللذة الأولية التمهيدية ليست مماثلة لـ (مداعبة الجنسية التمهيدية) تلك التي درسها كنسي مثلاً ، لأجل إثبات فوارق في ممارسة الأشخاص الجنسية مع الأخذ بمثابة معايير ، مدة المداعبة التمهيدية التي تسبق الاتصال الجنسي بين شخصين من جنس واحد ، أو من جنسين ، بالمعنى الدقيق للكلمة ، ونوعية وتقنيات هذه المداعبة التمهيدية ، وبالعكس فإن المداعبة التمهيدية هي عنصر تكويني من عناصر العمل الجنسي ، مندمج فيه ، كائنة ما كانت التقنيات المستخدمة أثناء ذلك، حسب الحالات، لكن بعض التقنيات الممكنة، المستخدمة بمثابة مداعبة تمهيدية ، يمكن أن تنفصل عن الممارسة الجنسية التناسلية تماماً كما تنفصل اللذة التمهيدية عن ذروة اللذة النهائية . ولا يمكن ، والحق يقال ، الكلام عن مثل هذا الانفصال ـ النكوصي ، المنحرف جنسياً ـ بصدد الطابع الجنسي للواجهة الجنسية ـ التناسلية ، لأن لدى هؤلاء الأشخاص ممارسة فعلية للحياة الجنسية التناسلية ، مهما كانت سطحية .

---

(١) على كل حال ، فإن كتابه « وظيفة الانتعاظ » (منشورات l'Arche ١٩٥٢ ـ انظر الفصلين الثاني والخامس من كتاب رايش هذا) لا يسمح بتفسير آخر .

بديهي أن فرويد لم يستطع أن يصف ، بالنسبة لعصره ، سوى نموذج الشذوذ الجنسي « الحقيقي » الموصوف بصدق وأمانة » . يقول فرويد :

« إنه العلاقة التي أثبتناها ، منذ قليل ، بين اللذة التمهيدية وحياة الطفل الجنسية ، إنما يدعمها العمل المرض ، الذي يمكن أن تمارسه هذه اللذة . ويكمن بصورة ظاهرة تماماً خطر معين ، في الآلية التي تشكل اللذة التمهيدية جزءاً منها ؛ وهذا الخطر ، المتعلق بنهاية العمل الجنسي الطبيعية يتجسد بصورة جلية منذ اللحظة التي تصبح فيها اللذة التمهيدية ، في مرحلة ما ، من العملية التمهيدية الجنسية ، كبيرة جداً ، في حين يظل مقدار التوتر ضعيفاً جداً . في هذه الحالة تضعف القوة الجنسية ، بحيث أن العملية الجنسية تعجز عن الاستمرار ، وتقصر الطريق الواجب اجتيازها ، ويحل العمل التمهيدي محل الهدف الطبيعي للممارسة الجنسية . ويفترض هذا ، حسب التجربة ، ان تكون المنطقة ، موضوع الحديث ، المولدة للشهوة الجنسية ورغبة الحب ، قد سبق لها خلال حياة الطفولة ، أن أسهمت بصورة مشددة في إحداث اللذة . وإذا كانت تضاف إلى ذلك فيما بعد ، ظروف معينة تنزع إلى ايجاد ثبات ومركزة ، فإن حالة إرغام سوف تظهر ، وستتعارض مع اندماج اللذة التمهيدية في الآلية الجديدة . وفعلاً فإن حالات انحرافات عديدة تتصف بمثل هذا التوقف عند الأعمال التمهيدية [١] » .

وبصدد النموذج الجنسي التناسلي ، ظاهرياً ، ليس بديهياً بالتأكيد أن الرغبة الجنسية الجزئية المطابقة ، قد أسهمت بمقدار كبير جداً ، منذ الحياة الطفولية ، في الحصول على اللذة . ولا وجود ، في الواقع ، لأية تجربة طبية سريرية une expérience clinique من شأنها أن تدعم ذلك . ولكن لا وجود ،

---

(١) فرويد – ثلاث دراسات .. المرجع المذكور – ص ١١٨ .

مطلقاً ، لسادي َشرجي، أو لفتيشي متوله تولها أعمى بالملابس الداخلية مثلاً ، أو بالأحذية ، أو الأقدام بمعنى الكلمة الكلاسيكي . إنه يمارس جيداً الملاقات مع أفراد من الجنس الآخر ، بل وفي أكثر الأحيان تؤدي تلك العلاقات إلى نتيجة هي بلوغ ذروة اللذة الجنسية . إن الشخص المنحرف جنسياً ، كما يصفه طب التحليل النفسي ، قد أخفق في تخطيه لعقدة أوديب وذلك بسبب تجارب ما قبل المرحلة الأوديبية [1] . وفتيشه يذكر الفتيشي ، باستمرار ، بقضيب المرأة، هذا القضيب الذي رفض في دخيلته هذا الشخص في المرحلة القضيبية أو ما قبل القضيبية الاعتراف بعدم وجوده . وهو يتصور أن عــدم وجود قضيب لدى المرأة يهدده هو أيضاً بأن يصبح مخصياً ، مثلها تمامــاً . لذلك يحتاج هو إلى فتيش القضيب النسائي لبلوغ إشباع الرغبة الجنسية « رغم كل شيء »، بواسطة هذا الحافز الطفولي والمرتبط بذكرى ما قبل المتعة. وشريطة أن يعزو الفتيشي، في استيهاماته، الفتيش إلى غرضه الجنسي أو أن يجدده مجدداً لديه، فإنه يستطيع التوصل إلى تبعية قوية جداً إزاء الغَرَض تبعاً للنموذج الماقبل الأوديبي .

والأمر مختلف بالنسبة للنمط الراهــن لواجهة الممارسة الجنسية التناسلية . أكيد أن هذا الشخص يعيش أيضاً وسط خشية دائمة من الخصاء ، كما بين ذلك بيتر بروكز في تصويره للجو الجنسي الذي كان سائداً أثناء (الصيف القائظ) في برلين [2] لكن على هذا النمط من الأشخاص أن يغير باستمرار صفاته الفتيشية،

---

(١) انظر فرويد « الفتيشية » الجزء ١٤، ص ٣١٢ « إذا قلت ان الفتيش يحل محل القضيب عضو الذكر، فمؤكد أنني سوف أستثير خيبة الأمل، لذلك أسارع وأضيف أنه لا يحل محل اي قضيب كان، بل محل قضيب محدد تماماً ومعين بذاته، يكون له في الطفولة المبكرة مدلول كبير، لكنه يتلاشى فيما بعد . وبصورة طبيعية ، كان ينبغي التخلي عنه ، لكن الفتيش يكون ماثلاً هنا بالضبط ليقيه من الزوال . وللتعبير بوضوح عن ذلك ، أقول إن الفتيش يحل محل قضيب المرأة (الأم) (...)

(٢) بروكز ، المرجع المذكور ص ١١٢ .

وكذلك أن يغير ، عند الاقتضاء ، الأغراض الجنسية التي ينسب اليها هذه الفتيشية . ونحن على كل حال ، ملزمون ضرورة بهذا الاستنتاج ، من قبل السلوك الجنسي المُعتَمد ، أمباشراً كان أم غير مباشر ، على نحو ما توصي به عوامل التكييف التضليلي ، والدُرجة بخاصة . إن الدرُجة المكيفَّة المضللة ، التي لا يمكن مطلقاً تشبيهها بالدُرجة في معناها التقليدي ، تقدم النموذج لسلوك هؤلاء الأشخاص ، سجناء اللذة التمهيدية . فالدعاية لا تعيّن لهم فقط نوعية الملابس والمساكن ، المعينة بهذه الملابس ذاتها ، والشهوَنة الغرامية الجزئية (الميني – جوب ، أو الماكسي – جوب) اللذين ينبغي له ولشريكته أن يتزينا وأن يحيطا نفسيهما بهما ، لكي يكونا موضوعين الرغبة . بل إن الدعاية تعين للشخص لون بشرته وشَعره ، وتسريحته وطريقة حلاقته وشكل عمرته (التي تحول الشكل الطبيعي لرأسه) ، ومشيته ، ومسلكه الذي ينبغي له أو شريكته أن يعتمداه للقيام بنشاطات خاصة – تدخين السيغار ، الامساك بكأس ويسكي ، ممارسة الحب ، السير في الشارع – بحيث يتم الاحتفاظ بقيمة هويته الراهنة ، في نفس مسارها . لقد جرى خفض جميع السمات الشخصية المميزة ، والتي كانت تجمل الغرض ، في الماضي ، مثيراً للرغبة ، بحيث لم تعد تلك السمات سوى لواحق ثانوية ، وقد أضفي عليها في الوقت نفسه الطابع الفتيشي . ويمكن عند الاقتضاء أن تُغير اللواحق الثانوية بين يوم وآخر ، نمط تعبيرها أو أن تتحول إلى عكسها . فنمط الطباع المذكور ليس ، بالمعنى الدقيق للكلمة ، منحرفاً جنسياً ذلك لأنه مع غرضه الجنسي أو مع أغراضه الجنسية التي تتناوب وفق مشيئة الاعلانات ، يتوافق دون تحفظ ، وجميع معايير إقامة العلاقات مع شخص من الجنس الآخر (وربما مع معايير الممارسة الجنسية مع شخص من نفس الجنس) . وهو لا يعدو كونه شخصاً فتيشياً عديم الاستقرار ، على الدوام . والسرعة التي تتغير بها فتيشاته هي في خاتمة المطاف تبع لسرعة تداول

الرأسمال . هذه النقطة أثبتها أدورنو هورخايمر منذ أكثر من عشرين عاماً [1].
إن السرعة التي تتغير بها الدرجة في أيامنا هذه ، والطابع القسري لظهور هذه الدرجة القائمة على أساس التكييف التضليلي ، يمكن أن يقدم البرهان التجريبي على هذه الوظيفة .



(١) في المرجع المذكور : ((Dialektik der Aufklarung) .

٥

بعض تجسدات الممارسة الجنسية في الرأسمالية المتأخرة زمنياً

لن نختار في هذا الفصل ، بمثابة أمثلة، سوى بضعة نماذج تستخدم لتكييف السلوك الجنسي اليوم . ونذكّر بأننا لا نعتزم وضع كتاب للتربية الجنسية ، بمعنى الكلمة ، الضيق ، التطبيقي قبـــل كل شيء . لذلك لا ينبغي الخلط بين الممارسات الجنسية التي سوف ندرسها ، والتقنيات الجنسية للتشديد وتكييف اللذة معاً ، وتقنيات منع الحمل ، والبحث عن شريك الحب ، الخ . وبديهي أن مؤلفات ، على غرار كتابنا هذا ، تنطلق أيضاً ، ودائمـــاً ، بصورة ضمنية على الأقل ، من مفاهيم سياسية وسوسيولوجية ، وتتوصل على الأقل إلى فرض مفاهيم مموهة لنظام سياسي واجتماعي محدد ، ولدى الأخذ في الحسبان الفوارق الحقيقية القائمة اليوم في التعبير اللغوي ، وفي فهم المحيط الاجتماعي للتطور الاقتصادي ، وفي الفكر التأملي الاستنباطي ، وعلى الأخص في الممارسة الجنسية ذاتها ، يمكن الاستنتاج بأن المؤلفات الانتقادية ، للتربية الجنسية ، هي ذاتهـا أيضاً يجب أن تكتب « تبعاً للتقسيم الاجتماعي » . ولعل التربية الجنسية أن تتخذ في تلك اللحظة خمسة أشكال مختلفة ، حسبما تكون موجهة : إلى فتيان وفتيات الفئات الدنيا ، أم إلى فتيان وفتيات الفئات الوسطى ، أم إلى راشدي

الفئات الدنيا أو المتزوجين أفراد هذه الفئات ، وإلى الراشدين والمتزوجين من الفئات الوسطى ، وإلى جماعات المثقفين ذوات الروح الانتقادية ، قبل كل شيء –على هذا النحو سوف تشمل تلك التربية الجنسية ، الفئات الاجتماعية غير المتناحرة ، ولكن التي توجد بينها ، رغم ذلك ، فوارق اجتماعية . حينئذ يمكن أن نكمل قائلين : إنه لأجل تحقيق إدمـــاج سياسي (وإدماج للحياة الجنسية) لهذه الفئات الاجتماعية ، فإنه ينبغي البدء بتفكيك اندماجها الفعلي ، لقد استخلص ويلهلم رايش ، بالنسبة لعصره ، هذا الاستنتاج ، لكنه فعل ذلك (ويمكن إثبات ما نقوله) ، مرفقاً ببعض المنظورات الحتمية ، في نظريته وممارسته على حد سواء ، لا تبررها المقتضيات الضرورية لتبسيط كتاباته ونشرها على نطاق جماهيري واسع . إن الرابطة ، التي لا غنى عنها اليوم ، والتي بدأت تتحقق ، بين عمل التربية السياسية ، وعمـــل التربية الجنسية ، لا تعفي من الضرورة ، التي لا تناقض الأولى ، ضرورة أن تفهم بأكثر ما يكون من الصحة والضبط ، آليات التطور المعقدة ، وتقنياته واتجاهاته ، والتي كثيراً ما يصعب إدراكها ، وهي تقوم اليوم بتوطيد السيطرة الاقتصادية والاجتماعية .

الممارسة الجنسية الجماعية ، مكملة للزواج

يوجد ، في مجتمعنا ، عملية فصل متكررة الحدوث ، وإن لم تكن منهجية ، بين الحنان ، والحس الشهواني . لكن هذين الأمرين ينبغي لهما أن يتطابقا ، بداهة أساساً ، في الزواج الأحادي . وذلك ما هو قائم ، كما يبـدو ، اليوم في نسبة وسطية أكبر منها في العائلة البورجوازيـــة (لا البورجوازية الصغيرة) الكلاسيكية ، التي استخدمت بمثابة نموذج وغرض للتقيد من قِبل التحليل النفسي ، أو في العائلة الارستقراطية ، التي كان باستطاعتها الاستغناء عن تلك القيم ، بما يملك ذوو السيطرة المطلقة من قدرة على السخاء . ولم يكن في وسع

الرغبات الجنسية أن تجد إشباعاً لها ؛ في اطار مؤسسة الزواج البورجوازي ، الاقتصادية قبل كل شيء ، إلا في حالات وظروف سعيدة استثنائية . لم تكن تلك الرغبات الجنسية مقبولة لدى المجتمع ، وفي الوقت نفسه لم يكن في وسعها أن تتجسد إلا في شكل احتجاج. ولم تكن تجد مكاناً لها في المؤسسات الرسمية، بل كان عليها ، بالعكس ، إن تلجـأ إلى حضيض المجتمع المفعم بؤساً ، إلى المواخير ، والحياة البوهيمية . هذا الرفض التقليدي لإشباع الرغبات الجنسية في إطار الحياة الزوجية ، قد ادخل شيئاً فشيئاً ، مع خطى تقدم الرأسمالية ونجاحاتها ، إلى الزواج ـ وذلك ليس دون أن يطرأ عليه تحول مميز : فقد جرى الانتقال ، من عدم إشباع ، تام ، للرغبة الجنسية ، إلى شبه إشباع . وقد أخلى الماخور المكان ، من جهة ، لاقامة بغاء على أرصفة الشوارع ، أو في السيارات ، التي لم تعد سوى مكان وظيفي للإفراغ الجنسي، ومن جهة أخرى ، لامكانات ، أرفع فعلاً ، لإشباع الرغبة الجنسية قبل الزواج ، وفيه . وعند الضرورة ، فإن وظائف الماخور ، المميزة ، لعملية الاثارة الجنسية أصبحت مقبولة في الزواج ذاته : الأدوات والمنتوجات ، التي لم يكن بورجوازي أواخر القرن التاسع عشر يستطيع أن يتصورها إلا وراء ستائر ماخور ما ، تجد اليوم مكانها في غرفة النوم الزوجية ، ويجري صنعها الآن بالجملة وتوزيعها من قبل مؤسسة Beate uhse ـ أو في صيغة أكثر سادية من قبل مخازن متخصصة شبه سرية ، تقوم ببيع تلك الأدوات والمنتوجات بصورة شبه سرية أيضاً .

والمقصود بـ « شبه إشباع الرغبة الجنسية » أنّ تقنيات التكييف الجنسي ، من جهة (انظر الأمثلة التي أخذناها من مجلة « ايلترن » وأوردناها في الفصل الثالث من هذا الكتاب) تُستخدم على نطاق واسع ، لكن هذه التقنيات هي من جهة اخرى ، خاضعة ، بقوة الأشياء ، لوضع ميئوس منه بالنسبة لتكييف الزوجين . وينبغي لها أن تندرج في النية المحددة باللذة التمهيدية المتعذر اشباعها ، والمفروضة على الأشخاص قبل الزواج (وطبعاً أثناء الزواج أيضاً) .

ومؤكد أن عليها الآن « أثناء أجمل سني حياتها » ، أن يفيدا من الوضع أفضل فائدة ، أي أن عليها أن يعطيا في الزواج أفضل ما في كيانهما ، على الصعيد الجنسي ؛ لكن هذا « الأفضل » يجد حواجزه شبه الطبيعة في أمور يتعذر توفرها كلها دائماً : الجمال ، والصبا ، والنضارة ، والنجاح ، هذه الأمور التي تُطريها باجلال الكليشات الدعائية ، والتي ترغم أيضاً الأشخاص المتزوجين على القيام بعملية تقليد مستمرة لا انقطاع لها . وللقيام بوظيفة التربية الاجتماعية هذه ، نشأ أدب خاص ومجموعة مطبوعات مكرسة لهذا الغرض . وفي فهرست المبيع الذي بعنوان « **سعداء – طوال الحياة** » الصادر عن مؤسسة Beate uhse ، حيث يوجد كذلك ، في عداد محتوياته ، هذا النوع من المطبوعات ، نستطيع أن نقرأ ما يلي في مقطع « ماذا عن الجنس في الزواج ؟ » : « إذا ما آلت العلاقات في زواج ما ، إلى الفتور ، فذلك لأن المرأة ، بعد أن تحولت إلى زوجة وإلى ربة منزل ، كثيراً جداً ما تكون قد أهملت أن تعنى بمؤهلاتها الجنسية نفس عنايتها بمنزلها . إلا أن الحياة الجنسية هي في مثل أهمية زاوية التلفزيون ، أو قطعة اللحم المشوي يوم الأحد[1] » . وتبين الاشارة إلى « زاوية التلفزيون » ، وهي رمز لمرتبة اجتماعية معينة ، أن عملية التكييف هذه تتوجه (أو تريد أن تتوجه) إلى الجمهور الواسع من الأشخاص المتزوجين المنتمين إلى فئات وسطى – دنيا ، والفئات التي تحتها ، وليس إلى الفئات الوسطى ، حسبما كان يمكن أن يظن تبعاً للتحليلات التي أجريت حتى الآن على التكييف الجنسي التضليلي .

ولكن سيكون من الخطأ أن نرى في عمليات الارغام هذه الملازمة للدعاية التكييفية التضليلية – أي الجنسنة sexualisation في الحدود الضيقة للذة

(١) انظر فهرست :

Beate Uhse versandhaus fur Ehehygiene : Gluklich - ein Leben lang. Flensburg. 1967. p. 38

التمهيدية المتعذر إشباعها - عمليات الإرغام الوحيدة التي تواجهها عملية التكييف الزوجي العصري . وأهم من ذلك بكثير هي اضطرابات الوظائف النفسية ، الناتجة مباشرة عن مكان العمل ، والتي هي ولا شك شديدة الخطورة إلى حد تعجز معه الحياة الجنسية عن القيـــام بوظيفتها في شغل أمسيات الفراغ ، أو وظيفتها في حق الامتلاك بلا منازع ، الممنوحة لها تقليدياً في المجتمعات الرأسمالية . وقد سبق لاحصائيات راينووتر [1] أن أعطتنا فكرة وجيزة عن الواقع ذي الدلالة ، واقع أن الأشخاص الأكثر استلاباً بسبب عملهم كثيراً ما يصيرون ، بكل بساطة ، عاجزين جنسياً ، في علاقاتهم الزوجية . فإذا ما أخذنا في الحسبان استمرارية نشر الجو الجنسي ، بصورة دائمة ، في الميادين الأخرى للحياة ، فلا بد أن يؤدي ذلك إلى قيام تناقض في مؤسسة الزواج ، وهو تناقض يمكن أن يولد صعوبات غير مرغوب فيها اجتماعياً ، بالنسبة للتكييف الزوجي . والأزواج الجاري تكييفهم تضليلاً على هذا النحو واعون ، بهذه الصورة أم تلك ، لتلك الصعوبات ، لكن هذه الصعوبات تجعل منها جزءاً لا تتجزأ من عمليه التكييف الزوجي هذه ، التي « تتكلم جهاراً عن هذه القضايا ، وتدعي أن تلك الصعوبات لا يمكن حلها إلا بصورة إفرادية ، قطعاً » . وهكذا فإن التحقيقات التجريبية القليلة جداً - والمشكوك فيها ، من جهة أخرى ، من حيث الطريقة المستخدمة - التي في حوزتنا عن الجمهورية الاتحادية الالمانيـــة ، تشير إلى استقرار مؤسسة الزواج . وهكذا ، فحسب استفتاء قام به معهد أللنسباخ ، كان عدد الذين تزوجوا في الستينات أكبر منه في مطلع الخمسينات ، ويعلن أولئك « رضاهم » عن زواجهم [2] . وهذا الرضا ينعكس أيضاً في عدد حالات الطلاق ، الذي لم يتغير خلال السنوات الأخيرة [3] . وبديهي أن هذا الاستقرار لا يطابق ،

---

(1) انظر اللوحتين 1 و 2 .

(2) انظر Schwarzenauer المرجع المذكور .

(3) انظر Statistis-ches Jahrbuch Fur die PRD p. 58 .

بالضرورة ، إشباعاً أعلى ، للرغبة الجنسية ، وهو أيضاً أقل من ذلك مطابقة لمقولة « السعادة الزوجية » الايديولوجية هي ذاتها ؛ وعديدة هي الأسباب التي تنزع إلى إثبات أن هذا الاستقرار هو نتيجة رقابة اجتماعية مشددة ، أي نتيجة لعجز عن رؤية شر موضوعي في عذاب ذاتي . وينشأ لدى المرء انطباع بأنه يقرأ رواية « سوداء » من روايات العلم - التخيلي حين يتصفح أوصاف السلع المختلفة ، الواردة في الفهارس المذكورة ، والمخصصة ليس فقط لاعاذة القابلية إزاء السعادة ، التي أنقصها القسر في العمل ، بل أيضاً عدم القابلية على الاعتراف بعذاب ذاتي ، بصفته كذلك . إليكم ما يقوله إعـلان عن منتوج « سيتيرا - كوكتيل » المثير للشهوة : « إذا كان جو منزلكم يسوده « السأم والرتابة » وإن كانت مشاعركم لم تصبح ، بعد متناغمة ، وإذا كنتم تتمنون الاتحاد وسط جو من البهجة والغبطة الغامرتين ، إذن ، ارتشفوا كأساً صغـيرة من « سيتيرا » « إن (سيتيرا - كوكتيل) تزيل جو السأم والرتابة اليوميين ، وتذيبهما في الرغبة الممتعة ، وتجعلكم تتحدون في بهجة عميقة [١] » .

ومع ذلك يبدو كل هذا انـه معاكس لممارسة العمليات الجنسية بصورة جماعية ، هذا صحيح ، فـلا ينبغي أن نعتبر بصفته نزعة إلى الممارسة الجنسية الجماعية التواتر المتزايد باستمرار - خلال الخمسين عامـاً الأخيرة - للعلاقات الجنسية خارج السرير الزوجي ، ذلك لأن هذا التواتر يقف عنـد حدود « بورجوازية » تماماً ، في الولايات المتحدة [٢] وفي الجمهورية الاتحادية الالمانية على حد سواء [٣] . وبصرف النظر عن الكثرة التي نمارس بها هذه العلاقات ، خارج السرير الزوجي ، يجب أن نضيف إلى هذه العلاقة ، شكلاً نوعيـاً من

---

(١) Beate Uhse katalog المرجع المذكور ، ص ٣٩ .
(٢) كنسي - المرجع المذكور ص ٣٣٩ .
(٣) Schwarzenauer المرجع المذكور .

اختيار الفرض ، بحيث يصبح هـــذا السلوك يستحق اسم « الممارسة الجنسية الجماعية » ، والمقصود به لامبالاة معينة ، أو مطلقة إزاء الفرض . ويعرف قاموس كنور Knaur « الممارسة الجنسية الجماعية » بأنها « خليط من الأشخاص بدون قاعدة ولا تمييز داخل جماعات كاملة » . ومؤكد أن هـــذا الشكل من العلاقة الجنسية ليس مرتبطاً بمؤسسة الزواج . لكن من المؤكد كذلك ، من الناحية التاريخية ، أن هذا الشكل من العلاقة يتدخل بمثابة رد فعل على الزواج الأحادي ، ويمارسه حالياً أشخاص متزوجون .

إن الصيغة الأكثر رواجاً لعملية تكييف الزوجين الجنسية ، تنشر مراراً متزايدة أكثر فأكثر أشكالاً معينة من العلاقة الجنسية خارج السرير الزوجي ، وينتظر من الشريك الزوجي ، إن لم يكن التشجيع ، فتسامح ظاهر جلي ، على على الأقل . والمثال الكلاسيكي لهذه الصيغة تقدمه لنا كتب أ . إيليس ، التي كثيراً ما تستشهد به في مقالاتها المجلات المصورة الكبرى [1] . ويستند إيليس ، عن خطأ ، إلى فرويد ، وبشيء من الصواب تقريباً الى كنسي وويلهلم رايش . ولاقتراحات ايليس شبه واضح بالممارسة الحديثة للعملية الجنسية الجماعية ، ولكن بفارق أن هذه الممارسة الجنسية الجماعية تمضي الى أبعد بكثير ممـــا تدعو اليه اقتراحات إيليس . ولكي نتمكن من أن نفهم الشكل « الجديـــد » لتكييف الزوجين ، يبدو لنا شيئاً جوهرياً القيام بدراسة عملية ممارسة الجنسية الجماعية التي تمارس اليوم .

وللقيام بذلك ، لا يوجد في حوزتنا سوى التحقيق الصحفي بعنوان (حول أنواع السلوك الجنسي للجماعات في الولايات المتحدة) وتقرير لايغ الشهير [1] ،

---

(١) أنظر ، اولا ، ألبرت إيليس . Handbuck der intelligenten Frau Flensburg, 1967.

(٢) ميخائيل لايغ . - Leigh - Report - sexuelles Gruppenver halten in der U. S. A. Bad Godesberg, 1965.

الذي لا يقتصر عيبه على أنه مشوش ، بل أيضاً أنه لا يحتوي على أي معطى إحصائي . وهو يقدم ، عوضاً عن ذلك ، مقداراً وافراً من المواد ، يمكن تصنيفها وفقاً للموضوعات التالية :

١) يصف التقرير سلوكاً جنسياً في أغلب الأحيان لأشخاص متزوجين ، يمارسون بكثرة قدر الامكان علاقات جنسية مجتمعين (وبصورة استثنائية ينفرد الزوجان لممارسة الجنس) وذلك مع أكبر عدد ممكن من الشركاء ، وبأكثر ما يمكن من التنوع ، ولا أهمية للجنس (ذكوراً كان الممارسون أم أناثاً) ، ولا لكونهم متزوجين أم لا (انظر ١٣) .

٢) هذا السلوك نجده في جميع انحاء أميركا الشمالية وكندا ؛ ولا نعرف ، لا الأرقام المطلقة ، ولا النسبة المئوية لممارسي هذا السلوك بين السكان . وقد تمكن لابغ وحده ، في أقل من ستة أشهر ، من الاتصال بأكثر من ٥٠٠ رجل متزوجين ، عرض كل منهم على لابغ زوجته ، وهي موافقة تماماً . وقبل ذلك العهد ، لم تكن لديه مطلقاً أية تجربة لتقنيات إجراء الاتصال (انظر ص ١٩) يضاف إلى ذلك ، عدد أدنى قليلاً ، من الرجال والنساء العازبين .

٣) هذا السلوك تمارسه ، على الأخص، الجماعات المهنية من القطاع الثالث [١] (ولكن ليس فقط الجماعات ذات الحركية الكبيرة) وبخاصة، الفئات الوسطى وما فوقها . وأبرز هذه الجماعات المهنية ، في هذا المجال من العلاقات ، هي التالية : المهندسون المعماريون، والممرضات، والمهندسون المتعددو الاختصاصات والتجار ، وموظفو الدولة (ص ١٤) .

٤) إن الأشخاص الذين يمارسون العمليات الجنسية المشتركة ، ولا سيما

---

(١) القطاع الثالث : فئة من السكان تعمل في التجارة والخدمات والتأمينات الخ (المترجم نقلاً عن « المنهل ») .

الشركاء المزدوجين ، هم بصورة وسطية ذوو تكيف جيد مرموق على الصعيد الاجتماعي . والنسبة بين الشركاء ذوي الأولاد والشركاء الذين هم دون أولاد هي نفسها لدى المتزوجين الأحاديين .. « (...) في جميع الحالات الأخرى ، كان الرجال يملكون تبادل علاقات جيدة أو يشغلون مراكز حسنة الراتب ؛ وكانوا يجعلون من بيع الصور الخلاعية الداعرة ، صورهم وصور زوجاتهم نوعاً من الهواية ، إذا صح التعبير ، على هامش نشاطهم » (ص ٨٣) . « (...) إن الزوج والزوجة اللذين التقيت بهما في الأوريغون لم تكن لديهما أية تجربة جنسية في فترة ما قبل الزواج . وكانت حفلة زفاف الشاب والفتاة تكرس ذروة حب نشأ في الجامعة [...] . وبسبب من إعلان ما ، في مجلة مصورة كبرى ، استثار فضولهما ، فقد غاصا دفعة واحدة في عالم تبادل الجنس وممارسته على نطاق واسع ، مثير . وكل منهما هو الآن في زهاء الأربعين من عمره ، ولديهما غلامان في حدود السادسة عشرة من عمريهما ، ويقوم الزوج بادارة مؤسسة يملكها . وهما يذهبان إلى الكنيسة بانتظام . [...] » (ص ١٠٣) . وهما لا يجهلان أي شيء في هذا الميدان ، ورغم ذلك فهما يريدان دائماً وباستمرار أن يسمعا شخصاً آخر ما يعرفانه منذ زمن طويل بل ويستظهرانه عن ظهر قلب . إنهما يريدان أن يحصلا في كل مرة على التأكيد بأنهما ليسا وحدهما ، ويريدان أن يثبتا لنفسيهما بأنهما طبيعيان ! » [ص ١١٤] . ويؤكد لابغ عن هؤلاء الأزواج والزوجات أنهم يربون أولادهم « بصورة ممتازة » (ص١٤) لكنه يستند فقط إلى — معلوماتهم هم أنفسهم .

٥) هؤلاء الأشخاص لم يصوغوا لأنفسهم ، في أغلب الحالات ، سوى ايديولوجية جزئية ، مضادة للبيوريتانية . ويقتصر انتقاد الوضع فيها على إدانة للاخلاقية الجنسية البيوريتانية ، مبغضة البشر ، والمنافقة ، التي يبشر بها في الولايات المتحدة .

٦) كثيرون من هؤلاء الأشخاص يمارسون تقنيات سادية ـ مازوخية .

ويدعي بعضهم أن ذلك ليس بالنسبة إليهم سوى هواية ـ لم يعد باستطاعتهم على كل حال الاستغناء عنهـــا ـ وانهم لا يتصرفون هكذا تحت ضغط إكراه أصلي (قسر أو إرغام) . ولتموين هؤلاء ، نشأت صناعة متخصصة ، وهي ليست مدينة على كل حال بمنشأها للممارسة « العائلية » الجماعية للعمليات الجنسية . وهناك فهرست خاص للسادية « العائلية » عنوانه « **الى جميع هواة القيود وعمليات العقاب العائلية** » يقترح في باب « الجلد » الأصناف التالية : « كمامات ذات سيور جلدية ، قيود جلدية ، أصفاد للمراقيب ، أصفاد للقبضتين، خوذات جلدية ، قفازات جلدية ، جزمات جلدية طويلة ، رشيشات جلدية ، أردان من الجلد، أغطية جلدية واقية للذراعين، أطواق جلدية ، سوط ذو سير جلدي، أحزمة بكارة ، تنانير جلدية ، أقنعة جلدية » (ص ٧٧) وسعر كل صنف من هذه الأصناف يتراوح بين ١٠ و ٤٠ دولاراً .

٧) لقد التقطت صور فوتوغرافية لكل شيء ، دون استثناء ، تسجيـــل النشاط الجنسي بواسطة صور فوتوغرافية ، وأفلام ، وتبادل الصور الخلاعية التي تصور « المنزل من الداخل » ، وتأمل هذه الصور ، وإرسالها بالبريد ، كل هذا يبدو أنه عنصر لا غنى عنه من عملية الممارسة الجماعية العائلية المختلطة ، وينشأ لدى المرء أحياناً الانطباع ، بأن هذا النوع من الصور الفوتوغرافية ، قد حل ، بكل بساطة ، لدى الأزواج المذكورين ، محل ألبوم العائلة ؛ ولكن بصورة عامة ، فإن الاضطرار إلى التقاط الصور الفوتوغرافية وعرض هـــذه الصور يشكل ، بقوة ، جزءاً من هذه الهواية أكثر مما نجده بالنسبة للعطلات العائلية التقليدية ـ هناك زوجان رفضا عرضاً خاصاً مكتوباً لأنه لم يعد يمكن التفكير تقريباً ، بالنسبة للزوجين ، في أن يبلغا المتعة الجنسية بدون مشاهد آخر ، أو بـــدون صوت تكتكة آلة التصوير » (ص ٥٨) . « إن الأزواج والزوجات والذكور والاناث الآخرين الذين يمارسون ما يسمى العقاب المنزلي لا لا يكتفون بتبادل صور فوتوغرافية مع آخرين من أمثالهم ، بل إنهم ، بالعكس،

يحسون بالرغبة الغريبة في إشراك عدد متزايد باستمرار ، في ذلك [...] » (ص ٧٦) . وقد أجاب زوج على أحد الاعلانات قائلاً : « [...] نحن عملياً نحب كل شيء ، ولكن على الأخص ما يشذ عن الحالات العادية . إن لدينا آلة تصوير للتظهير الآني قدمت لنا حق الآن خدمات كثيرة أثناء حفلاتنا » (ص ٩٤) . ولكن هذا الهوس الإرغامي في التقاط الصور الفوتوغرافية وجمعهـا ليس مجرد شكل منفرد من أشكال النزعة التلصصية [١] أو الاستعرائية [٢]

٨) كثيراً ما يفعل هؤلاء الأشخاص مختلف أنواع الأمور الممكنة ، كلها ، ما عدا واحداً . وهذا « الشيء » يختلف كثيراً تبعاً للحالات ، ففي أكثر الأحيان تمارس ثمة علاقات بين أفراد الجنس الواحد ، بصورة عامة ، وفي حالات أكثر أيضاً الايلاج الشرجي السلبي ، وفي بعض الأحيان تمارس عمليات خاصة معينة ، مثلاً « هذان الزوجان كان لديهما اشمئزاز من الشَّعر ، وقد وضعا طريقة لنتف الشعر ، تضمن إزالة كل نفور من الأشياء التي تحك » .. وكانت لديهما حلقة واسعة من الأتباع ، لكن كان ثمة بينهم كذلك أزواج يخيبون آمالهم » ، ومرة ـ الكلام هنا لزوجين دون أولاد ـ أفسد كل لذتنا صياح أولاد الزوجين الآخرين : « فلدى الزوجين الآخرين ، الذين كنا نقضي معهما الليل ، كان ثمـة ثلاثة أولاد مشاغبين يرقدون في الغرفة المجاورة ، كان ذلك مزعجاً جـــداً (ص ١٠٦) .

٩) يدعي أصحاب العلاقة ، عادة أ) أن الجنس والحب هما شيئان مختلفان تماماً . ب) أنهم متحابون ج) أنهم لأجل تبادل الحب فعلا ، يحتاجون إلى

---

(١) التلصصية : voyeurisme . نزعة التلذذ بالنظر الى مشهد غرامي مثير (المترجم ـ نقلاً عن قاموس « المنهل ») .

(٢) الاستعرائية exhibitionnisme . نزعة مرضية الى اظهار العورة (المترجم من قاموس « المنهل »).

مجموعة كبيرة من التنويعات والتجارب الجنسية – هذه المرأة كانت ، بموافقة زوجها ، تسعى باستمرار لاشباع رغبات وجني متع جديدة . لقد جربت مرة الاتصال الشرجي ، لكنها لشدة تضايقها ، فقد بقيت دون إشباع رغبتها. ومع ذلك ، فقد ظلت تحتفظ بالرغبة الملهبة في « تجربة كل شيء » ، بحيث أنهما اتفقا على أن الشخص الكندي يقوم بتدريبها في ميعاد مقبل ، نظراً لأن حجم قضيبه كان أكثر تواضعاً من حجم قضيب زوجها [...] . وتلك المرأة الاخري كانت مجنونة بالحيوانات [...] . وتقول معلقة ، في جملة آخرين : « [...] لقد حصلنا على اللذة . أجل ، لقد قلت ، حصلنا ، أي نحن كلانا . وكان في مثل شغفي واحتدام عواطفي [...] كم كان ذلك مثيراً ! » (ص ١٠٧) . وحسب قول امرأة اخرى ، فإن جميع الاشخاص المعنيين قد أجمعوا على أن موقفهم إزاء العلاقة الجنسية كان أصح وأكثر غنى وتعدد وجوه وأضبط من العلاقة الجنسية لدى أغلب الأزواج الآخرين ، ذكوراً وإناثاً ، وقد أكد الأولون أنهم اجتنبوا على هذا النحو كثيراً من حالات الطلاق وكانوا مقتنعين بأنهم يعيشون حياة زوجية وعائلية أكثر سعادة بما لا يقاس . وكانوا يدعون أنهم لم يكونوا يعرفون أي نوع من أنواع الكبت أو الحرمان أو (موجات الفتور) التي يعانيها الأزواج الآخرون ، ولا الوضع اليائس في حالات الزواج العادية ، حيث أحد الزوجين يتأجج رغبة ، في حين يكون الآخر بارداً ، وقد أكد فيما بعد أنه (لا يوجد أحد من الأشخاص المعنيين يخدع الآخرين) » (ص ٤٣) .

١٠) يرى لايغ الخطر الخاص لانتشار هذا السلوك في « انتشاره الوبائي » « إذا أمكن الاعتياد جنسياً على شريك معين ، فسوف يمكن إثر ذلك الاعتياد على جميع الشركاء » (ص ١٠٢) . وسيكون في ذلك حينئذ تقويض وجود الحضارة الغربية . وهو يوصي ، بمثابة أفضل وسيلة للقمع ، بتطبيق صارم للقوانين ، ولا سيما الرقابة على البريد .

إن تقييم لايخ ليس ملائماً جداً ، و « نظريته عن الوباء » سطحية ، بلا شك وهي توحي للمرء ، كما هو ظاهر ، بأن السلوك يستجيب لضرورة اجتماعية معينة ، فهل يمكن القبول فعلاً بهذه الضرورة الاجتماعية ، وبعبارة اخرى ، النزعة لانتشار أنواع السلوك الجنسية هذه « دونما تمييز » ؟ يصعب أن يُبت في الأمر بصورة قاطعة ، بما أن المواد المتوفرة ،حتى مواد علم الإجرام الجنسي[1]، لا تتيح أن تستخلص منها استنتاجات ، لكن المؤكد أن مقولات علم الأمراض الجنسية التقليدي لا تقدم أية مساعدة لأجل الحكم على مثل هذا السلوك . ذلك لأن هذه المقولات من شأنها الإقرار ـ وهذه وجهة نظر فرويد – بوجود عدد معين في المجتمع من الأشخاص غير الطبيعيين، يخضعون لرغباتهم بأكثر من النسبة الوسطية ؛ ويشكل هؤلاء المكمل الذي لا غنى عنه للمعيار ، خارج جميع التدابير الاجتماعية حول مصير الرغبة الجنسية ، وتلك المقولات تفترض لكل مجتمع نسبة وسطية دائمة من الجرائم ، وحالات الانحراف الجنسي ، وأمراض العصاب ، الخ .

اثناء المناقشة الانتقادية ، وفي المؤلفات الاشتراكية غير الجامدة عقائدياً ، جرت المطالبة ، مراراً عديدة ، بالممارسة الجنسية الجماعية المختلطة ، بصفتها شكلاً مطابقاً للممارسة الاشتراكية . وقد ارتبطت هذه المطالبة دائماً بالرغبة في التغلب على المتطلبات القمعية ، للافتتان والحب والزواج ؛ البورجوازية ، أي بمبدأ الغاء الملكية الخاصة . والواقع ، أن الافتتان والحب وجميع مفاهيم الزواج والعائلة ، الماضية والحالية ، على حد سواء ، تفرز علاقات امتلاك . وينبغي أن نتساءل إذا كانت علاقات الامتلاك هذه تطابق دائماً العلاقة القمعية القائمة بين الملكية الخاصة وعاقبتها وهي الفساد التقييدي ، للطباع الاجتماعية والشخصية ، أم أن ثمة أشكالاً « للامتلاك » مطابقة لعلاقة الفرض المستقل

---

(١) حتى المواد المستخدمة في sex-offenders لاتقدم لنا أية معلومات في هذا الصدد.

ذاتياً والواعي ، ممكنة التصور ، ومشروعة . وحتى في عمليات المطالبة الأكثر تشوشاً وغموضاً ، والأكثر خلواً من التفكير ، التي كانت تطالب بتخطي التنظيم الجنسي القمعي ، لم يكن الأمر يتعلق ، كما يبدو ، بأشكال مماثلة من الانتصار على الثالوث القمعي : الحب - الممارسة الجنسية - القمع . إن الممارسة الجنسية الجماعية المختلطة التي يشير اليها هؤلاء الاشتراكيون ذوو الإرادة الطيبة ، والفكر المحدود ، هي في حد ذاتها قمعية إلى أقصى حد ، وتسهم في تحقيق الاستقرار للتنظيم الاجتماعي المتخلف المتسلط . فالحالات التي وصفها لايغ ، مثلاً ، تتصف كلها بواقع أن الأفراد المذكورين يحاولون شفاء كل الضيق الذي يحسّون به في حياتهم ، بنوع من الانتصار الرياضي الدائم . وحتى حين يعتادون هذه الممارسة اعتيادهم على مخدر ، وذلك ما يحدث بصورة عامة ، فإنهم لا يدركون أن حالتهم كخاضعين لتأثير المخدر هو التعبير عن حالة عدم الرضى التي تبعثها فيهم حياتهم ؛ والأصح القول إنهم يرون في ذلك ممارسة رياضية مشطورة . فالشكل الأكثر انتشاراً للعلاقة الجنسية ، وهو التعلق القسري بشريك ، أو بعبارة أفضل الاستعمال القسري لشريك ، المفروض بمثابة واجب ، لا يلغى إلا ظاهرياً خارج جميع القواعد والتمييزات ، القسرية على غرار ذلك هي أيضاً ، في السلوك إزاء جميع الشركاء . ذلك لأن « فقدان كل قاعدة » هذا يخضع بالمقابل إلى قواعد وتمييزات محددة بدقة ، مرتبطة ، بالنسبة لعلم الأمراض ، بالحالات الارغامية لمجموعة شروط الزواج الأحادي .

هؤلاء الأشخاص متكيفون إلى درجة عالية جداً ؛ وقد وجدوا هذه الممارسة « ممتعة مسلية » تخفف عنهم كآبة الحياة اليومية ورتابتها ، وهم يعيشون لقضية « تروق » لهم . ولدى القيام بذلك ، يكونون مدفوعين باكراه على التكرار ، ناتج عن أذى أصيبوا به في المرحلة ما قبل الاوديبية . وكأنما هم يقولون : إذا لم يكن يحق لي أن أكون سعيداً مع الفرض الأوحد المحبوب ، إذن فالحب لا يساوي شيئاً ، وأريد أن أعلن جميع الأشياء غرضاً للحياة

الجنسية ، وهكذا أنتقم من غرض الحب ، المستحيل المنال . هؤلاء الإشخاص هم أيضا ينصبون واجهة جنسية تناسلية صارخة ، على نحو مفرط ، لكنها لا تنشأ هنا إلا لاخفاء الأمراض ذات المنشأ ما قبل الجنسي - التناسلي . وتكون نتيجة ذلك أن الحياة الجنسية قد حوُلت إلى سلع رأسمالية ، تجد تجسيدها الأكثر انطباطاً في القيم الاعلانية وازدياد الاستهلاك بمقدار غير محدود . وتزايد الاستهلاك ، هذا ، ينقل إلى مقولات الحياة الجنسية : إن مختلف السلع لا تأتيني بأي إشباع لرغبتي . وهي تبقيني على جوعي ، ذلك لأن عملي يقتصر على استهلاكها ، دون أن يكون لي الحق باستخدامها . وحينئذ أريد على الأقل ، أن استهلكها « إلى النهاية ، وحتى الأعماق ، وأعطيها الحد الأقصى من القيمة المتبادلة ، والقيام بالدعاية لها ، وتصويرها ، وجمعها في مجموعات ، ومعاملتها بصورة سادية ، الخ . ويمكن إعطاء فكرة عن شكل فتيشية السلعة هذا بواسطة مثال لا يميزه شيء استثنائي ، وهو مثال مأخوذ من « تقرير لايغ » :

« كان العدد الاجمالي ست عشرة صورة فوتوغرافية ، اثنتان منهما تمثلان الذكر والانثى بمايوه السباحة وبالبكيني ، والصور الأربع عشرة الأخرى كانت تمثل الزوجين في جميع أوضاع الممارسة الجنسية ، التي يمكن تصوُّرها : الجماع الطبيعي ، ولعق القضيب والتباطؤ في إجراء العملية الجنسية وإطالة مدة المتعة والتقنيات السحاقية ، ولأجل بعض هذه الممارسات ، طُلبت معاونة سيدة ثانية . وكان الغرض من مجموعة الوثائق الفوتوغرافية هذه هي أن يجري بالنسبة للأعضاء المتطرين ، عرض مصور لمتعة الحواس ، التي يحق لهم توقعها .

وبينها كانت ثمة صور لعراة تمثل الرجل والمرأة في أوضاع أشد ما يمكن إثارة ، إذ أن المفاتن الأنثوية بما فيها الأعضاء التناسلية معروضة بكاملها في الضوء ، ومرة أيضا يكون القضيب منتصباً . ثم صور لتفاصيل جسد المرأة وهي عارية إلا من رافعة النهدين و « سليب » الفرو - المدعي أنه من فرو

الفيزون – وهناك صورة تظهر المرأة عارية تحت معطف من الفرو ، ومنتعلة الحذاء .

وثمة صورة لامرأة تمتطي كالفارس ، ركبتي زوجها ، وتمارس معه العملية الجنسية ، في حين نجد فتاة سويدية صبية راكعة أمامها – ومنحنية انحناءة صغيرة إلى جانب لكي لا تعترض عدسة المصور ، صديقها – وكانت الشابة السويدية تشارك يدوياً في جماع الزوجين .

وفي صورة اخرى ، مأخوذة على نفس النحو ، حلت الصديقة محل الزوجة ، في حين كانت هذه ، تساعدهما ، بدورها ، يدوياً ، وهي تبتسم .. وما كان غير مرئي على الصورة كان موضحاً كتابة ، وكل هذا لتحقيق غرض واحد ، وهو جمع أكبر عدد ممكن من « المنتسبين » ، متزوجين وغير متزوجين » (ص ١٣٧ وما يليها) .

كانت النزعة الاستعرائية exhibitionnisme الكلاسيكية تعبر بحركاتها : في الواقع أنا أخاف من الخصاء ، ولكن انظر ، إنني لست مخصياً . أو : اخصني ، فلست أخاف الخصاء مطلقاً ، انظر ، انني أستطيع حتى أن أريك قضيبي ، وها أنت ترى كم أنا قوي . وبنفس الطريقة قام الفتيشي بحماية نفسه من خشية الخصاء باطلاقهم القضيب نحو المرأة . ويبدو الرجال والنساء الذين يعرضهم « تقرير لايغ » أنهم يؤرقهم ، على نحو متشابه تماماً ، الخوف من أن يكونوا فاقدي الأعضاء الجنسية . وهم أيضاً ، في تخطيهم لمرحلة الخوف من الخصاء ، يبقون مجمدين عند مرحلة ما قبل – جنسية – تناسلية . وعليهم ، تماماً شأن الاستعرائي ، أن يبرهنوا دون انقطاع عن أنهم « حقاً » ذوو أعضاء جنسية – تناسلية ، لكنهم يمضون إلى أبعد من ذلك أيضاً ، وهم يريدون أن يقولوا ،

بواسطة مجموعة صورهم الفوتوغرافية ، لمن يحيطون بهم : ان متطلبات الزواج الجنسية ـ التناسلية والحب تجعلنا في حالة شقاء ـ ولكن انظروا ، ها نحن نجرجر هذه المتطلبات في الوحل بجميع الطرق الممكنة . ولكن لا تتجاسروا على أن تمسوا هذه الواجهة الجنسية ـ التناسلية للحب والزواج – بل انظروا كيف يمتعنا ذلك ويستثيرنا .

هذه المعطيات تفسر عملية نتف الشعر الارغامية (لدى العديدين من الذكور والاناث – كما تفسر موقف الاشمئزاز الظاهر تماماً إزاء الأولاد (هذا الموقف الذي وجد لدى زوجين ذكر وانثى ، في الوقت نفسه مع تطلب نزع الشعر) إن نتف الشعر هو في الوقت نفسه عمل خصاء لدى الرجـــل والمرأة (انتزاع الشعر وقصه) وهو محاولة لإيجاد حالة طفولية مجدداً (ما قبـــل الجنسية – التناسلية) مع « بشرة ملساء » يتأسف هؤلاء الأشخاص على زوالها . وحينئذ لا يكون الموقف الدفاعي إزاء الأولاد (« المشاغبين » « الزعران الصياحين » الذين يضايقون الرجل والمرأة أثناء عملية الجماع) سوى الدفاع الظاهر تماماً عن رغبة لاوعية ، ومحظورة ، الرغبة في أن يتصرف الراشد هو نفسه تصرف ولد (« أن يصيح » لفرط اللذة) .

توجد ، بصورة رئيسية ، ثلاثة عوامـــل ، تعارض تكون تنظيم عضوي جنسي تناسلي يجعل الشخص مؤهلاً للذة ولتطوير مؤهلات مطابقة في الطباع :

١) الاعداد غير الكافي للتنظيم الجنسي التناسلي ، في العائـــلة أو في المحيط المجاور ؛ وبسبب مجموعة كبيرة من التأثيرات الاجتماعية والتقنيات التربوية ، يكون هؤلاء الأشخاص عاجزين تماماً (أو بصورة غير كاملة) عن أن يتمثلوا المراحل الطفولية ، المعينة بيولوجيا ، وللتطور الجنسي (المراحل : الفموية ، والشرجية ، والقضيبية) بحيث يتمركز هذا التطور فيما بعد ، ويتكون التنظيم الجنسي التناسلي .

٢) الاستلاب الناتج عن العمل ، والذي يسمم الممارسة الجنسية ؛ وهـــذا الاستلاب لا يظهر فقط بعملية الكبت الملازمـــة لمبدأ المردود ، بل يجب أن نضيف إلى ذلك أيضاً طابع هذا « المردود » ، هـذا الطابع الحالي ، المتعفر فهمه : إنه هو الذي يفسد ويجمد حساسية الأشخاص . وهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً آخر للخلاص من ضغوط العمل المرهقة وحالاته الإرغاميـــة ، إلا بتكرارهم في نشاطاتهم الجنسية ممارسات العمل والاستهلاك الارغامية .

٣) إن متطلبات المجتمع الجنسية التناسلية المفرطة ؛ والدعاية ، وحالات الارغام الاستهلاكية ، ومختلف أشكال التكيف الاجتماعي والجنسي تتطلب من أشخاص ، ذوي التكوين الجنسي غير الـــكافي أو غير المكتمل ، أن يتصرفوا كما لو كانوا مكونين جنسياً تناسلياً ، بصورة حقيقية .

والعامل الثالث هو ، بالضبط ، الذي يرغم الأشخاص على نصب واجهة جنسية تناسلية يزداد طابعها الصارخ بقدر ما يكون هؤلاء الأشخاص بعيدين فعلاً عن أن يكونوا قد بلغوا ، بعد تطور بيولوجي كامل ، المرحلة الجنسية – التناسلية (المؤهلات الجنسية والطباعية السلوكية لادماج المراحل الجنسية ، الذي يسبق ، على الصعيد البيولوجي ، المرحلة الجنسية – التناسلية) إن مخرج الممارسات الجنسية الجماعية ، الذي وصفناه في هذا الفصل ، ليس سوى امكانية واحدة لصيانة الواجهة الجنسية التناسلية . وهناك إمكانات اختيار باتولوجية اخرى لإقامة هذه الواجهة ، مثـــلا مختلف مظاهر الامتثال المتصلب للأدوار الاجتماعية (مثلا ، زواج مبكر دون نضج طباعي واجتماعي) وهناك إمكانات اختيار باتولوجية تقوم في عدم إقامة واجهة اطلاقاً ، مثلا الفرار إلى الانحراف الجنسي أو الى الفصام ، وأولى هذه الامكانات قد أشير اليها سابقاً والامكانية الاخيرة تظهر بمثابـــة نموذج في كثير من الحالات المذكورة التي يرويها البحث التجريبي حول داء الفصام . ان امكانية

اختيار الممارسة الجنسية الجماعية المختلطة هي ، قبـــل كل شيء ، في متناول جماعات مهنية « حرة » من القطاع الثالث ، والمنتمين إلى الفئات الوسطى وما فوقها ، أي أنها في متناول اشخاص يتمتعون بسهولة أكبر ، بامكانية الفرار إلى قطاع واحد (هو الممارسة الجنسية) من حالات الإرغام والقواعد التي يفرضها عليهم دورهم المهني والاجتماعي، دون أن يلاحظ هذا الانحراف بصورة سلبية أو يُحْظَـر من قبل الوسط المحيط بهم . وحتى لو لم نسجل إحصائياً تواتراً ذا مدلول (نسبة تكرار كبيرة) لعمليات الممارسة الجماعية المختلطة التي نتحدث عنها فإنها ، رغم ذلك ، مؤشر جيّد إلى واقع أن جماعات بكاملها من السكان تنهار تحت عبء المتطلبات الاجتماعية – الجنسية التي لا يستطيع تلبيتها .

ترتيب مواعيد اللقاء ، إعداداً للزواج dating

« إذا وضعنا القوة الجسدية جانبـــاً ، فإن الخاصتين الأساسيتين المميزتين للشبيبة الأميركية هما النقص النسبي للشعور بمسؤولية إعداد مواعيد اللقـــاء الغرامية ، ذلك ما كتبه « جيوفراي غورير » في دراسته الانتروبولوجية Dte Amerikaner (الأميركيون) [١] أن الملاطفة والمغازلة هما في الولايات المتحدة شكل « طبيعي » من الممارسة الجنسية في فترة ما قبل الزواج ، وذلك بين بدء سن البلوغ ؛ والزواج . وعملية إعداد مواعيد اللقاء تهدف رسمياً إلى إعداد الأشخاص للزواج ، بعـــد البلوغ ، ولكي « تمركز ، إذا صح التعبير ، تنظيم ممارسة العلاقات الجنسية بين أفراد من الجنسين . هـذه الممارسة الجنسية التي أعطيت طابع المؤسسة ، والتي تستجيب لقواعد جد صارمة ، كما هي الحال

---

(١) Geoffrey Gorer, Die Amerikaner, eine vôlkerpsychologische studie. R. D. E. 9 . Hamburg 1956 p. 77 .

في الولايات المتحدة ، هي مجهولة تماماً لدى بلدان صناعية أخرى .

يتصف هذا السلوك بالسمات التالية :

١) إن الشطر الأكبر ، من فتيان جميع الفئات الاجتماعية ، يعتمد هـذا السلوك منذ بدء سن البلوغ .

٢) هناك قواعد محددة – يمكن أن تتغير تبعـاً للفئات الاجتماعية أو المناطق – لكنها قواعد صارمة ، في حد ذاتها ، يجب أن يتقيد بهـا أصحاب العلاقة . وتبعاً لدرجة ونوعية التقييد التام بهذه القواعد تقوم داخل الجماعة (فئة النخبة – فئة الأشراف peer group وخارجها المكانة الاجتماعية للأشخاص المعنيين . فإذا كانوا لا يريدون أن يُستَبْعَدوا كلياً من نجم الملاطفة والمغازلة، فإن عليهم ، على الأقل ، أن يبرهنوا عن حد أدنى ،ثابت في التقيد بهذه القواعد (مثلاً ، تلبية عدد معين من « مواعيد اللقاء » خلال زمن معين) . وتعين هذه القواعد ، بخاصة ، أساليب بدء التعرف إلى الشريك ، والتقدم التدريجي لنوعية « اللقاءات » (تناول العشاء معاً ، الذهاب للرقص ؛ تبادل القبلات ، وتسلق « مبادلات » الحنو والتعاطف) .

٣) تزداد مكانة الشخص المعني وذلك بنسبة عدد الشركاء الذين يكونون لديه في فترة معينة ، وسرعة التسلق الذي يؤدي إلى مبـادلات الود والحنو (بالنسبة للفتيان) ، أو بنسبة طول الفترة التي ينبغي للشريك أن يكافح خلالها للحصول على عطاءات الحنو والود هذه (بالنسبة للفتيات) ، ومع الأخـذ في الحسبان موقف الاعتزاز والادعاء وتحقيق سلسلة كبيرة من القواعد « الصعبة » جداً ، التي ، إذا نظر إليها من الخارج ، تبدو طوطمية ،أشبه بالطقوس السحرية لدى القبائل البدائية . ويكتب غورير قائلاً: « جميع الفتيان يستطيعون وينبغي لهم أن يشتركوا في تنفيذ تلك القواعد ، ويتوقف على مزايا كل منهم ، المستوى المعين الذي يريد ويستطيع بلوغه ؛ لكن الفتيات المفضلات اللواتي يحرزن أكبر

مقدار من النجاحات هن وحدهن اللواتي يستطعن الافادة من تلك القواعد بصورة كاملة ؛ وتضطر الأخريات إلى الاكتفاء بصديق محدّد، أو حتى بصحبة فتى يجتاز نفس الوضع غير السار ... وهكذا فإن عهد الـ dating هو ، بالنسبة لكثير من الفتيات ، فترة من الإذلال ، ومعاناة الصد ، والإخفاق . ومؤكد أنه لا بد لهنّ من التـــألم بسبب ذلك ، لكن ذلك لا يستتبع عادة جراحاً نفسية مستديمة »[1] .

٤) تريد عملية إعداد مواعيد اللقاء أن تكون لعبة ، ومظهراً أشبه بالحياة الجنسية. ولعل المشتركين فيها يرونها بنفس السذاجة التي يرى بها الأهل أولادهم وهم يلعبون لعبة الطبيب . « إن عملية إعداد مواعيد اللقاء لصيقـة بالطباع ، ومنبثقة عنها ، من نواح عدة ، لكن ذلك ، على الأخص، من حيث أن صاحبها يلجأ إلى عبارات وحركات غرامية ، وإلى طلب اليد للزواج ، دون إعطاء كل ذلك مدلوله الفعلي والمقصود الحقيقي منه »[2] . لكن مظهر العلاقـة الجنسية هذا يخضع لمعايير أشد قسوة منها في السلوك الاجتماعي والجنسي لكل مجتمع بدائي أو حضارة عُرفت حتى الآن . « إن عدداً معيناً من الجماعات ، وأشهر أمثلتها المعروفة هم سكان جزر ساموا وتروبرياند ، يسمحون بفترة معينـة من الحرية والتجربة الجنسيتين قبل الخطبة والزواج؛ وتكون تلك الفترة هي أعوام إشباع رغبات الحواس والرغبات الجنسية بصفتها كذلك ، ويجري إعطاؤها ، على كل حال ، بهذه الروح طابع المؤسسة . وإشباع الرغبات الجنسية ، عملية إعداد مواعيد اللقاء على الطريقة الأميركية، يمكن أن تستخدم لكسب نقاط في اللعبة ؛ لكنه ليس ضرورياً مطلقـــاً ، وهو ، على الأخص ، ليس الهدف المقصود [...] »[3].

---

(١) حسوفراي غورير ـ المرجع المذكور . ص ٧٧ .
(٢) المرجع ذاته . ص ٧١
(٣) المرجع ذاته . ص ٧٢

٥) الهدف الحقيقي لا dating هو زيادة المكسب النرجسي . وعملية إعداد مواعيد اللقاء تشكل عند الاقتضاء جزءاً من النمط النرجسي لحب الغرَض (أن يكون المرء محبوباً ، وأن لا يُحِب) . بل إن الحب هو أعلى تجسيد لحالة الدونية (النقص) ، ويعني من جهة أخرى انتهاء « اللعبة » . وبهذا المقياس فإن عملية إعداد مواعيد اللقاء ليست بأية حال من الأحوال شكلاً تمهيدياً للممارسة الجنسية الخارجية .وتعرف هذه الممارسة بأنها لعبة حب ، تستبعد ،مع ذلك ، الاتصال الشامل . طبعاً يمكن أن تشكل المغازلة والمداعبة جزءاً من تلك المواعيد ، لكن ذلك يكون الأوّل في نظام الثاني ، ولا يعود يستخدم، في هذه الحالة ،إلا لتسجيل نقاط إضافية ، على غرار إهداء الأزهار أو تلقيها،الخ.

٦) إن عملية إعداد مواعيد اللقاء هي عمل (أو مجموعة أعمال) تجري تبعاً لطرائق محددة ؛ وتمكن مقارنة هذا العمل ، من نواح عدة برقصة من رقصات الطقوس ، ومن نواح عديدة أخرى ، بلعبة مباراة شديدة التعقيد [1] وهذه « المباراة تنتهي بانتصار أحد الشريكين ، أو أنها تنتهي بالتعادل . وفي هذه الحالة الأخيرة ، ينبغي أن ينسحب الشريكان من اللعبة « وقد توطدت عزة نفسيهما وثقتهما بذاتهما » « والغالب هو الذي يستطيع أن يحمل الآخر على فقدان السيطرة على نفسه ، دون أن يفقد الأول تلك السيطرة » [2] . وعند الاقتضاء ، تقوم هذه الغلبة ، بالنسبة للفتاة ، بأن الشاب ينتعظ قاذفاً منيه ، في حين أن الفتاة تحتفظ « بالسيطرة على ذاتها » ؛ أما بالنسبة للفتى ، فيقوم انتصاره على « امتلاك » الفتاة بجرها الى ممارسة العلاقة الجنسية . ولهذا السبب أيضاً يصف ج. ر. أودرى ، في كتابه الضخم عن الحياة الزوجية ، يصف الـ dating بأنه Zero - sum - play لكنه يدعي أن الـ dating لا يتخذ هذا الطابع من

---

(٢) جيوفراي غورير . المرجع المذكور . ص ٧١

(٢) المرجع ذاته ص ٧١

الازدراء بالشريك المغلوب إلا لدى الفئات الدنيا ، أو أنه يمكن أن يتخذه ، إذا كان الـ dating قد حدث بين فتى وفتـــاة ينتميان إلى فئتين اجتماعيتين مختلفتين . « إن الاتصال الجنسي يعني بصورة طبيعية ، في عملية إعداد مواعيد اللقاءات لدى أبناء وبنات الطبقة الوسطى ، النهاية المبكرة للعبة ، لأنـه يبين أن الفتاة قد أخذت اللعبة مأخذ الجد. وفي عملية إعداد مواعيد اللقاء لدى أبناء وبنات الطبقة الدنيا وفي عملية إعداد المواعيد لدى أبناء وبنات من طبقات مختلفة بالنسبة للفتى ، يعني تحقق الاتصال الجنسي وأن الفتاة قـــد هُزمت وذلك لأنه يجري في هذه الجماعات ، لعبة إعداد مواعيد اللقاء وحضور هذه المواعيد بمثابة مناورة مغازلة « تهدف الى امتلاك الشاب للفتاة [1] » .

وما يقوله أودراي عن الفئات الدنيا صحيح وتؤكده دراسات أخرى [2] . لكن كما تبينه سلسلة كبيرة من التحليلات والتحقيقات عن الـ dating ، الذي يمارسه فتيان وفتيات الجامعات الأميركية ، فإن تحديد أودراي لممارسة تلك الظاهرة في نطاق الفئات الدنيا هو شيء غير مطابق ، مطلقاً . ان سلوك شبيبة الفئات الدنيا هو فقط أكثر مباشرة في متطلباته الدنيــا ، وهو ، وإلى جانب ذلك أيضاً ، أكثر مباشرة في إظهار انتصاراته (على مستوى أقـــل تعقلاً ، بالنسبة للغة والحركات الايمائية la mimique) .

هناك ثلاثة عوامل اجتماعية – بسيكولوجية مرتبطة بظاهرة عملية اعداد مواعيد اللقاء وهي : أ) أن هذه العملية تسهم ، داخـــل الجماعات المهنية أو الفئات الاجتماعية ، في إقامة فوارق دقيقة في المستوى الاجتماعي . ب) ان نظام عملية اعداد مواعيـــد اللقاء على الطريقة الأميركية dating يحط من

---

(١) J. Richare Udrey, the social contest of marriage, Philadelphie and New-York . 1966 . p. 114.

(٢) مثلاً ، تلك التي قام بها راينووتر ، المرجع المذكور .

مستوى الحياة الجنسية بمقدار كبير جداً . – ولن نشرح هذه الفكرة ، اجتناباً للتكرار ، إلا في مثال تكييف عملية إعداد مواعيد الالغاء لعملية معرفة الغير .
ج) هناك علاقة دقيقة بين عملية اعداد مواعيد اللقاء والشكل الخاص الكامن ، للنشاط الجنسي مع أفراد الجنس نفسه [1] homosexualité. وسيجري تحليل هذه العوامل في موضع تال من هذا الكتاب .

ولكي يستطيع الشريك الجنسي أن يعتبر جذاباً على الصعيد الجنسي ، ينبغي أن تتوفر فيه سلسلة من المواصفات الاجتماعية ، قائمة تماماً خارج الحياة الجنسية وطابعها – وإلا فإنه سيناله الازدراء ، في حالة بلوغ الغاية الجنسية ، من جانب أولئك المنتمين إلى فئة اجتماعية أرفع ، شأن المثال الذي أورده أودراي عن تلك الفتاة (من بنات الفئات الدنيا) التي كانت تمارس عملية إعداد مواعيد لقاء متقابلة (مع أشخاص من فئات اجتماعية متعددة) هذا السلوك ، الذي ينشىء ويحدث مجدداً لدى الأفراد المعنيين صفات ومعايير للمردود تحكمية ومشوهة إلى أقصى حد . لقد أبرز روجرز هافنس [2] بصورة واضحة جداً الرقابة الأولية ، وذلك بواسطة احصائيات تتعلق بتحليل لعملية ضرب مواعيد اللقاء .

اللائحة رقم ٤

عملية ضرب المواعيد بين الطلاب (أعضاء الاتحادات الطلابية) وبين

---

(١) اشتهاء المقابل (عن قاموس «المنهل») وهو اللواطة والسحاق homosexualité .
(٢) ا . م روجرز ، وأوجين هافنس .
«Prestige Dating and Male Selection on a college campus» in Marriage and Family Living, No 22, fev - 1960, tableau 3.

الطالبات وغير الطالبات .

	جمعية أخوية ذات مكانة اجتماعية عالية	جمعية أخوية ذات مكانة اجتماعيةمتوسطة	جمعية ذات مكانة اجتماعية منخفضة
نادي الفتيات ذات مكانة اجتماعية عالية	٢٩	١٦	٦
« « « « متوسطة	٢٠	١٢	٧
« « « « منخفضة	١٣	٤	١٠
مجمع للطالبات	١٤	٢٥	٢٥
فتيات غير مسجلات في الكلية المعنية	٢٤	٤٣	٥٢
المجموع	١٠٠٪	١٠٠٪	١٠٠٪

لفهم هذه الاحصائية (اللائحة ٤) يجب أن نفهم بـ « الجمعية الأخوية » ، جمعيات الفتيات الطلابية ، و بـ Sorority جمعيات الفتيات، الطلابية . وهذه الجمعيات مماثلة تماماً لا Burschenschaften الألمانية . إلا أن تنظيم عمليـــة تراتبها – الأولى – leur hiérarchisation تبعاً لوضع الأبوين الاجتماعي ، وما يترتب على ذلك من مكانة ، تتدرج على مجموعة من الأنماط والممارسات ، أوسع وأدق بكثير ، مما هي في ألمانيا . وعلى أعضاء عـــدد كبير من تلك الجمعيات أن يقدموا البراهين عن تحقيقهم حـــداً أدنى من « اللقاءات » les rendez-vous الاسبوعية . ونظراً لأن الطلبة ، في الكليات الأميركية، يسكنون بصورة عامة على حرم الجامـــعة ، فينبغي أن نفهم بكلمة مجمع الطالبات Dormitory ،دوراً للطلبة يسكن فيها الطلبة ذوو المكانة الاجتماعية الأكثر تـــدنياً (أي أولئك الذين لم يُقْبَلوا في دور الجمعيات المرتبطة بحرم الجامعة ، أو الـ « اللامنتمين » الذين لا يريدون أن ينضموا إلى أية جمعية).

ولننظر الآن إلى الانحطاط النوعي الذي يحدث في نظام التدرّج في ممارسة العلاقات الجنسية بين أفراد من الجنسين ، هذا النظام المعطى صفة المؤسسة ،

والخاص بلعبة تدبير اللقاء ، وقـد خلص فيرنون وستيوارت ، في دراسة لهما تجريبية [١] إلى الاستنتاج بأن تعرّف شريك إلى آخر يكون أرفع مستوى كلما كان للشريكين « لقاءات » أكثر تواتراً . وهذه النتيجة ليست مدعاة للدهشة . وبالمقابل ، فإن ما يدهشنا ، مع أنه يتفق وافتراضاتنا حتى الآن ، هو أن تراكم عمليات تدبير مواعيد اللقاء (عدد « اللقـاءات » مع شركاء متعددين ، في زمن معين) لدى شخص ما ، لا يسهم مطلقاً في زيادة قدرته على التعرف إلى الغير ، بالنسبة إلى الشريك . وبالعكس ، فإن الأشخاص الفائزين بـ « لقـاءات عديدة » يظلون على نفس البُعْد الانفعالي من شريكهم ، الذي يكون لدى الأشخاص الحائزين على عدد قليل من اللقاءات . ويمكن أن نستنتج من ذلك ، وإن كان المؤلفـان بعيدين عن استخلاص مثل هذه الاستنتاجات ، أن الأشخاص لدى خروجهم من نظام الـ dating يكونون على نفس المقدار من الضعف والهزال في الميدان النفسي ، الذي كانوا عليه لدى دخولهم النظام ذاك لعملية اعداد مواعيد اللقاء ؛ ولن يقوموا بإنمـاء « قدرتهم على معرفة أحدهم للآخر ، إلاّ لدى نشوء صداقة دائمة بينهم أو عند قيام خطوبة أو ارتبـاط (engagement) . إلاّ أن تطور التعارف ، اللاحق، يبقى خاضعاً لتجارب عملية إعداد مواعيد اللقاء والانفعالات العاطفية المرتبطة بها ؛ ويظل هـذا التطور مشوهاً [٢] . ويظهر وجه محدود لهـذه العواطف في دراسة أخرى

---

(١) ر. ل. ستيوارت وغ. فيرنون :

« Empaty as a Process in the Dating situation »? in Americain sociological Review, no. 1, 1957. pp 48 - 52

(٢) مؤكد أنه لا ينبغي أن يوضع على صعيد واحد النتائج الاجتماعية والنفسية للـdating ومثيلاتها بالنسبة للـ petting . إن عملية الـpetting يمكن أن تحل تماماً محل الإعداد لعملية الممارسة الجنسية - ولكن مع الأخذ في الحسبان بعض العواقب النوعية والتضييقات (مثلاً =

تجريبية لكير كباتريك وكانان [1] عن Male Sex Aggression on a University Campus . (عدوان الذكور الجنسي على الطالبات داخل حرم الجامعة) . إن ٥٦ ٪ من الفتيات اللواتي جرى توجيه الأسئلة إليهن قد اعترفن بأنهن أثناء سنتهن الجامعية الأخيرة قد « تعرضن للعدوان » مرةً على الأقل . هؤلاء الفتيات المئة والاثنتان والستون ، اللواتي مورس ضدهن العدوان الجنسي قد تعرضن ، بالاجمال ، لـ ١٠٢٢ حادثة هجومية ، أي لتصرفات جنسية ، من جانب رفاقهن الذكور ، الذين كن يعتبرنهم غير مرغوب فيهم . إن اللائحة رقم ٥ تبين ، **اولاً**) ردود الفعل الانفعالية لدى الفتيات ، إزاء هذه التصرفات ، **وثانياً**) سلوكهن ، البيِّن الصريح - إزاء رفاقهن أو محيطهن .

اللائحة رقم ٥

رد فعل الفتيات تجاه محاولات شركائهن الانتقال إلى تصرفات جنسية « غير مرغوب فيها » .

= الخطر المتزايد في العجز فيما بعد على الحصول على الانتعاظ (ذروة المتعة الجنسية في نهاية الجماع) إلا عن طريق الإثارة الفموية أو اليدوية ، إذا جرت ممارسة الـ petting « زمناً طويلاً جداً » كشكل وحيد لإشباع الرغبة الجنسية - لمعرفة المزيد من التفاصيل ؛ اقرأ كنيدي) .

(١) C. Kirkpatrick et E. Kanin « Male sex Aggression on a University Campus in Americain Sociological review, annèe XXll, no. 1, 1957, pp. 52 - 58.

اللائحة رقم ٥

ردود الفعل عند الفتيات	المانقة والمداعبة فوق الحزام	المداعبات تحت الحزام	محاولات إقامة عملية مجامعة أو اغتصاب
١ - رد فعل الفتاة الانفعالي			
خوف	٤٨	٤٢	٣٥
إحساس بالذنب	١٩	٢٣	٣٨
قلق (تهيب أو خشية)	١٥	٢٣	٣٨
قرف ، خيبة ، ارتباك	١٨	٩	٦
المجموع	١٠٠٪	١٠٠٪	١٠٠٪
٢ - « ماذا كان رد فعلكِ ؟ »			
أعمال رفض معينة	٣٧	٢٥	٣١
مناقشة في فرقتها الجنسية مثلاً في نادي الفتيات	٣٤	٢٠	١٦
إخفاء الحادثة	١٩	٤٦	٤٩
محادثة « المعتدي » في الأمر	٣	٤	٤
إبلاغ السلطات الجامعية	٧	٥	٠
المجموع	١٠٠٪	١٠٠٪	١٠٠٪

لكي نفهم مدلول هذه الإحصائيات، ينبغي أن نتذكر أنّ النوعين الأخيرين، على الأقل ، من مختلف « عمليات الاعتداء الجنسية » (المعانقة ، والمداعبة تحت الحزام ومحاولات لإجراء عملية مجامعة) لم يمكن أن تجري ، في أغلب الحالات، إلاّ بعد سلسلة من « المواعيد واللقاءات » بين الشريكين ، أي في لحظة كان

فيها الشاب والفتاة ، على أي حال ، قد أصبحا متعارفين « عن كثب أكثر » . ومهما كانت المقولات القائمة في أساس هذه الدراسة ، سطحية وغير دقيقـــة ، فإنها تلقي الضوء على شيء معين . وهو أن هذا السلوك الجنسي الممنوح طابع المؤسسة هو مرتبط ، بالنسبة لكثيرات من الفتيات اللواتي يمارسنه ، بتجربة الخوف . وليس بينهن سوى نفر ضئيل قادرات على أن يجعلن من هذه التجارب والعذابات موضوع مناقشة مع شريكهن ؛ وعلى كل حال ، فإن التغيير المستمر، والذي أصبح عرفاً شائعاً ، للشريك ، يجعل هذه المناقشة مستحيلة عمليـــاً . والنتائج تدعو إلى اليأس الشديد لا سيما وأن الفتيات اللواتي وجهت الأسئلة إليهن هن في عداد الجماعات الأكثر إعداداً من الناحية الثقافية والذهنية ، أي من الجماعات التي يحق للمرء الافتراض أن في وسعهن الإفضاء بتجاربهن ومعاناتهن. إنّ طريقة غورير في الرؤية ، حين يفترض أنّ الأشخاص المتأثرين بممارسة عملية إعداد مواعيد اللقاء ، يخرجون من نظام الممارسة هذا ويتزوجون دون « آثار باقية لصدمة نفسية أو جرح نفسي دائمين » ، هي ، ولا شك مطلقاً ، ساذجة جداً ؛ اللهم إلا إذا كان لديه مفهوم سطحي جداً للصحة النفسية .

لدى تعداد أنواع وخصائص العملية الأميركية ، لإعداد مواعيد اللقـــاء أغفلنا القول إن النمط « الأعلى » لهذه الممارسة الجنسية هي عملية إعداد مواعيد لقاء مزدوجة . والمقصود بذلك ، أن صديقين ما ، إذا كانا منتسبين إلى نفس الكلية ، وربما كانا يسكنان في مرقد * واحد ، يمارسان تدبير اللقـــاءات مع فتاتين ، أو مع فتاة واحدة . وينتج عن ذلك أن ينشأ بين الصديقين ، أحدهما إزاء الآخر ، علاقات نفسية متزايدة الوثوق باستمرار أكثر ممـا يكون بينهما والفتاة (أو الفتاتين) ؛ وتستمر صداقة الشابين إلى ما بعد الفترة التي يخرجان أثناءها مع الفتاة ذاتها . بل يمكن أن يحدث أن تكون للعلاقـــة الجنسية بين

* منامة .

أفراد من جنسين مختلفين وظيفة كامنة هي توطيد أواصر الصداقة بينهما. وهناك ما يحمل على أن ترى في هذا النوع من العلاقة مؤسسة معينة ، قضت بإيجادها « الحضارة » ، تهدف إلى تحقيق الاستقرار في العلاقات بين الجنسين ، بالنسبة لأهداف الرغبة الجنسية ، هذه الأهداف التي تكون مقلقلة ، بعد ، أثناء فترة البلوغ ، أي ثنائية الجنس bisexuel . ومثل هذه الوظيفة تحدث أيضاً للصداقات بين الشبيبة في المجتمع البورجوازي . لكن هذا الافتراض يدحضه واقع أن عملية إعداد مواعيد اللقاء المزدوجة يستمر حتى نهاية عملية إعداد مواعيد اللقاء dating ، للشخص ، وأن خطوبة أو زواجاً يجري تقريرهما فجأة هما فقط اللذان يضعان حداً مباغتاً تماماً لتلك الممارسة المزدوجة للمواعيد . في هذا الضوء ، يظهر الزواج بمثابة عامل الاستقرار الاصطناعي لبنية تناسلية للطباع الجنسية – يتعذر دائماً بلوغها – . هذا الافتراض تغلب المعايير القسرية للعلاقات الجنسية بين أفراد من الجنسين، في نظام عملية إعداد مواعيد اللقاء وشبه الممارسة الجنسية الجماعية في هذا النظام، الذي يتيح إقامة واجهة جنسية تناسلية واتخاذ موقف طفولي ، في الوقت نفسه ، إزاء اختيار الفرض . أما غورير ، من جهته ، فيتغلب على العقبة ، بأن لا يرى أي تناقض بين هذه الحالة الفعلية ، وبين « صحة الروح » التي يتحدث عنها بلا انقطاع . بل هو يراها مؤكدة بعنصرين يتميز بهما الجيش الأميركي (الذي يجند فيه الفتيان فوراً بعد سن إعداد عملية اللقاء من بين جميع الجيوش الأخرى) .

١) جميع الرجال المشتبه بأنهم لوطيون يطردون من الخدمة العسكرية ؛ وإعادة الفحص مقررة بتحديد صريح متبعاً على أساس استبعاد اللوطيين .

٢) تتخذ تدابير ، بحيث يبقى متيقظاً اهتمام الجندي بممارسة العملية الجنسية مع شخص من الجنس الآخر ، إلى حد أن « الجيش بكامله ، عند النظر إليه من الخارج ، يبدو وكأنه كلياً في حالة من التهيج الجنسي المتشنج » [١] .

---

(١) غورير ، المرجع المذكور ، ص ٨٥

هذا « التهيج الجنسي المتشنج» يشبه المشاهد الصارخة للأشخاص من الجنسين، الذين يمارسون العمليات الجنسية promescuité الجماعية، والذين لم يبلغوا، هم أيضاً، مرحلة ممارسة العلاقات الجنسية، البالغــة الرائدة، بين الجنسين. ويتأكد لنا هذا الاستنتاج، حين نعلم أن « الأميركيين » لا يشعرون، حقيقة، باشمئزاز أو نفور أو قرف من ممارسة العلاقة الجنسية بين أفراد الجنس نفسه، على نحو ما يشعر بها البورجوازي، الذي نجا، بواسطة هذا التفسير النفسي من أن تظهر جهاراً نزعته التكوينية، هو ذاته، وأحد مقومات شخصه وهمــا رغبته الجنسية لممارسة الجماع مع أفراد من الجنس نفسه. الأميركيون يسيطر عليهم الهلع والذعر أمام ممارسة العلاقــات الجنسية مع أفراد الجنس نفسه؛ إنها تعتبر بمثابة خطر مباشر، شخصي [...] ولا سيما بالنسبة لاستقامــة الشخص المعني، وهي تستثير رد فعل عنيفاً، بل موقف ذعر وهلع »[1]. إن النزعة الى الزواج المبكر في الولايات المتحدة، وربما أيضا في البلدان الرأسمالية الأخرى[2] وبخاصة النزعة، الملاحظة في الفئــات الأميركية الوسطى، إلى الزواج « المباغت »، إذ سرعان ما ينهار لدى التخرج من الجامعة الإطار الخارجي ا « لعبة » ممارسة العلاقات الجنسية بين أفراد الجنسين بصورة جمَاعية مشتركة. كل هذا لا يدل على تكوّن طباع جنسية تناسلية « مركزة »، وانما يدل بالأحرى،

---

(١) المرجع ذاته، ص ٨٥.

(٢) يمكن الاعتراض هنا بأن هذه النزعة إلى الزواج المبكر تسجل كذلك في البلدان الاشتراكية، وإذن، فهي رهن بعامل قائم خارج تنظيم القوى المنتجة، والذي هو، في خاتمة المطاف، ملازم للتصنيع. لكننا، لدى إقامة مقارنة دقيقة بين البلدان الرأسمالية والبلدان الاشتراكية العالية التصنيع، سوف نسجل، دون أدنى شك، أن النزعة إلى الزواج المبكر في البلدان الاشتراكية، رهن بعوامل تختلف عنها في البلدان الرأسمالية؛ فهــذه النزعة تتوقف اليوم، مثلاً، في البلدان الأولى، على الكبح المباشر الممارس ضد الاندفاعات الجنسية ما قبل الزواج، ثم على الأخلاقية والدعاية « الاشتراكيتين » الخ.

على أنّ البنية الطِباعية structure caracterielle والجنسية تحتاج لحماية ومؤازرة .

الرغبة الجنسية « الكامنة » نحو أفراد من نفس الجنس ، و « عملية المساواة بين الجنسين »

إن علم التحليل النفسي يفرق بين الرغبة الجنسية الظاهرة لدى أفراد من نفس الجنس ، وهذه الرغبة وهي في حالتها الكامنة . فالأولى تتميز بانتقاء نوعي ، حصري ، أو مهيمن ، لغرض جنسي ، يكون غرضاً من نفس الجنس ، لممارسة علاقة جنسية معه . أما مفهوم الرغبة الجنسية ، الكامنة ، لممارسة العلاقة مع أفراد من نفس الجنس ، فيأخذ في الحسبان ، أنه ، عند جميع الأشخاص الطبيعيين ، رغم رغبتهم الجلية تماماً في ممارسة العلاقة الجنسية مع أشخاص من الجنس الآخر ،يجرى اكتشاف مقدار هام من رغبة كامنة ، ولاواعية ،في ممارسة العلاقة الجنسية مع أفراد من نفس الجنس » [١] .

وتبعاً لهذا المفهوم ، فليس فقط « جميع الأشخاص ، أياً كانوا ، يمكنهم أن يختاروا غرضاً من الجنس نفسه ، وأنهم جميعاً قاموا بعملية الاختيار هذه ، في عقلهم الباطن » بل يمكن التأكيد بأن مشاعر الرغبة الجنسية التي تتعلق بأشخاص من الجنس ذاته تلعب في الحياة النفسية الطبيعية دوراً هاماً يمثل أهمية المشاعر التي تتعلق بالجنس الآخر ، وأن قيمتها في علم معرفة اسباب الحالات

---

(١) Freud. Uber die Psychogenese eines Falles von weiblicher Homosexualitât, tome XII p. 300 .

المَرَضية هو أكبر من ذلك بكثير أيضاً »[1] . ويعني هذا أن الرغبة الجنسية توجد ، في البدء ، بمعزل عن الفرض الذي تتحول نحوه فيما بعد . إن المقولة السكونية المطابقة لهذا المفهوم الديناميكي للرغبة الجنسية في أفراد من الجنس ذاته ، هي « الرغبة الجنسية الثنائية البنيوية » لدى الانسان . ويرى هذا المفهوم أن الرغبة الجنسية لأحد الأشخاص في شخص من نفس الجنس ، أو في شخص من الجنس الآخر ، هي**صفات مكتسبة** ، أي أنها نتيجة لحضارة معينة. والحال، فإن هذا الاختيار لغرض جنسي من **الجنس الآخر** ، وهو صفة مكتسبة بصورة فردية وفي إطار حضارة معينة ، يضاف إلى مكتسب الحضارة هذا الجديد ، الذي يتيح مركزة الرغبات الجنسية الجزئية، وإخضاعها لأولوية العلاقة الجنسية التناسلية ، وهي نتيجة ينبغي لكل شخص أن يبلغها بدوره ، وبعبارة أدق ، فإن عمليتي التطور النفسيتين في الأشكال التاريخية المعروفة ، تجريان في الوقت نفسه ، مع تبادلهما الرقابة والتكامل .

هذا المفهوم لا يستبعد أن اختيار الفرض النهائي لممارسة العلاقة الجنسية إما مع شخص من نفس الجنس ، أو من الجنس الآخر ، يمكن أن يساعده ، بل وأن يستثيره ، لدى الشخص ، عامل بنيوي . وفي جميع مناقشات فرويد السريرية clinique حول رغبة شخص ما في ممارسة العلاقة الجنسية مع شخص من الجنس نفسه ، علق فرويد كثيراً من الأهمية على هذه الحقيقة التي سجلها بعد دراسة وتتبع . لكن هذا لا يعني القول إن العامل البنيوي للرغبة الجنسية في شخص من الجنس نفسه ، التي على كل حال ، لم يجر التعمق في دراستها ، إلا أكثر بقليل ، مما جرى في عهد فرويد ، لا يعني القول إن ذلك العامل البنيوي هو كالرغبة الجنسية الفطرية في أفراد من الجنس نفسه ، على حد سواء . وكذلك ليست ثمة رغبة جنسية فطرية في أشخاص من الجنس الآخر .

---

(١) فرويد « ثلاث دراسات ،.. » المرجع المذكور ، ص ١٦٨ .

ولأجل وصف خاصية هذا الوضع ، وتعيين الحتمية الاجتماعية الدافعة إلى اختيار غرض من الجنس الآخر، صاغ فيرينزي هذه التسمية التهكمية تقريباً وهي « الممارسة القسرية للعلاقة الجنسية مع أشخاص من الجنس الآخر »[1] وكذلك ينبغي أن نشبه ، عند ذوي الرغبة الجنسية في أشخاص من الجنس نفسه، العنصر الشرجي، ولا أي تبلور نفسي آخر ، برغبة ممارسة العلاقة الجنسية مع أشخاص من الجنس نفسه . فهذا العنصر يدل ، بادىء بدء على تبلور لتطور جنسي ، مستقل عن الرغبة الجنسية في أشخاص من الجنس نفسه ، ثم يطابق تبلوراً طبعياً caractériel مستقل كذلك تماماً عن الرغبة الظاهرة ، في ممارسة العلاقة الجنسية مع أشخاص من الجنس نفسه[2] إن نزعة الرغبة في ممارسة العلاقة الجنسية مع أشخاص من الجنس نفسه ، المحققة كلياً والمحددة بطابعها كممارسة للعلاقة الجنسية العضوية ، تعرف تماماً ، شأن الرغبة في ممارسة العلاقة الجنسية مع أشخاص من الجنس الآخر ، الوجهين الأساسيين لاختيار الغرض anaclitique الاتانكليتي * المظهر والوجه النرجسي Narcissique ، وإن

---

(1) Sandor Ferenczi zur Nosologie der mânnlichen Homososxualitât,

المؤلفات الكاملة ، الجزء الأولى ، ص ١٦٨

(٢) فرويد « ثلاث دراسات في نظرية الحياة الجنسية » : « إن الدور الجنسي للغشاء المخاطي الشرجي لا يقتصر على العلاقات بين الرجال ، والهيمنة التي يكتسبها ليست خاصية من خاصيات الشذوذ » ص ٣٧ .

* الأناكليتية anaclisis اختيار الشخص لمحبوبه الجنسي على أساس مشابهته لما انطبع في الوجدان الطفولي لذلك الشخص من صور الوفاء الأبوي . (معاملة الأبوين ، الأم والأب ، الحادبة على الطفل).

(ملاحظة من المترجم)

كانت توجد لدى ذوي الرغبة الجنسية في أشخاص من الجنس ذاته « نزعة أكبر إلى اختيار غرض نرجسي »[1] .

في إطار تطور الحضارة ، تشكل رغبة ممارسة العلاقة الجنسية مع أشخاص من الجنس ذاته ، واحداً من أشكال كبح الرغبة في ممارسة العلاقة الجنسية العضوية مع أشخاص من الجنس الآخر ، هذه التي يتطلبها المجتمع ، وذلك خلال تطور الرغبة الجنسية الخنثوية (المزدوجة bisexualité) ، التي لا يكون لها ، في البدء ، أي اتجاه محدد على الصعيد البيولوجي . هذا مع العلم ، أن عنصر « الممارسة الجنسية العضوية » لا يمكن تمييزها إلا بصعوبة عن عنصر « رغبة ممارسة العلاقة الجنسية مع أفراد من الجنس الآخر » . وهذا التمييز يغدو مستحيلاً إذا ما استندنا إلى المقولات الفرويدية عن الشخص الطبيعي والمتوازن (Realitatstuchtig) . وكل حالة من حالات رغبة ممارسة العلاقة الجنسية مع أشخاص في الجنس ذاته تستلزم انحرافات مَرَضية معينة للبنية الغريزية الجنسية . لكن هذه الانحرافات المرضية لا تتعلق فقط بالمتطلبات الاجتماعية والشخصية لمبدأ الواقع القائم ، بل هي قبل كل شيء نتيجة لعمليات الإرغام النفسية ، التي يفرض بواسطتها مبدأ الواقع هذا معاييره أثناء عملية تطور المَجْتَمَعة socialisation . إن مجمل مختلف الآليات والكوابح التي ذُكِرَت حتى الآن لأجل تفسير منشأ رغبة ممارسة العلاقة الجنسية مع أشخاص من الجنس ذاته ، والتعلق الاتحادي الوثيق symbiotique بالأم ، والنزعة النرجسية الطفولية ، والخوف من الخِصاء ، والفرار أمام منافسة ذكر آخر ، ليست خاصة برغبة ممارسة العلاقة الجنسية مع أشخاص من الجنس ذاته[2] . ويمكن

---

(١) Freud, uber einige nerottsche Mechanismen bei Eifersucht. Paranoia und Homesexualitât . tome XIII , p. 204.

(٢) المرجع ذاته ، ص ٢٠٦

أن تميز هذه الأمور ، على حد سواء ، نقطة انطلاق سيرة ، مَرضية إلى هـذا الحد أو ذاك ، لرغبة في ممارسة علاقة جنسية مع شخص من الجنس الآخر . وإذا كان قدر للحالات المرضية العصابية ، بأوسع معاني الكلمة (بما في ذلك جميع « الحالات غير السريرية »أن تكون فعلاً أكثر عدداً لدى ذوي الرغبات في ممارسة العملية الجنسية مع الجنس ذاته ، منها لدى ذوي الرغبة في ممارستها مع أشخاص من الجنس الآخر ، فسيكون المسؤول حينئذ ، باديء بدء ، التحريم الاجتماعي الذي ينيخ بثقله على الرغبة في ممارسة العلاقة الجنسية مع أشخاص من الجنس ذاته. إن جميع مشتهي المماثلين مُخضعون لهذا التحريم،بهذا التجسيد أو ذاك من تجسيدات التحريم والعزل الاجتماعيين، والعقاب أو الاضطهاد المستتر أو الصريح ، هذا التحريم يعمل إذن بمثابة « أداة تفجير » لداء العصـــاب ، لا مثيل لها عند المشتهين للمغاير [1] .

كل هذا ليس تبريراً لاختيار غرض من الجنس ذاته . ولا يمكن انصافه إلا حين ستجري المطالبة المتشددة ، في مجتمع حر حقاً ، بأن تكف عن أن تكون لها علة للوجود جميع الانحرافات المرَضية الخاصة التي تصيب اليوم مشتهي المماثل ومشتهي المغاير . ومن شأن ذلك أن يندرج فيه كون التبلور القسري لاشتهاء المماثل ، بصفته سيرة حياة ومصيراً . ولن يمكن أن يجري نقاش تجريبي تحليلي

---

(١) راجع في هذا الصدد ادورنو :

Adorno « Sexualitât und Recht heute » in Eein gri ffe . Francfort, 1936 . p 112 :

حيث يقول في الكتاب المذكور : « إنني إذا وثقت بنتائج عمليات المراقبة الدراسية التي قمت بها ، أرى أن من المدهش بصورة خاصة أن نلاحظ ، لدى مشتهي المماثل ، الموهوبين ذهنياً ، العوائق النفسية التي تحد من انتاجيتهم ، وعجزهم عن تحقيق ما يمكن أن يكونوا قادرين تماماً على تحقيقه ، إن القلق الذي يضغط عليهم ، وما يعانونه من نبذ ، الذي يلهم التشريع وهذا التشريع بتعزيزه النبذ ، في الوقت نفسه ، يلعب دوره في هذا المجال أيضاً » .

في هذا الصدد ، إلا بعد بلوغ ذلك التبلور هذه المرحلة من التنظيم الاجتماعي ؛ وستكون المسألة هي معرفة ما إذا كان يمكن أن يكون ثمة تطور شبه طبيعي نحو اشتهاء المغاير ، في حالة تركز الرغبات الجزئية ، وخضوعها لأولوية النشاط الجنسي العضوي التناسلي على نحو غير قمعي ، وحيث يكون اختيار الغرض حراً قدر الامكان ، بصدد الشروط النفسية والاجتماعية على حد سواء ، أو إذا لم يكن في الامكان عمليات اختيار لأغراض جنسية - مزدوجة دون أن يستتبع ذلك ، في الوقت نفسه ، تقهقراً للحضارة. على هذا الأساس فقط ستمكن معرفة ما إذا كانت نزعـــة اشتهاء المماثل ، في مجتمع حر ، « سوف تضمحل وتزول » . في تلك اللحظة فقط ستصبح البيانات عن « المكافأة للذة اشتهاء المغاير » و « العوامل البنوية لاشتهاء المماثل » ، التي كانت قد ظلت حتى ذلك الحين نظرية أساساً ، ستصبح تلك البيانات مؤسسة على تجربة واقعية فعلية وتستفيد بحرية من عملية التطور الفردية لجمعة الطفل والأحداث المراهقين .

ونظراً لأن رغبة اشتهاء المماثل الظاهرة تماماً مخضعة لتحريم اجتماعي مشدد على ذلك النحو - لا تعبر عنه العقوبات القانونية إلا جزئياً - فإن الرغبات الجنسية الكامنة ، في اشتهاء المماثل و « المشاعر الجنسية التي تتعلق بأشخاص من الجنس ذاته » لا يمكنها كذلك إلا أن تقوم بدور مزدوج في إقامة علاقات العلاقات الجنسية الشديدة الزخم مع الغرض . إن المظهر الغالب في مجتمعنا ، الذي يظهر بــــه اشتهاء المماثل ، الكامن ، هو دائماً مظهر اشتهاء مكبوت للمماثل . واشتهاء المماثل ، السجين في حالات التوتر القائمة بين الرغبة اللاواعية ، واللارغبة الواعية (النفور ، الاشمئزاز ، الخوف ، عدم الاهتمام) وبين التحريم الاجتماعي ، فإن اشتهاء المماثل يتحول إلى عملية كبت جماعية ؛ وبذلك نفسه يمكن أن تخدم عملية الكبت الجماعية هـــذه بمثابة قاعدة اجتماعية - نفسانية لتصرفات عدوانية ومدمرة جداً ، على الصعيدين الشخصي والجماعي على حـد سواء ، ولتطور حركات سياسية مطابقة . لقـد أسهم شكل تاريخي خاص

لاشتهاء المماثل،الكامن،اسهاماً كبيراً في ولادة وتلاحم الحركة الفاشية الجماهيرية في المانيا . وقد وصف ايريخ فروم عام ١٩٣٨ ، هذه الظاهرة في كتابه Autoritat und Familie (السلطة والعائلة) بانه « طبع مازوخي[١] تحكمي » : « ينبغي التذكير هنا ، بصورة عامة ، بأن السادي - المازوخي يسير جنباً إلى جنب مع ضعف نسبي للشهوة الجنسية المتجهة نحو أشخاص من الجنس الآخر . وتكون لهذا نتيجتان : الأولى هو أن الرغبات الجنسية السابقة لممارسة العلاقة الجنسية العضوية ، والشرجية على الأخص ، تكون متطورة بقوة لا بأس بها ، وتتجسد في الظاهرات الطباعية : الترتيب والدقة والانتظام ، وحب التوفير والاقتصاد، هذه القيم التي تلعب دوراً بدهياً جداً وهاماً جداً على الصعيد الاجتماعي بالنسبة للطبع البورجوازي الصغير التحكمي ، والنتيجة الثانية ، هي وجود رغبات جنسية لاشتهاء المماثل ، فبأي مقدار ترتبط بنية الرغبة الجنسية السادية - المازوخية برغبة اشتهاء المماثل ، هذه قضية لم يجر إيضاحها إلا قليلاً ، من نواح عدة ... إن الحياة الغرامية التي من هذا الطراز تشكل انفصاماً غريباً . فالرجل المتسلط المتوسط هو ، من الوجهة الوظيفية (الفيزيولوجية) مشته للمغاير ، لكنه من الوجهة النفسية مشته للمماثل، وبعبارة اخرى ، فإنه إزاء المرأة قوي قادر وذلك بالمعنى حين يشبع رغباته الجنسية ، وعن تلك الطريق ذاتها، بمعنى حد أدنى من ممارسة العلاقة الجنسية من أشخاص من الجنس الآخر ، ضروري لتأسيس عائلة وانجاب أولاد . لكن ذلك الشخص هو ، من وجهة النظر النفسية ، مشته للمماثل ، وهو يتخذ إزاء المرأة ، موقفاً معادياً وقاسياً ، هذا الجانب من اشتهاء المماثل كثيراً ما سيتحول ، لدى عدد كبير من الأشخاص ، إلى رغبة ظاهرة صريحة في ممارسة العلاقة الجنسية مع أشخاص من الجنس ذاته بمعنى الكلمة الدقيق ؛ والبنى المتسلطة المتطرفة ،

---

(١) مازوخي : انحراف جنسي يلتمس فيه المرء اللذة بالعذاب (قاموس « المنهل ») .

الحديثة جداً ، تقدم لنا عن ذلك مقداراً كافياً من الأمثلة. إلا أن حالات اشتهاء المماثل ، الصريح الظاهر ، ليست هامة على الصعيد السوسيولوجي . وما هو أهم من ذلك كثيراً ، في المقابل ، هو التعلق المازوخي الحنون والغرامي للرجل الأضعف بالرجل الأقوى ، هذا التعلق الذي يشكل عامل تلاحم تتزايد أهميته وضرورته ، بصفته لا غنى عنه ، لا سيا وأن هـــذه العلاقة ، بسبب حقيقة الوضع الاجتماعي الواقعي ، هي غير عقلانية وتناقض المصالح الحقيقية للشخص الأضعف [١] » .

وبالنسبة لهذا التحليل ، نسجل ، في الفترة الراهنة من السيطرة الرأسمالية ، تغيراً لوظيفة اشتهاء المماثل ، الكامن . إن عملية تطور الجمعمة الراهنة ، بواسطة حركة الاعلان ، والتكيف مع عملية الاستهلاك بصورة خاصة ، ولكن منذ زمن قريب ، حتى عملية الجمعمة العائلية الموجهةعن بعد [٢] لم تعد تؤدي إلى تكون صفات شرجية نوعية متصلبة شأنها في الماضي. وتظهر الرغبات الجنسية الجزئية أيضاً في مجملها موجهة ــ أي محررة جزئياً ، لكي تغدو إثر ذلك محيدة معطلة الفعالية اجتماعياً بواسطة الإرغام باقامة علاقة جنسية عضوية تناسلية وذلك ما يزيد من اضعاف هذه العلاقة ، لكن اشتهاء المماثل يبدو أنـــه يفقد قليلاً من طابعه التهديدى ، مستثيراً من جانب الشخص السادي – المازوخي ، ردود فعل شديدة الخوف والعدوانية (إزاء المرأة).ويتحدث أدورنو عن هذا التطور الراهن بالفكرة ــ التي لا يمضي قدماً في المزيد من تطويرها ــ وهي أن

---

(١) Erich Fromm, in Autoritàt und Familie, tome 5 des Schriftem des Instituts fûr Sozialforoschung (éd par Max Horkheimer) Paris , 1936 , pp 125 ss .

(٢) راجع مثلا مقال « ايلترن Wann hat der Toph ausgedient » عـــدد ٥ ـ ٢ ـ ١٩٦٨ ص ٢٢ وما يليها .

المثل الأعلى الجنسي المشتهى ، يصبح في القرن العشرين ، وذلك كما يبدو تماماً ، بسبب انتشار حالة اشتهاء المماثل ، بصورة لاواعية ، في المجتمع ، يصبح المثل الأعلى الجنسي المشتهى ، طفولياً ، أي مثلاً أعلى كان يُسمّى منذ ثلاثين عاماً ، بارتماشة شبقة ، المرأة - الولد [1] ، وعلى هذا الأساس ، فإن عبارة **انتشار حالة اشتهاء المماثل** homesexualisation غير دقيقة ولا تفي بالمرام ، من حيث انها تخفي موقفاً محايداً بصورة مفرطة ، تجاه التطور المذكور . ويكون الأمر دائماً أن اشتهاء المقابل يقوم في ممارسة قضيبية وجنسية وعضوية ؛ يمكن تماماً أن تطابق بنية طبيعية للأنا المتناسق الميول المتناغم syntone (اندماج الأنا) . وبالمقابل فإن الرغبات الجنسية الكامنة ، المشتهية المماثل هي مندرجة في واجهة ممارسة العلاقة الجنسية العضوية التناسلية الخالية من التناقض ، إذا صح التعبير . إن غرض الجنس الآخر ، الذي لا يحس إزاءه الطبع المتسلط المازوخي أنه على مستواه ، وذلك بسبب ضعفه في ممارسة العلاقة الجنسية العضوية ، هو الآن بذاته مزين بخصائص « لواطية أو سحاقية » بصورة ظاهرة (السلوك والتصرف) وتوابعهما (المشية ، والملابس ، وطريقة الكلام ، والحركات) .

ولكن ها كم ما يمكن تقديمه اليوم بمثابة « خصائص لرغبة اشتهاء المماثل » : الشعر الأطول ، والمشية ذات الصفة الجنسية أكثر ، بالنسبة الرجل ، ولوازم الدُرجة (الموضة) الخاصة بالذكور ، للمرأة (في شتاء ١٩٦٧ ، سلاسل ذات حلقات بمثابة حزام على فستان أو بنطال ، وجزمات طويلة تصل إلى الركبتين وقبعات مكسيكية ذات زناقات [2]) وأخيراً تشابه الدُرجة للذكور والإناث بالنسبة لـ Evrens بصورة عامة (الفتيات والفتيان يشترون من محال

---

(١) Adorno, Sexualtabus und Recht المرجع المذكور - ص ١١٣ .

(٢) زِناقات (جمع زناق) وهو رباط من الجلد تحت الحنك (عن قاموس « المنهل »).

السلع الرجالية) إن جميع هذه المميزات ليست سوى السطح « الاشتهائي المماثل » لبنية طفولية . وهي تخفي في الواقع توحيـــد مستويات التوتر بين الجنسين ، وهذا المفهوم يشير إلى التقهقر الجماعي نحو مراحل الطفولية ويقوم بوصفه ، من الزاوية التاريخية ومن وجهة النظر الانتقادية من جانب الايديولوجيات ، بمثابة تفكك للحياة الجنسية التناسلية البورجوازية وخصائصها للذكور والإناث. ويفسر بيتر فورث عملية توحيد المستويات هذه في مناقشة له مع هربرت ماركوز: لأن هذا التوتر حين يضعف ، يمكنه أن يتخذ أدواراً جديدة ، مطابقة لحالة الضعف هذه ، وحينئذ يمكن أن يحدث بالضبط ، ما سبق لنا ذكره مرة أولى ، أي قمع يمارس بصورة غير مباشرة ، وقد كف عن أن يمارس بواسطة التحريمات التي تستثير التناقض. وهذا القمع غير المباشر لم يعد يدرك حسياً وبصورة واعية ، بل هو مقبول من الجميع ، دون معرفة من الشخص إذا صح التعبير ، ودون أن يتمكن من الكفاح ضـــده ، إذن على هذا النحو ، فإن القمع يكون أكثر خفاء واستتاراً ، وبالتالي أكثر فعالية – ولهذا له كل المصلحة ، رغم ارتكازه على تناقضات ، في أن يفعل كل ما في استطاعته لأجل تحقيق تلطيف ظاهري لما تستثيره هذه التناقضات من توتر [١] » .

هذا النموذج لحالة خالية من التوتر في الارتياح العابر الذي يشعر به الطفل (بعد الرضاعة) ، ويمكن أن يطابق هذه المقولة التاريخية ، التي تُظهر زوالاً للتوتر بين الجنسين ، وهي تشابه تقريباً المفهوم القائل بأن « كلا من الجنسين يفقد نوعيته » . هذه الطفولية هي التي يقصدها أدورنو ، حين يقول إن المثل الأعلى الجنسي الشهواني يغدو طفولياً » . هنا أيضاً يمكن القول إنه يجري ، بعـــد

Peter Furth et Herbert Marcuse « Emanzipation der (١) Frau in der repressiven Gesellsehaft » in Das Argument , No 23, 1962 , p 10 .

فوات الأوان ، فرض دور جنسي واجتماعي وتناسل عضوي على أشخاص ذكور وإناث ما يزالون في مرحلة الطفولة ، ، ذلك لأنهم غير متميزين نفسياً ، وذلك لكي يغدو من المستطاع ، بواسطة هذا التمييز والتصنيف الاصطناعيين، الحفاظ على مواقع السيطرة التقليدية (تفوق الرجل) هذه المواقع المتخطاة اقتصادياً وكذلك حالات التحريم الجنسية ، المطابقة لها (منع اشتهاء المماثل) .

وفي الوقت نفسه فإن الالغاء التدريجي للفوارق الاجتماعية ، الظاهرة في الأدوار الجنسية ، يعلن عملية تفرد individualisation أصبحت أخيراً ممكنة ، بالنسبة للذوق ، والصفات النوعية لشخص ما ، وازدهار الشخصية ، وهي آفاق طوباوية بعض الشيء . وفي رأي بيتر بروكز ، أن أحد أكثر مظاهر كومونة برلين رقم واحد تقدمية كان أنها أنمت القدرة على الإدراك الحسي ، بصورة واعية لأدنى الفوارق (الإدراكية) [1] . إن الأنا المتطورة تظهر بوضوح تام درجة تمايزه في تمييز أدق فوارق الإدراك الحسي . لقد أعطي التوتر بين الجنسين طابعاً مفرطاً على الصعيد الاجتماعي ، وجرى الابقاء عليه بعمليات قسر مفرطة هي أيضاً ، في جميع الحضارات المعروفة حتى الآن . فإذا ما بلغ تطور الأنا درجة عالية جداً مطابقة لدرجة حضارة ليست أقل ارتفاعاً ، ولا يمكن تسميتها سوى حضارة اشتراكية ، فإن التوتر بين الجنسين لن يفقد قدرته ، حتى ولو كف عن أن يتميز بعلائم مميزة خارجية ـ تحريم اشتهاء المماثل ، وتمييز الثياب تبعاً للجنس ، وتسريحات الشعر ، والايمائيات les mimiques ، والحركات ، والسلوك الاجتماعي في مجمله ـ سيمنح طابعاً متفرداً ، بمقدار ضخم ، للعلاقات بين الجنسين ، وسيؤنسن علاقاتها أخيراً .

---

(١) بيتر بروكز ـ المرجع المذكور ـ ص ١١٤ .

٦

ما المقصود بـ « إعادة الاعتبار إلى التسامي » Sublimation

إن مفهوم الدفاع تابع ، في وقت معاً ، إلى ميدان المعارك السياسية ، وإلى ميدان المعارك النفسية « وحينئذ يجري تقييم عنصر التحرر بصور مختلفة . فهو ، بصفته مفهوماً سياسياً ، يُعَرِّف أشكال كفاح الطبقة المُسَيْطَر عليها ، ضد الـ « اغتصابات » التي ارتكبتها وترتكبها ضدها الطبقة المسيطِرة » ويكون ذلك في الحالات حيث تتصف المنازعات الطبقية بواقع أن الطبقة المقهورة تكون معتادة قليلاً جداً على إظهار مصالحها المادية ، إلى حد أن هذه الطبقة لا تدافع بالضبط عن نفسها إلا ضد الانتهاكات الخطيرة إلى أقصى حد لمصالحها من قبل الطبقة المسيطرة ، وذلك دون أن تناضل الطبقة المقهورة بوعي ودون هوادة دون مجمل النظام القائم في أساس هذه « الانتهاكات والاغتصابات » . إن ما يميز النضالات الدفاعية في المصانع – الاضرابات الضارية ، والاحتجاجات ضد إقفال الآبار ، وإضرابات الإنذار ، الخ . – هو النضال من أجل الحفاظ على مستوى الأجر أو الحفاظ على عدد الاستخدامات والفوائد الاجتماعية . هذه

النضالات الدفاعية ليست مجردة ، منذ البدء ، من أهمية سياسية ، ولا أنها لا توطد النظام . فإذا كان عمال صناعة المطاط في منطقة هيس ، يؤكدون لدى الموجة الأخيرة من إضرابات شتاء ١٩٦٧ ، يؤكدون دون انقطاع على الطابع اللاسياسي لإضرابهم ، « هذا الإضراب لا علاقة له بالسياسة » فينبغي أن نرى جيداً أن هذه العبارة ، التي تكشف عن نقص وعيهم السياسي والاقتصادي ، تحتوي في الوقت نفسه على بذرة جنينية حاسمة من الوعي الطبقي ؛ ينبغي أن نفهم في النهاية هذه العبارة بصفتها رد فعل دفاعي إزاء إدارات المؤسسات والصحافة العاملة في خدمتها ، التي كانت تتحدث عن « تحريك شيوعي مضلل » لهذه الإضرابات ؛ وبرفضهم هذا التأكيد ، كان الشغيلة يريدون التعبير عن أنهم هم أنفسهم يقومون بالإضراب [1] . إن أمثال هذه النضالات الدفاعية ، في المصانع ، هي وحدها ، كما يظهر ، القادرة حاليا على استيلاد بذور جنينية لوعي طبقي وتطوير أشكال صراع طبقي ؛ وتبعاً للمفهوم التقليدي لصراع الطبقات ، فإن هذه النضالات النقابية (الترادنيونية) تكون دائماً ممهدة للصراع الطبقي . ولكن ينبغي أن لا تنشأ لدينا أوهام حول النجاحات غير المؤكدة لهذه النضالات الدفاعية ، وتناقضات تلك النجاحات . إن تجذّر عمليات المطالبة والنضالات في الروهر ، الناتج عن إقفال الآبار ، يبدو أنه يوجه الجو السياسي ، بادىء بدء ، نحو اليمين أكثر من توجيهه له نحو اليسار [2] . ففي بعض النضالات الدفاعية ، كثيراً ما لا يجري الدفاع سوى عن امتيازات النخبة العمالية ، أو عن فئة معينة متميزة من الشغيلة ، ولا يجري النضال لأجل تحسين الوضع الاجتماعي

---

(١) انظر ، Express International العدد ٥٣ — كانون الثاني ١٩٦٨ : « Streik und Bewasstseinsbildung »

(٢) على كل حال هــذا ما يبرز من مختلف أنباء الوكالات والصحف خلال شتاء ١٩٦١ – ١٩٦٨ .

لمجمل الطبقة [1] – وحتى هذا سيكون تحديداً نقابياً بصورة ضيقة ، وليس اشتراكياً على الاطلاق .

إن النشاطات الدفاعية أو الهجومية ، المنعزلة والمحدودة بانعزالها ، والخاصة بالمصانع وبالميادين الصناعية speci بمعنى الكلمة الدقيق ، تلك النضالات المتعلقة بسياسة الأجور والسياسة الاجتماعية ، هي عنصر ضروري لكل سياسة للصراع الطبقي ؛ وفيها تجد تعبيرهـا الحسي المنازعات الطبقية . لكن أشكال الدفاع هذه لا تكون إيجابية في مجملها إلا اذا كانت ممثلة بصورة دائمة في حركة سياسية ، وموسطة على مستوى الوعي في هذه الحركة – سواء أكانت هذه الحركة حزبـاً أم تنظيماً أكثر مرونة ؛ بهذا الشرط وحده تستطيع أشكال الدفاع أن تصبح حقاً العنصر الوسيط الذي يمنح في الوقت نفسه للطابع الدفاعي لهذه النضالات طابعاً تحررياً . ويطابق هذه الوساطة السياسية وساطة نفسانية يمكن وصف خصائصها بمفهوم تحليلي نفسي يطور البعد البسيكولوجي للأحداث السياسية . فالفاشية لم تقم فقط بتصفية جسدية للقادة الواعين للجماهير الكادحة ، وهي لم تحرم فقط هذه الجماهير من منظماتها ، بل لقد جردتها كذلك من مثـال **الأنا الجماعي** الذي كانت تملكه في الفترة الماقبل الفاشية . إن وعي الحركة العمالية والمساندة التي كانت تلاقيه لدى الجماهير ، التي لم تكن مندرجة بصورة نشيطة ودائمة في منظماتها ، ليسا سوى التعبير « الواعي » عن هـذا المثل الأعلى للأنا . والمثل الأعلى للأنا هذا قد أتاح لتلك الجماهير أن تقوم برد فعل إزاء التناقض القائم بين اضطهادها هي ذاتها ، من جهة ، والهزائم التي كانت تعاني تجربتهـا

---

(١) ذلك ما حدث مثلاً لدى الإضراب الضاري ، في مؤسسات شركة فابر ، شلايشر . وأوفنباخ ، في تشرين الثاني ١٩٦٦ ، وهو واقع ذكره اليسار الاشتراكي بمثابة مثال .انظر :

Heinz Jung, « Analyse des abwehrkramphes inter Betriebsbelœgshaft » in Marxititsche blâtter , ne. 1، Janv. - Fev. 1967. pp. 57 ss.

بصورة ملموسة ، بلا انقطاع ، ومن جهة أخرى مطالب النظرية الماركسية ، ووعودها السياسية ، أن تقوم برد فعل إزاء ذلك كلـه بموقف تحد ، بالقوة ، وبالتضامن ، وليس بالرضوخ . إن الوعي الذي تستلزمه هذه الفكرة « لسوف تنتصر مؤكداً في النهاية » يعبر جماعياً عن هذا المثل الأعلى للأنا ، وكان يضمن كذلك للحركة العمالية دعماً وجدانياً إزاء جميع انتصارات الرأسمالية « العابرة » و « المؤقتة » . إن إضفاء الطابع المثالي على الفئة التي ينتسب اليها المرء ، وعلى مفهومه للحياة ، كان يخدم بمثابة وقاية من الموقف الازدرائي من جانب الطبقـة المسيطرة التي كانت تبرر دائماً الاستثمار الاقتصادي والاستثمار السياسي بنسبتهـا العجز شبه البيولوجي الى الطبقـــة العاملة عن المشاركة في الحضارة وكذلك بإنكارها عليها كل نزعة انسانية .

إن عمليات إضفاء الطابع المثالي على الحركة العمالية الاشتراكية قـد جرى تدميرها تدريجياً في السنوات التي سبقت قيام الفاشية . وعملية التدمير هــذه تتجسد في وضع البروليتاريا وتربيتهـــا العائليين ، وفي مختلف التكتيكات الانشقاقية للمنظمات العماليـــة وحتى في العبارات المتزايدة الجذرية للافتات والمناشير . لكن المثل الأعلى للحركة العماليـة هو أيضاً الذي يتجسد في جميع مناشير ذلك العهد ولافتاته ومواكبه وتظاهراته ؛ وهذا المثل الأعلى لم يستطع أن يتكون إلا خلال التقدم الظافر ، الموضوعي ، والسهل الملاحظة ، ذلك الذي حققته الحركة العمالية ما بين عامي ١٨٨٠ - ١٩٣٠ . إن مثل الأعلى الأنا هذا كان أضعف كثيراً من أن يستطيع الدفاع عن نفسه ضد الفاشية . ولكن اذا ما فكر في الوسائل النفسانية والاقتصادية التي استطاعت الفاشية الاستناد اليها ، والتي لم تكن في متناول الحركة العمالية الاشتراكية لأسباب بنيوية ، نجد أنفسنا مضطرين للقول : ان مثل الأعلى الأنا لدى الحركة العمالية كان قوياً بمقدار كاف من القوة بحيث استطاع أن يدافع عن نفسه كل هذا الزمن الطويل ضد الفاشية .
ان « المثل الأعلى للأنا لا يمكن اعتباره مماثلا تماماً للأنا - المثالي le sur moi.

بل إن الأوّل في الأصح هو وظيفة للأنا المثالي ، الذي لا يمكنه التطور إلا على أساس أنا نسبي مستقل ذاتياً ، وليس ممزقاً بين الانفعال اللاواعي والأنا-المثالي. وقد كتب فرويد يقول بصدد الأنا - المثالي : « إنه كذلك حامل المثال الأعلى للأنا ؛ الأنا يقاس به ، ويطمح الى بلوغه ، ويجهد لتلبية متطلباته من التحسين الدائم . ولا شك مطلقاً في أن هذا المثـل الأعلى للأنا هو الشكل الجديد الذي تتخذه التصورات القديمة التي كانت لدى الولد عن أبويه ، وإعجابه بهذا الاكتمال الذي كان الولد يعزوه لهما حينئذ »[١] . إن هذا الإعجاب لاكتمال الأبوين هو في الطفولة المبكرة سلوك مطابق وعقلاني : وهو يعطي حوافز دائمـة الأمد لطموح الطفل إلى الاستقلال الذاتي ، هذا الطموح الذي يبعث على هـذا النحو نرجسيته المجروحة بقوة أبويه ، ويتوصل بذلك إلى تصعيد نزعاته النرجسية هو ذاته . وإن لم ينقل هذا الإعجاب الطفولي بالأبوين بكل بساطة إثر ذلك ليتركز على مواضيع إعجاب أخرى ، بل بالعكس ، جرى هذا النقل في اتجاه أمثلات جديدة نوعياً ومطابقة للشخص الراشد ، فإن الأنا - المثالى الذي يعبر عن هذه الأمثلات يكون ذا وظيفة إيجابية بالنسبة لاتجاه الفرد ، الشخصيوالاجتماعي؛ وتسمى هذه الوظيفة : المثل الأعلى للانا . إن الجهاز الحزبي ، المستبطن فيالأنا-المثـالي المتصلب للموظف الشيوعي والاشتراكي الديمقراطي ، يعبر بصورة طبيعية عن واقع أن الإعجاب القديم بالأبوين قد جرىفقط تغييره لقاء إعجاب على نفس الدرجة من التعلق إزاء سلطة الحزب ، دون أن يتم مع ذلك تخطي عناصر عدم الاكتمال للاعجاب القائم على التعلق والتبعية. والأصح الحديث هنا عن إنجاز تحكمي للمعيار ، الذي لا يحتاج اليه الأنا - المثالي لوظيفة المثل الأعلى للأنا ، وعلى كل حال فإن تطلب الأنا للاكتمال المتواصل لا يتصف به هـذا

---

(١) Freud, Die Zerebegung der psychischen Persônlichichkeit , tome XV. p. 71 .

السلوك. ففي الأمثلات الجماعية للحركة العمالية يجري التشديد على هذا المطلب: **وفي تضامنه** ، الذي ينبغي أن يتيح التغلب على تبعيته للسلطات؛ وفي **انضباطه** ، المفروض بصورة جماعية على الأنا ، الذي ، وهو منعزل ، يظل ضعيفاً ؛ وفي **وعيه للانتصار** ، وهو تعبير جماعي عن الطموح الى الكمال . وبديهي أن هذا المطلب المشدد لم يتم إنجازه إلا بصورة غير كاملة ؛ ولو كان الأمر بخلاف ذلك ، لما كان باستطاعة تصفية منظمات الحركة العمالية أن تستتبع تدميراً ساحقاً ماحقاً وعلى الأخص سريعاً جداً للمثل الأعلى للأنا لدى المنتسبين إليها . وبعد الفاشية ، لم يبق من الممكن حتى إعادة ايجاد العناصر الأولية لتكون هذا المثل الأعلى للأنا . هذه الواقعة التاريخية تكشف بصورة حادة التداخل بين التنظيم الجسدي واسهاماته الفيزيولوجية الحسية وبين الأمْثَلَة idealisation (الوعي الطبقي) ، وهي ظاهرة حتمية بالنسبة لعصرنا .

إن المثل الأعلى للأنا هو ، بمعنى ما ، أقرب الى الأنا من الأنا المثالي . وحين يكون موجوداً ، فهو يظهر حينئذ أن الأنا المثالي **يولد فعلاً** ، في الحالة المثالية، من الأنا ، وليس منضداً فوقه تنضيداً وحسب - نحو ما يبدو الأمر أكثر فأكثر في التكوينات الحالية للأنا المثالي . وحينئذ فإن المثل الأعلى للأنا هو الذي يصوغ بصورة مباشرة الوظائف التي ينبغي أن يمارسها الأنا : انتصارات الوعي، والرقابة على الواقع ، وضبط الرغبات الجنسية ، وتوزيعها الخ . بهذا المقياس تتوقف مباشرة قوة الأنا على نوعية المثل الأعلى للأنا ، بخلاف نوعية الأنا المثالي .

لقد أثبت إريخ فروم في كتابه Autoritât und familie أن تكون الأنا ، في عملية تطور السيطرة ، مرتبط ارتباطاً وثيقاً ، بالوضع الاجتماعي للشخص المعني : « إن الطبقة التي لديها ، من حيث دورها ذاته كدورة حاكمة ، الرؤية الأكثر شمولاً للأشياء ، تكون كذلك في ذروة سيطرتها ، والأكثر تقدماً

في تطور الأنا لديها son moi » . لكن إريخ فروم استخلص من هذا المعطى المضبوط والمدعوم بصورة صحيحة بالتجربة، فرضية سوسيولوجية حول التحول الاجتماعي الذي لم يتأكد حتى الآن إلا في شطره الأول – السلبي – والذي ينكشف شطره الثاني – الايجابي – اليوم ، بوضوح متزايد أكثر فأكثر أنه خاطىء : كلما ازدادت التناقضات الاجتماعية تعمقاً ، كان النظام السائد أقل مستوى من مهمته بمعنى عقلاني وتقدمي ، وسيستتبع دور الحكام الاجتماعي بمقدار أقل ، توطد « أنام » (الأنا لديهم) غدت عملية نمو الأنا ستجري في جماعات اجتماعية أخرى » . إن هذه الجماعة الاجتماعية كانت ما تزال ، في رأي فروم أيضاً عام ١٩٣٦ هي البروليتاريا ، التي ستتولى الحكم كطبقة وستتلقى من سالفتها ، الطبقة البورجوازية ، أثمن عناصر تطور الأنا لدى هذه الطبقة ؛ وطبقة البروليتاريا سوف تستعيد هذه العناصر ، كما تموضعت في الحضارة ، بتشجيعها بذلك نفسه تنميتها الجماعية الخاصة للأنا . هذا النموذج هو نقل جد تبسيطي لمجرى التطور البورجوازي الى مجمل الوقائع النفسية والنفسية – الاجتماعية التي ترافق الثورة الاشتراكية الجاري العمل لتحقيقها . وسأعمد الى نقد هذا النموذج لـ « نقل صفات الأنا ، المكتسبة بواسطة المجتمع ، الى الطبقة الثورية » ، وذلك بتلخيص النزعات الى الذوبان الجماعي لصفات الأنا ، وهي النزعات المعالجة في الفصول السابقة انطلاقاً من وجهات نظر خاصة . وفي الرأسمالية المتأخرة زمنياً، يحل هذا الأنا محل أنماط استقرار السيطرة الاجتماعية – الاقتصادية ، والمسيطر عليهم ، والمسيطرون ، بظهورهم ، لا يبقى أمامهم منذ ذلك الحين أن يمتلكوا قوة الأنا إلا بمقدار صغير ، وذلك مع عدم تعرض نظام السيطرة هذا لأي خطر كان .

وللتعبير عن ذلك بصورة إيجابية ، ينبغي القول إن الطبقة المسيطرة تفقد ولا شك لدى سيطرتها بعضاً من قدرات الأنا لديها ، التي سبق أن طورتها

البورجوازية الصاعدة - ولكن في الوقت نفسه ، وجزئياً لهذا السبب[1] - تكون ما تزال على مقدار كاف من القوة بحيث أن النتائج الموضوعية لانتصارات الأنا هذه القديمة لا تنتقل الى الطبقة المقهورة (المسيطر عليها dominé) ؛ بل ان هذا ضروري لا غنى عنه لكي تستطيع الطبقة الحاكمة الحفاظ على سيطرتها. هناك نتيجة ، ذات دلالة كبيرة جداً من وجهة النظر الاقتصادية والسوسيولوجية ، لهذه الطريقة المستخدمة للحفاظ على السيطرة ، وتقوم في أن جزءاً كبيراً من الموارد الثقافية المحتملة pote ، والتي امتلكها المجتمع في الماضي ، يجري خنقها ، ويكف تطويرها أو على الأقل تكف عن أن تكون مجدية على الصعيد الاجتماعي. من بين هذه الموارد المحتملة ينبغي أن نذكر مؤهلات (الأنا) الخلاقة . أي أن العديد من طرائق المتعة واشباع الرغبات المتجسدة منذ زمن طويل في الواقع ، والمستحدثات الاجتماعية ، وعقلنة عمليـــات العمل وبصورة خاصة في الفئات الدنيا اقتصادياً ، يجري قمعها في الوقائع . وهذا الثمن ينبغي دفعه ، مهما كلف الأمر ، لأن اتساعاً لهذه المؤهلات ، بل وربما مجرد واقع التخلي عن تشويهها الدائم ، من شأنه أن يشكل خطراً جدياً بالنسبة لنمط تجديد الانتاج القائم في النظام الاجتماعي - الاقتصادي الرأسمالي. لهذا السبب يرفض كلوس أوف، لدى تحليله ، هذا الوضع على الصعيد السوسيولوجي ، الاعتراف لأنظمة اليوم الاجتماعية الرأسمالية ، حتى صفة « مجتمع المردود ! » لأن هذا التعريف محايد جداً بحيث لا ينطبق على مجتمعات يجري فيها بصورة جماعية قمع النمو الفردي للمؤهلات والقدرات على زيادة المردود » (الخلاق) .

إن انتصارات الأنا ، المطلوبة اجتماعياً بالنسبة للفئة الوسطى العليا ، في هذه

---

(١) دون الفقدان الجماعي لمؤهــــلات كالشرف ، والإنسانية ، والتسامح البورجوازي ، والحساسية ، ما كان باستطاعة الطبقة الحاكمة أن « تهضم » البربرية والوحشية الجماعيتين على نحو ما تحدثان مثلاً في حرب فيتنام .

المجتمعات ، تخدم بمثابة معايير بالنسبة لجميع الفئات الاجتماعية ، كما أن سلوكه الجنسي - أي الأنا - يرفع إلى درجة معيار القاعدة القضائية للحق الجزائي ، وقبل كل شيء إلى ممارسة السلطات القضائية الجزائية . إن واقع إقامة معايير لصفات محدودة للأنا ، وهو واقع قمعي ، في حد ذاته ، يمكن إثباته وذلك بطرائق صياغة حاصل ذكائي موحد (ح ذ) لأجل قياس قدرة مردود جميع الفئات الاجتماعية ؛ إن حواصل الذكاء تستند ، فقط تقريباً ، إلى التحليل الذي يجري ابتداء من الفئات الاجتماعية الوسطى . إن الانتصارات « النافعة اجتماعياً » هي وحدها التي يجري قياسها في هذا النظام ، وبخاصة المزايا المطلوبة لمهن الفئات الوسطى ، وقد أثبت تجريبياً أن « حواصل الذكاء » تنبذ ، نوعاً ما ، المؤهلات الخلاقة ، ولا تتنازل للنظر إلا إلى قدرات الشخص المحددة للانتاج [1] . والحال ، وبسبب هذه الحدود الصحيحة أيضاً بصورة مزدوجة بالنسبة لأفراد الفئات الدنيا ، فإنهم الأقل قدرة على تقديم علائم المردود التي يمكن اعتبارها اجتماعياً . ووضعهم الأقتصادي المتدني تزيد حينئذ من تدنيه عمليات تطور اجتماعية تقوم على أساس الانتقاء . والفئة الوسطى تشترك فعلاً في ممارسة السيطرة الاجتماعية وذلك بمقدار ما ترتفع الصفات الاجتماعية والنفسية لمردود تلك الطبقة ، إلى مستوى معايير ، بالنسبة لمجمل المجتمع . وهذا الواقع سجل كذلك على كل حال ، بصورة غامضة ، من قبل الفئات الدنيا ، وذلك في اعترافها الراضخ بنقصها . ويبدو أننا حينئذ بإزاء سلوك يشبه ولو على نحو ما زال بعيداً الاتجاه بالنسبة لمثل أعلى للأنا ، وذلك بصورة جوهرية حيث يفسر أفراد الفئة الدنيا تظاهرات المعارضة السياسية من

---

(١) برهن أوفرمان على ذلك . المرجع المذكور : وقد قدم اوفرمان عرضاً لدراسة أثبت فيها أن « القدرة على الابداع » وحاصل الذكاء الذي جرى تحليله ، ليس بينهما سوى ترابط بسيط جداً » (ص ١٧٩) .

قبل الفئة الوسطى بمثابة تظاهرات أبناء بورجوازيين (طلبة ، مثقفين ، طفيليين) وترفض هذه التظاهرات بصفتها كذلك . لكن تعلقـــاً عنيداً بمعايير الطبقة الوسطى بشكل ، بالضبط ، نواة هذا الدفاع ، وأحرى بنا أن نتحدث حينئذ عن اتجاه متصلب بالنسبة للأنا ـ المثالي للطبقة الوسطى ، من أن نتحدث عن مثــل أعلى لأنا جماعي خاص بالفئة الدنيا [1] إن التشابه بين تقنيات الدفاع المستخدمة حينئذ ، وآليات الدفاع الجماعية والذهانية (عمليات التقهقر والانطــلاق الاستيهامية Fantosmotiques) يميز التعبير النفساني عن التكون الراهن لوعي خاطيء . إذ أن هذا الدفاع يضع نفسه سياسياً في الجانب السيء أي إلى جانب صفات الآنا ، أمثال المردود المتصلب ، والقسر ، والطاعة ، التي تشكل معايير قممية كذلك بالنسبة للفئة الوسطى . ومن وجهة النظر هذه ، فإن الفئة

---

(١) مؤكد تماماً أن هذا الاتجاه المتصلب من جانب الطبقة الدنيا بالنسبة لمعايير الطبقة الوسطى ليس قائماً في جميع بلدان الرأسمالية المتأخرة زمنياً ، وليست له قيمة مطلقة في أي من هـــذه البلدان ، وحتى في الولايات المتحدة ، حيث نجد هذه الظاهرة ، ولا شك ، الاكثر تطوراً ، توجد أمثلة معاكسة ينبغي تفسيرها ، بالاحرى ، بمثابة بقايا أكثر منها بمثابة بدايات وعي طبقي وهكذا يدرس بيتر ماريس العوامل الاجتماعي لشروط السكنى .

(Report on Urban Renevral in the United States in L. I Duhl Céd) . the urban Condition p 37)

وفي حي سكني ، متلاحم اجتماعيا تلاحماً جيداً ، مخصص للطبقة الدنيا والذي أعلنه « slum ومدكوكاً من أساساته » لو كان الأمر هكذا كليا ، اذن لكانت الثقافة التحتية « الباطنية » باهتة على نحو ما تظهر لكثير من المراقبين التقليديين ، منفرة ، ضائعة ، امتثالية ، عديمة التسامح ، خالفة . غير أن الاخلاقية المعاكسة للتيار ، والتي هي اخلاقيـــة تلك الفئات الدنيا هي قادرة في الواقع على الحفاظ على الفضائل التي هي بالذات ، الاصعب قبولا للتمشي مع المعايير الاميركية ، هذه الطبقة الدنيا تضع اخلاصها فوق المزاحمة ، والعلاقات الشخصية فوق الاهداف غير الشخصية ، والاسراف في الانفاق فوق نزعه التوفير ، ومتعة الحاضر فوق مشاغل المستقبل . » .

الوسطى هي فئة مقهورة شأن حال الفئة الدنيا تماماً ، ذلك لأنه لا يُسمح ، بالنسبة إلى الفئة الوسطى ، هي أيضاً ، ولا يشجع ، ولا يكافأ سوى صفات الأنا المحدودة جداً .

لكن في هذا الصدد، فإن الفئة الوسطىفي أيامنا هذه هي الضحية الكبرى. ولديها ، أقل من الفئة الوسطى ، إمكانية التوصل إلى هوية للأنا ، هي وإن كانت قمعية ، إلا أنها تفرض نفسها رغم ذلك فردياً وهي باستطاعتها وحدهـا أن تكون قاعدة لمثل أعلى للأنا الجماعي . إن المحاولة الدراسية التي قام بهـا هايـد بيرندت تحت عنوان – psychiatris - cher Erkrankungee Zur Soziegenesse (المنشأ الاجتماعي للأمراض العائـدة للطب النفسي والعقلي) يلقي ضوءاً ساطعاً جداً على هذه العلاقة . إن حالات الانهيار الذهانية (ولا سيما الأمراض الفصامية) في الفئة الدنيا الأميركية ، هي وسطياً أكثر تواتراً منها في الفئات الاجتماعية الأخرى . وتعالج هايد بيرندت ، انطلاقاً من هذا المعطى العام الذي سجله ، المسألة المطروحة ضمنياً في مجموعـة المؤلفات الأميركية للطب العقلي والنفسي التجريبي وهي : لماذا يشبه تنميط الأدوار في عائلاتالفئات الدنياشبهاً كبيراً « آلية دفاعجماعى للعُصاب الاستحواذي[1]» وهي تتوصل من ذلك ، بالاضافة إلى آخرين ، إلى الاستنتاج بأن أعضاء الفئـة الدنيا ، في جهودهم لشق طريقهم اجتماعياً واقتصادياً ، هم مضطرون لتمثل قيم الفئة الوسطى . لكن نظـام معايير وتربية الفئة الدنيا ، الذي ينبغي أن تجري عملية التكيف بالاستناد اليه ، يكون تابعاً للأنظمة المطابقة لدى الطبقة الوسطى . وإذا كانت تنتج عن متابعة هذا الهدفعمليات انهيار ذهانية كثيرة،

(١) Heid Bernat Zut Sozigenese psychiatiseher Erkrankungen. op. cit. p. 473 .

فذلك لأن أعضاء الطبقة الدنيا ليسوا مكونين كفاية (لم يكتسبوا الصفة الاجتماعية الكافية) على أساس معايير الفئة الوسطى ، وعليهم لهذا السبب أن يتكيفوا بصورة قسرية مع معايير لا تطابق شروط معيشتهم ولا يمكن أن تكون بمقدورهم . » إن الانحرافات الذُهانية تظهر أنها فقط مجرد انهيار فردي ناتج عن التضييقات الطبقية ، التي تجري محاولات مشددة للتغلب عليها على المستوى الفردي لا الجماعي »[1] .

إذا ما ترجمنا تعبير « التضييقات الطبقية » بـ « الحواجز الطبقية » وتعبير « المستوى الجماعي » بـ « الصراع الطبقي » ، وإذا ما طبقنا مجمل ذلك – مع جميع التحفظات الضرورية – على الجمهورية الاتحادية الالمانية ، أو على نزعة ملموسة في جميع بلدان الرأسمالية المتأخرة زمنياً ، ندرك أية حقيقة يطابق مفهوم المثل الأعلى للأنا الجماعي . وهنا سوف يُعترض حينئذ بأن معايير الطبقات الوسطى كانت صالحة وصحيحة حتى بالنسبة للطبقة الدنيا في العهد الماقبل الفاشي ، وهي معايير لم يكن في وسع كل فرد من أفراد الطبقة الدنيا إلا أن يتبناها . وهذا شيء صحيح بالضبط . إن ويلهلم رايخ ، ونظريين آخرين للحركة العمالية ، لم يكفوا عن الشكوى المريرة من أن العائلة العمالية وكذلك العائلة البورجوازية الصغيرة تستطيع أن تلعب دور « مصانع للايديولوجية » . فلماذا اذن انتظرت عمليات الانهيار الذهانية الحادثة في عائلات الطبقة الدنيا قد انتظرت هذا الجيل للظهور بهذه الكثرة من الحالات ؟ وفي مواجهة معايير المثل الأعلى الارغامية ، المطابقة لنظام السيطرة ، لدى الطبقة الوسطى ، استطاعت الحركة العمالية ، جزئياً على الأقل ، أن تنشيء ، مثلاً أعلى مناقضاً تماماً ، يحدد ايجابياً قيماً بروليتارية . وحتى لو أن هذه القيم لم تكن تدخل إلا بصورة ناقصة جداً في العائلة البروليتارية ، إلا أنه كان

(١) المرجع ذاته – ص ٤٧٣

حقاً أيضاً بنفس المقدار أن شعار « إذا كان ساعـدك القوي يريد ، فالآلات ستتوقف » « Alle Râdre stehen still, wenn dein starken arm is welle » كان صحيحاً بالنسبة للموسسة . وينبغي التأكيد كثيراً على تأثير استقرار هذا المثل الأعلى بالنسبة لتحقيق الذاتية الاجتماعية والصحة النفسية لأفراد الطبقة الدنيا . وحينما لم يكن هذا المثل الأعلى ملصقاً كجسم أجنبي ، ولا يعمل بمثابة أنا مثالي تسلطي بل يعمل في اتجاه مثل أعلى للأنا الجماعي ، فقد أطلق غرائز ورغبات جبارة حقاً من أجـــل صراع الطبقات . إن منظمات كمنظمة « الإسعاف الأحمر » أو « الإسعاف العمالي العالمي » كانت تستطيع ، كما يبدو تماماً ، أن تضطلع بصورة أفضل بتكوين مثل أعلى للأنا الجماعي في الأعوام الأخيرة السابقة لقيام الفاشية ، لأن تلك المنظمات كانت تطابق بصورة أفضل الحاجات المباشرة للجماهير من أجهزة الحزب والنقابة ، المجمدة ، والتي كانت تسلطية بسبب بعدها عن الجماهير . وقد أنشئت خصيصاً لذلك الغرض حركات مثل السيكسبول sexpol . لقد قام المثل الأعلى للأنا الجماعي بتحريك آليات فعالة للدفاع ، ينبغي الاعتراف بطابعها الايجابي في النضال السياسي وفي الكفاح ضد حالات العصاب الجماعي . ولا شك في أنها لم يكن بمقدورها قطع الطريق على الفاشية ، التي يمكن اعتبارها ، بالضبط ، من وجهة النظر هذه بمثابة مرض عصابي جماعي . (حتى ولو كان هذا المنظور لا يكفي لتفسير قيام الفاشية) ؛ إن الفاشية التي فرضت نفسها بمواجهة جميع آليات الدفاع المؤيدة للعقلانيـــة والتي أظهرت بدلاً عنها آليات دفاع مُمْرِضَة (مولدة للمرض pathogènes) هي كلياً في خدمة أنا – مثالي جماعي مستقل عن الأنا .

طبعاً إن الطبقة العاملة في فترة ما قبل الفاشية كانت طبقة متدنية المستوى إلى درجة أنها لم يكن في استطاعتها التوصل إلى صياغة مثلها العليا الخاصة دون القيام على نطاق واسع بعملية حـــد اصطناعية للأنا ، وهي لم تكن في الواقع محرومة فقط من الناحية الاقتصادية تماماً شأن البورجوازية الصغيرة ، بـــل ،

وبصورة أكثر وضوحاً ، كانت محرومة من الناحية الاجتماعية .

إن فرداً من أفراد الفئة الدنيا كان يمكن التعرف إليه من أول وهلة بصفته كذلك ، أي بصفته بروليتاريا . وهذا الوضع يتيح لنا أن نفهم كذلك عملية التحديد الايديولوجية التي قامت بها الحركة العمالية بالنسبة للبورجوازية الصغيرة. وكان ذلك شرطاً لا غنى عنه ، لدى تكوين مثل أعلى للأنا الجماعي في ظروف اجتماعية سيئة إلى أقصى حد ، اجتماعياً . وذلك رغم جميع النواقص والعيوب اللاحقة .

إن الظروف قد تدهورت وساءت أثناء عهد الفاشية ومنذ ذلك الحين ، الى حد لم يعد يمكن حق بجرد الحديث عن بذور جنينية لتكوين مثل أعلى للأنا الجماعي في الطبقة المقهورة في الجمهورية الاتحادية الالمانية . ولم يعد ممكناً مطلقاً أن نحدد الآن ، في يقين وتأكيد ، أن متقني المعارضة بتآزرهم مع الشبيبة سيتمكنون من صياغة مثل عليا خاصة بهم تتغلب على التراتب الاجتماعي وبذلك نفسه سيتمكنون من صياغة حضارة مضادة une contre revolution. وعلى كل حال ، فإن الخطوات الأولى لهذه الصياغة قد حققت اليوم مع اتساع حركة الرفض .

لم يتم سوى مؤخراً جداً القبول بصورة منهجية بمفهوم **الدفاع** في نظرية التحليل النفسي . ويعود ذلك أساساً الى أن دور الأنا ونشاطه المتنوع جداً للدفاع ضد الأمراض العُصابية وعلى الأخص الذُهانية لم يعترف بها إلا في وقت متأخر جداً . وهذا المكسب الجديد يعود الفضل فيه ، على الأخص إلى أنّا فرويد Anna Freud . فهي قد وسعت لتحقيق ذلك فكرة أولية لفرويد تركها في حالة تصميم أولي . تقول أنّا فرويد :

« إن فرويد يعود إلى مفهوم القديم حول الدفاع ، وذلك فقط في تذييله لكتابه « **الكبت** » **الأعراض والقلق** » (١٩٢٦) والذي أعلن إدراكه للأهمية

الكامنة في إعادة مفهوم الدفاع إلى قيد الاستعمال ، مع تحديد فرويد بدقة «أنه لا يحسن استعماله إلا لتمييز ، بصورة عامة ، لجميع الطرائق التي يستخدمها الأنا في المنازعات التي من شأنها أن تؤدي الى داء العُصاب ، في حين أن كلمة كبت تدل ، من جهتها ، على نمط محدد تماماً للدفاع أتاحت لنا أبحاثنا معرفته بصورة أفضل » وهكذا نجد تدقيقاً لمعنى « كبت » ، هذه الظاهرة التي تفصل الى جانبها تفاعلات نفسية أخرى ، هادفة الى نفس الغرض : « حماية الأنا من متطلبات الغرائز والرغبات الجنسية » [...] . ولو لم تكن متطلبات الأنا أو متطلبات القوى الخارجية الممثلة بالأنا ، تمارس ضغطاً ، إذن لما عرفت الغريزة والرغبة الجنسية سوى مصير واحد ، وهو الإشباع والتلبية وتحقيق المتعة . ويمكن أن نضيف الى طرائق الدفاع هذه التسمة المعروفة جيداً في الممارسة التطبيقية وفي نظرية التحليل النفسي والتي جرى وصفها بتوسيع كبير وهي : (الكبت ، والانكفاء ، والتكوين القائم على رد الفعل ، والعزل ، والإلغاء الارتدادي ، والإسقاط النفسي والتحويري ، والاندماجية introjectiôn والانكفاء ضد الذات ، والتحويل الى العكس) يمكن أن نضيف طريقة عاشرة أحرى بنا القول أنها تعود الى ميدان الحالة الطبيعية منها الى داء العصاب ، وهذه الطريقة هي التسامي la sublimation أو نقل موضع الغرض الغريزي .

« وهكذا ، تبعاً لمعارفنا الراهنة ، نستطيع التأكيد أن الأنا في نضاله ضد ممثلي الغريزة والرغبة الجنسية وضد المؤثرات الأولية ، يملك عشر طرائق مختلفة . والى النشاط العملي يعود أمر ملاحظة إمكانية نتائج هذه الطرائق في كل حالة بذاتها ، في سياق عمليات تطور المقاومة من جانب الأنا ، ونشوء الأغراض [1] » .

ويمكن أن يضاف الى ما سبق : إنه يعود الى التحليل السياسي والسوسيولوجي

---

(١) آنا فرويد – الأنا وآليات الدفاع – المرجع المذكور – ص ٤١ وما يليها .

مراقبة وتسجيل ماهية تفاعلات أنا التي لم يبق باستطاعتها التكون حالياً، والتي تدنت أو "شوّهت" ؛ وأية منها تقوم حالياً بالدور الأساسي وما هي الأعراض أو الأمراض التي تظهر حينئذ جماعياً .

إن أنا شخص ما ، يولد تاريخياً ابتداء من « عملية الحد بالنسبة للانفعال اللاواعي » إنه يفصل عن « الانفعال اللاواعي » . وعملية نشوء الأنا ابتداء من الانفعال اللاواعي تحدد كذلك وظيفة أساسية يحتفظ بها الأنا البالغ الراشد طوال حياته . وقد كتبت أنّا فرويد تقول : « إن الأنا مهدد بأن تغرقه الغرائز والرغبات الجنسية ، وما يخشاه ، فوق كل شيء ، هو **كمية هذه** الغرائز والرغبات الجنسية [...] . إن التدابير الدفاعية التي يمليها على الأنا الخوف من قدرة الغرائز والرغبات الجنسية ، تهدف الى إبقاء هـذا الانشقاق بين الأنا والانفعال اللاواعي ، **وضمان التنظيم الجديد للأنا** [1]». ويمكن أن نحدد على النحو الأفضل ما إذا كانت هذه المهمة قد حققت ، وبأية كيفية ، وذلك بصورة تجريبية وانطلاقاً من منازعات أمثال حالات الانحراف والحالات الذُهانية حيث يتعرض الأنا « لأن تغرقه الغرائز والرغبات الجنسية » . وواقع أن الأنا تغرقه الإستثارات يميز أيضاً هذه المنازعات . والأشخاص الذين تسيطر عليهم هـذه المنازعات لا يملكون تقنية مطابقة للرقابة الداخلية على الغرائز والرغبات الجنسية ، ولذلك فهم مضطرون لرد الفعل على المناطق الخاضعة للمراقبة وعلى حالات القسر التي يفرضها عليهم ، فجأة ، العالم الخارجي أو الأنا — المثالي ، غير الموجود إلا جزئياً ، وذلك بواسطة تقنيات للدفاع غير ملائمة — تقود ، عند اللزوم ، الى داء الذُهان والى الانحراف — ؛ وإذن ، الى القيام برد فعل على ذلك بتقهقر تام ، وبالفرار من الواقع المرتبط به ، أو بتفسخ الأنا . إذن هؤلاء الأشخاص يضطرون إلى الانحصار في آليات دفاعية لا يمكن تحديدها

---

(١) آنا فرويد — المرجع المذكور — ص ١٥٣ - ١٥٤

بدقة ، كما هي الحال بالنسبة لآليات الأنا ، وذلك بسبب بسيط وهو أنها لا تحمي الأنا ، بل تدمره وتشقه .

ولدى التفكير والمحاكمة على هذا النحو ينبغي أن يؤخذ في الحسبان واقع ان « تدفق الرغبات الجنسية » ، ليس خطراً دائماً منبثقاً من الانفعال اللاواعي ، ويستطيع الشخص السليم أن يكافح ضده بصورة أفضل مما يفعل الشخص المريض. إن شطراً كبيراً مما يعاش ذاتياً بصفته خطراً ، إنما ينبثق من العناصر الممثلة للأغراض ، أي من معطيات الوسط الاجتماعي - الثقافي المحيط : وفي الحالة المذكورة ، ينبثق الخطر الموصوف بالشكل السابق ، من ممثلي تلك الأغراض ، المستبطنة في الأنا - المثالي . فتدفق الرغبات الجنسية هو إذن أيضاً خطر على الأنا - المثلي ، الذي يُفسّر نزعة الانفعال اللاواعي هذه بادىء بدء بصفتها خطراً ، ويرد عليها بالقلق ، ويعهد إثر ذلك إلى الأنا باستخدام تقنيات الدفاع ضد هذا القلق . وينبغي أن نستخلص ذلك من الاستنتاج التالي : إن الأنا لا يضطلع بمهمة الدفاع إزاء الغرائز والرغبات الجنسية إلا جزئياً ولمصلحة الأنا ؛ والقسم الآخر من الدفاع وربما كان هو الأكبر ، إنما يقوم به الأنا لمصلحة الأنا - المثالي . إن آنا فرويد لم تحدد هذه العلاقة بدقة ، في كتاباتها . وأنا فرويد تنتقد ، عن حق ،نواحي عجز وتقصير بدايات علم التحليل النفسي ، مبرزة أن عمليات تطور الانفعال اللاواعي وردود فعل الأنا - المثالي هي وحدها التي أخذت بعين الاعتبار في التحليل والنظرية . ومع ذلك ، فإن آنا فرويد توحي لنا بالانطباع بأنها لم تصحح نواحي العجز والتقصير هذه إلا نصف تصحيح . إنها تؤكد على عمل الأنا في التحليل وفي الحياة اليومية الجارية ، لكن آنا فرويد تهمل أن تُحَدّد بدقة علاقة الأنا وأنا - المثالي ، أو أيضاً المثل الأعلى للأنا . بل آنا فرويد تقيم تشابهاً ضمنياً ، أثناء أبحاثها ، بين الأنا - السليم - والانفعال اللاواعي . يمكن أن نعثر من هذا الخطأ ، القائم في رسم الحدود بصورة غير كافية بين الأنا والانفعال اللاواعي ، بشكل آخر ، لدى عدة محللين نفسيين سوسيولوجيي النزعات - بعكس آنا فرويد . ويعمل فروم ،

لدى تقديمه براهينه ، كما لو أنه ينبغي القبول بفرضية علاقة تبادل آلي بين الأنا والانفعال اللاواعي . وينطلق فروم من فرضية أن الانفعال اللاواعي والسلطة مرتبطان ضرورةً ، وأن الأول يكون عليه أن يجدد انتاجه باستمرار من قبل سلطات واقعية قوية [١] . ويستخلص من ذلك الاستنتاج أن الانفعال اللاواعي سوف ينزع إلى فقدان أهميته أكثر فأكثر ، وذلك لدى قيـــام تربية متزايدة العقلانية ، وإشباع متزايد إيجابي للرغبات الجنسية ، وتحقيق عقلانية متزايدة للمجتمع (العالم الخارجي ، بما في ذلك معاييره) . والحال ، فإن هذا ليس ذا قيمة إلا بالنسبة للأشكال القديمة البالية من الانفعال اللاواعي ، العائـــدة لعالم ما زال بدائياً ، من المشاعر والأفكار . وصحيح ، بالتأكيد ، أن الانفعـــال اللاواعي هو نفسه ، ووظائفه ، يتزايد طابعها اللاعقـــلاني ، في حالة وجود مجتمع في وضع لاعقلاني متزايد ، ويتزايد تصلبهـــا أكثر فأكثر ، وأنّ الأنا يفقد فيها شيئاً من استقلاله الذاتي . لكن استنتاج العكس مستحيل .

وعلى غرار ذلك ، شابه م. د. ايدر ، بصورة صريحة جداً وجازمة ما بين الانفعال اللاواعي ووظيفته الرئيسية الراهنة : استبطان (التعبير النفسي) عن السلطة اللاعقلانية وتعبئة القلق ضد الانفعال اللاواعي . وفي رأي م. د. إيدر أن ثمة انطباعاً يتعزز وهو أن الشخص لم يكن مرغماً على تحقيق تسوية بين الطبع العصابي والأعراض العصابية ، لو أمكن ضبط مبادرات الانفعال اللاواعي ، بواسطة شيء ما أقل جموداً ، قادر على تكيف أكبر ، ومع ذلك أقل استلهاماً من الأنا ـ المثالي » [٢] .

---

(١) فروم ، المرجع المذكور . ص ٨٦

(٢) م. د. إيدر M. D' Eder « Zur Okonomie und zukunf des uber - Ich » in Internationale zeitschrift psychoanalyse, 15e année, p 192.

وفي مواجهة هذا الأنا – المثالي المتصلب الذي يمنح شرعية لنفسه بـ « مجموعة قوانين خلقية ، أو بتنظيم موروث من ماض بعيد جداً » ، يضع إيدر تصميماً لمجتمع عقلاني، يكون فيه الأنا – المثالي ملغى بـالأنا الذي كان قد منحه الحياة في الماضي . وهكذا سيصبح في المستطاع « أن نتوقع من زوال رقابة الأنا – المثالي على الانفعال اللاواعي ، واستعادة الآنا هذه الرقابة، تطوراً أكثر سروراً بالنسبة للفرد ، بل وحق للجنس البشري كله »[1] .

هذا البناء ساحر جداً بالنسبة لكل نظرية تقدمية للمجتمع . ومؤكد أنه يتأكد اليوم بعكسه ، أي بانهيـــار وظائف الأنا المستقل ذاتياً في المجتمعات القمعية الراهنة ، وإبدال تلك الوظـائف بأنا مثالي خاضع للتحريك التضليلي المفتعل : وكثيراً ما تسمى هذه النزعة « الضعف الجماعي للأنا » ، وهو مفهوم ينبغي له أن يعبر عن واقع أن الآنا يتخلى ، نزوعياً، عن استقلاله الذاتي بالنسبة للأنا – المثالي ، ويدخل في خدمته دون أن يستطيع مراقبتـــه . وينبغي الاحتراس هنا من بعض الالتباسات التي لا تستند فقط إلى غموض في المصطلحات، واسطة التعبير. فلا الأنا ، ولا الأنا – المثالي ، بصفتهما مرتبتين أو مرجعين ، لا يمكن اعتبارهما نفس الشيء والوظائف التي يمارسها الأشخاص وهم يضبطون الواقع ، ويمكن القول ، عن الأنا الذي يعاني حالة ضعف أنه لم يبق باستطاعته ضمان وظائف معينة لضبط الواقع ورقابته إلا بصورة محدودة أو مفقودة عن بعد ؛ لقد فقد – إذن – مزية الاستقلال الذاتي وصفة الوساطة بين رغبـات جنسية غريزية متناقضة وغير متناسقة . والواقع أنه لا يفقد كلياً هذه الصفات بل هو ينمي بدلاً منها وظائف أخرى ، مثـــلا تلك التي يمكن وصفها بالنسبة للفرد السليم بأنها عُصابية أو ذُهانية . لكن الشخص المعني ، ليس مجـــبراً ، إطلاقاً ، على أن يغدو تحت سيطرتها عصابياً أو ذهانياً بصورة ظاهرة ، بالمعنى

---

(٢) المرجع ذاته .

الذي يفهمه المجتمع من المرض . وهكذا يمكن أن نقول مثلا عن أغلبية الأشخاص المزعوم تكيفهم واندماجهم في المجتمعات الراهنة ، بأنهم يملكون بصورة نموذجية تقنيات دفاعية (وظائف الأنا) التي ينبغي بالأحرى انتقاؤها حسب رأي آنا فرويد لدى دراسة العصاب لا الحالة الطبيعية (الانكفاء ، والإلغاء الارتدادي ، والتحويل إلى العكس) . وبدون سيطرة هذه التقنيات ، فإن الكيفية المتفوقة - الطبيعية - في تأويل الأحداث السياسية والاجتماعية ستكون هي أيضاً مستحيلة كلياً . إلا أن ذلك لا يعني أن الأنا يذوب نزوعياً (ميلياً) ؛ بل يعني هذا فقط أن مؤهلات الأنا السابق اكتسابها تاريخياً والمنتقلة فردياً ، والتي تجعل استخدام هذه التقنيات شيئاً نافلاً (لا جدوى منه) تعاني انكفاء ويجري تشويهها .

ونفس التمييز البنيوي يصح أيضاً بالنسبة للأنا - المثالي . يمكن الحديث حينئذ ، بادىء بدء ، متبعاً لصفاته ، - المسيطرة على صعيد الحضارة أو الفرد - عن أنا - مثالي جدير بالعقاب ، تحكمي ، متصلب ، « مجزأ » ومقطّع أقساماً أو عن أنا - مثالي مجسّد ، ظاهر للعيان . ودون أن يعني ذلك قولنا إن الأنا - المثالي ، حيثما ظهر ، يكون تحكمياً ، غير عقلاني ، أو متصلباً ، ولا يفقد هذه الصفات إلا حين يطابق الأنا . وعلى النحو نفسه يمكن إيجاد التمييز بين عدة وظائف للأنا - المثالي : مثلاً ، إبقاء تصورات القيم الاجتماعية ماثلة في الحاضر (اندماجية المعايير ، ربما بواسطة قوى إفرادية) ؛ إقامة عمليات مزاوجة بمثابة رد فعل ضد الانحرافات إزاء هذه المعايير (الوعي) ؛ جعل أمثلات معينة ممكنة ، يستطيع الأنا أن يضع صفاته ووظائفه في خدمتها (تكوين مثل أعلى للانا) . على هذا الأساس وحده يمكن أن نحلل بصورة انتقادية سلسلة من الصفات ، بل أكثرية الصفات التي يملكها الأنا - المثالي في مجتمع ، وما يمارس الأنا المثالي من وظائف؛ على هذا النحو فقط يمكن الوصول الى الاستنتاج بأن هذه الصفات ينبغي أن تهمل أو تلغى في المجتمع العقلاني

المنشودة إقامته (ولكن وبالضبط لأجل النزوع إلى شروط اجتماعيـة أخرى غير الشروط السائدة ، وذلك للكفاح وربما الموت في سبيلها ، ينبغي تماماً أن تتطور بصورة مشددة وظيفة الأنا ـ المثالي : تكون مثل أعلى للانا) . ولأجل تقدير صفات ووظائف الأنا ـ المثالي حق قدرها ، سنعمل إذن على هذا النحو : البحث ١) عن ماهية حركات الأنا الغريزية والرغبات الجنسية المقموعة ؛كيف وبأية نتيجة بالنسبة للفرد . ٢) كيف يتصرف الأنا ـ المثـالي إزاء الأنا ؛ إذا ما كان يتعاون معه أو يضعفه ، وإذا كان يقمع حينئذ بصورة تسلطية أم توجيهية تضليلية مثلاً صفات الأنا المتمناة (ضبط الواقع باستقلال ذاتي والرقابة عليه) . ٣)أية منظومات دفاعية يحمل الأنا ـ المثاليالأنا على إقامتها ،وإذا كان يمكن تبرير هذه تبعاً لمستوى التطور الاجتماعي بصورة عقلانية أم لا ؛ ما عدد هذه المنظومات وما نتائج عملها بالنسبة للانا .

حسب ما سبق عرضه ، يبدو جيداً أن شخصاً سليماً حقـاً وقادراً على الرقابة على الواقع وضبطه ، ينبغي له أن يعتمد جوهرياً ، بصدد الأنا ـالمثالي، على عناصر هذا المـؤَمثلة idealiseés . الأنا هو مرتبة وساطة ، وليس هو ، بالدرجة الأولى مرتبة تقرير للجهاز النفسي . وسيكون للتعاون بين الأنا والمثل الأعلى للانا ، في وضع مثالي للمجتمع ، على نحو مـا يمكن أن يتصوره المرء شخصياً المظهر التالي : المثل الأعلى للانا المنبثق هو نفسه من النرجسية الأولية والمسؤول أمامها ، يقول ما يجب فعله ، ويقرر الأنا كيف ينبغي فعـل ذلك ويكون مسؤولاً عن التقنيات المستخدمة لهذا الغرض أمـام المثل الأعلى للانا و أمام الانفعال اللاواعي . ذلك هو كل مـا يمكن حفظه من البناء الحسي ـ الطوباوي للانا الذي استعاد الأنا المثالي .

إن هذا الشكل لتعاون الأنا والأنا ـ المثالي هو بصورة عامة الشرط المسبق لجميع أشكال التصعيد . وهذا لا يعني أنه لا يحدث في الكبت ، وهو المفهوم

المعاكس للتصعيد ، أي تعاون بين الأنا والأنا ـ المثالي ؛ لكن هذا التعاون يظهر بصورة مختلفة . الكبت يقوم به الأنا لخدمة الأنا ـ المثالي ، الذي ليس مديناً للاول ، في حـــالة نزاع ما ، بأي حساب بصدد متطلباته . ولكن لا يكفي ألاّ نرى في عملية تطور التصعيد سوى نقـل لموضع الغرض الغريزي الجنسي ؛ لكن هذا لا يكفي لتمييزه كلياً عن الكبت . ففي التصعيد يجري التشديد على النقطة التالية : نقل لموضع الغريزة والرغبة الجنسيتين ، ولكن في أي اتجاه وبأية نتيجة بالنسبة للفرد؟ وسيقال حينئذ بصدد الكبت إن الرغبة الجنسية يجري إنزالها إلى دائرة الانفعال اللاواعي ، وتكون نتيجة ذلك أن عليها أن تبحث لنفسها عن مجال عمل ثان يفقد الأنا منـــذ ذلك الحين بصورة عامة سيطرته عليه ، والذي هو ، عند الاقتضاء ، أكثر إضراراً بالأنا مما كانت الرغبة الجنسية الأصلية .

وبالمقابل فإنه يجري في عملية التسامي التحويل النهائي لهدف الرغبة الجنسية والرغبة الجنسية ذاتها. بل إن تطوير هذه يوجد في المرتبة الأولى نظراً لأنّ الغرض الأوّلي للرغبة الجنسية يمكن الاحتفاظ به ، وحينئذ تدخل الرغبة الجنسية في خدمة العالم الخارجي (النشاط النافع اجتماعياً) أو في خدمة الأنا (النرجسية). إن التمييز « تبعاً للنتيجة » ينورنا في الوقت نفسه بصدد ما يستتبعه نقل موضع الرغبة الجنسية بالنسبة للاقتصاد النفسي للفرد . وسنلتقي مثلاً بأشخاص يبذلون كل قواهم في خدمة « الجماعة » ويكونون إذن قد حققوا بصورة ظاهرة تصعيداً للرغبة الجنسية لمصلحـة نشاطات اجتماعية ؛ ومع ذلك فسوف نلاحظ عندهم أن عناصر الرغبة الجنسية والممارسة الجنسية ، والعدوانية ليست متسامية وإنما فقط مكبوتة ! وتكون النتيجة أن الأفراد المعنيين يعانون من « غيرتهم » أو « مثاليتهم » التي ليست في الواقع سوى ملاذ عصابي لعناصر من الرغبة الجنسية ، مكبوتة غير راقية ، وسادية ـ شرجية .

بعد هذه الايضاحات حول التسامي ، يظهر غير كاف بالمرة أن نقيم تعارضاً

بين تقنيات الدفاع « التسع » التي قدمت مجموعتها « أنــّا فرويد »، هذه المجموعة الموضوعة بصورة أساسية بتصرف داء العصاب ، وداء الذهان والتي لا يمكن استخدامها من قبل الشخص السليم إلا بمقـدار ضعيف ، وبين « التسامي » أو نقل غرض الرغبة الجنسية ، بمثابة وسيلة وحيدة للدفاع تكون بتصرف الفرد السليم لكي يحمي نفسه من قلق الواقع وقلق الرغبة الجنسية . إن الصحة والتوازن النفسي لشخص ما لا يزدادان في الواقع بنسبة قدرته على تصعيد الرغبـــات الجنسية بل بنسبة قدرته على تلبية متطلبات الانفعال اللاواعي والعالم الخارجي. وإذا أردنا الاحتفاظ بتصميم أنــّا فرويد الأولي فينبغي حينئذ أن يعالج مفهوم التسامي بتوسيع بحيث يتضمن كل ما يتعلق بضبط الواقع والرقابة عليـــه ، وبالرغبات الجنسية ، والأنا ـ المثالي .

ذلك لأنه بالنسبة للخطر على الفرد « من أن تغرقه رغباته الجنسية » فسنقول بتأكيد بأنّ ذلك الخطر ليس فقط تبعاً لعمليات راهنة للرقابة على الأنا (قدرة التسامي لدى الشخص السليم) العجز عن العثور على مخارج أخرى سوى الكبت الخ ... عند الفرد « المريض » ، بل انه أي الخطر يكون أيضا تبعاً لدرجـــة حرية تلبية الرغبة الجنسية ، التي يملكهـا مجتمع معين ، ومختلف الأشكال التي يعطيها الأفراد حسياً لهذه الحرية الجنسية ، وما يمكن للمجتمع أن يسمح به لأفراده من انحرافات . وحين يتسع مفهوم التسامي مثل هذا الاتساع ، فإن مدلوله التقني البحت داخل آليات الدفاع المطابقة للانا ، يفقد من دقته . ومع ذلك فينبغي إبقاؤه على هذا النحو فترة ما ، لكي نتمكن من أن ندرك كل أهمية ما يمثله **التصعيد القمعي أو المراقب** بالنسبة للفرد .

إن الفرد الراشد ، حسب مفهوم التحليل النفسي ، القادر على ضبط الواقع والرقابة عليه وتحويله ، يقرر انطلاقاً من مؤهلات الأنا هــذه أي سلوك ينبغي تبنيه ليس فقط إزاء العالم الخارجي (من مؤسسات ومعايير اجتماعية) بـــل

أيضاً إزاء غرائزه الجنسية وحالات عدوانه . والفرد بحاجة ، لأجل البت في الطابع المقبول أم لا ، بالنسبة للرغبات وتجسيدها ، بحاجة، على حد سواء ، الى تفسيرات الأنا ـ المثالي (أو أيضاً إلى المثـــل الأعلى للانا) وكذلك للبت في سلوكه إزاء العالم الخارجي . وهو يكتسب هـــذه القدرة في الوقت نفسه مع تطور الأنا . ولذلك يقال أيضاً « إن الشخص لا يعود يستطيع التصعيد عنـــد بلوغه سن الرشد » . وهذه الصيغة غير دقيقة من حيث أنه في عهـــد الطفولة بالذات ، في الوقت نفسه مع تطور الأنا والأنا ـ المثالي ، يتقرر المؤهل اللاحق لدى شخص ما في تصعيد غرائزه ورغباته الجنسية ، واستخدام تقنيات هـــذا التصعيد ، لكن هذه التقنيات لا يمكن تشبيهها ببنية الطبع الذي يستخدمها ، والتي تكون ، في سن الرشد والنضوج قـد ارتسمت جيداً ، بصورة نسبية . كذلك لا ينبغي أن نقيم تعارضاً بصورة قسرية على أساس« إما هذا وإما ذاك» بين تطور القدرة على التصعيد – بمعنى جميع الأشكال العقلانية لضبط الواقع والرقابة عليه والرغبات الفريزيةالجنسية التي تشجع اتساع الأنا – وبينالتقنيات الأخرى للدفاع عن الأنا . إن الشخص القادر في حياته الراشدة على أن يضع في خدمة نشاط اجتماعي ، الرغبات الفريزية الجنسية والعدوانية ، دون إضرار بشخصه هو ذاته ، يكون قد اكتسب هذه القدرة في طفولته وحداثته وليس بمعزل عن تقنيات الدفاع الأخرى ، بل انطلاقاً منها . وفي هـــذه اللحظة أم تلك قدر للفرد أن يكون شديد الضعف لكي يتخلى عن تقنيات « الكبت » ، و « الإلغاء الارتدادي » ، و « التحويل الى العكس » ؛ وكان عليه أن يجتنب بأي ثمن أن تفرقه « الفرائز والرغبـــات الجنسية » ، وأن يفسر العالم المحيط به بصفته عالماً مهدداً وداعيـــاً إلى القنوط . وسيكون عليه ، حتى في حياته اللاحقة ، أن يلجأ بلا انقطاع الى هـــذه التقنيات ، وعلى كل حال ، ما دامت تسيطر قوى العالم الخارجي المعادية للانا وللانفعال اللاواعي . والشيء الوحيد

الأساسي هو أنه طوال فترة تطور الأنا ليست تقنية واحدة أو عدة تقنيات دفاعية طفولية هي التي تسيطر على الطفل وتمنع الفرد فيما بعد من أن يتعلم تقنيات أخرى لضبط غرائزه الجنسية وضبط الواقع والرقابة عليه . ولكن حين تغدو هذه التقنيات الدفاعية مهيمنة تماماً ، فسيكون على المرء أن يتكلم تبعاً للطريقة الخاصة التي تفرض فيها سيطرتها ، وطريقة التحول العصابي أو الذُهاني للغرائز والرغبات الجنسية والواقع ، وعند الحد الأقصى ، إلى أمراض عصابية وذهانية .

إن نزع حالة التسامي ، القممي والموجه ، يميز حالة اجتماعية يكون قد انخفض فيها مستوى التسامي الذي بلغته الحضارة من قبل ، وحيث التسامي المحقق من قبل الأفراد يذوب منحلاً في الجماعة ، وحيث لم تعد قدرة التسامي متطورة على الصعيد الفردي إلاّ بصورة أولية . ونزع طابع التسامي هذا لا يقوم فقط في أن عناصر جنسية وعدوانية ، كانت مخضعة قبلاً لعملية تحويل « اجتماعي » ، قد « أُرهنت » وتجنسنت Sexualisés ، ويمكن أن تستخدم لإفراغ شحنة عدوانية بصورة ظاهرة . وهي تقوم قبل كل شيء في إنقاص انتصارات الأنا التي يستطيع الفرد انطلاقاً منها أن يتصرف حقاً بجهازه الغريزي الجنسي ، وتقرير أية عناصر غريزية جنسية عليه أن يكبتها ، وأية عناصر أخرى يستطيع أن يطورها ، أو يسمح لها بالتعبير عن ذاتها بصفتها كذلك . والقرارات في هذا الميدان يعهد بها الى نفس المراقب التي تضطلع كذلك بالإزالة المراقبة للتسامي . وتوصي منذ ذلك الحين بالكيفية التي ينبغي للفرد أن يتصرف بها في كل لحظة ، ومتى وكيف يقوم برد فعل بصورة جنسية صريحة تماماً ، ومتى وكيف يكبح نزعات عدوانية أم يرخي لها العنان . إن الحدث المراهق ، وإن ذلك الشخص الناضج الراشد لا يعودان يتعلمان التمييز بين القوى المدمرة للانا والقوى المتناغمة معه ، بل ولا حتى بين القوى

الجنسية والعدوانية للانفعال اللاواعي . وهكذا يصبح منذ ذلك الحين عاجزاً عن تحرير عناصر الغريزة الجنسية التي ينبغي له اطاعتها والتجسدات التي يسمح بها . إن عمليات الاختيار هذه تُسْحَب منه لكي تضطلع بها آليات القيادة عن بعد ، التي هي خارجة عنه . إن تحول الإنسان هذا هو قبـــل كل شيء عملية تطور لتحول آليات الدفاع التي هي بتصرف الأنا ؛ وهي تتميز كلهـــا في انكفاء نحو أنماط طفولية للفعـــل ورد الفعل . ويفقد الأنا في ذلك شطراً لا بأس به من وظيفته التقليدية كعنصر وساطة (بين الانفعال اللاواعي والأنا ـ المثالي ، والعالم الخارجي) ويخضع الأنا لعملية انكفاء تجعل منه مرتبة أو مرجعاً لتحويل تأثيرات العـــالم الخارجي وتأثيرات العالم المثالي المقسمة إلى قطاعات sectorisés. وهكذا يحدث إذن مع التدني الجماعي لوظيفـــة الأنا عملية احتكار من قبل مراتب أو مراجع للسيطرة في الميدان البسيكولوجي للأنا وللأنا المثالي وفي الميدان السياسي للفرد ومؤسسات التقنية الاجتماعيـــة وتقنية السيطرة . وبهذا المقياس فإن النزع القمعي للتسامي يشكل شأنـــه شأن التسامي شكلا للاستخدام الاجتماعي للغرائز والرغبـات **الاجتماعية** ؛ إن الإزالة القمعية للتصعيد هي شكل المجتمعـــة المسيطر ، الشكل السائد للاستخدام الاجتماعي للغرائز والرغبات الجنسية .

في هذا الإطار يكتسب مفهوم الدفاع مدلولاً جديـــداً ؛ ولا تعود لتقنيات الدفاع لدى الأنا وظيفة فقط أو استقرار للنظرة وحسب ، بل يكون عليها أن تؤدي مهمة ثورية . منـــذ ذلك الحين لا تعود فقط نزعات الاندفاع اللاواعي ، المعادية للمجتمع والنزعات المدمرة للأنا ، التي يجب الدفاع ضدها . كان ذلك هو دور آليات الدفاع التقليدية العشر . وينبغي من جهـــة أخرى الدفاع عن النفس ضد النزعات القسرية نحو إزالة التسامي ، المنبثقة عن الأنا المثالي الجماعي والمجسدة (مثلاً التجنسن بواسطة معايير جنسية عضوية ميراثية ظاهرياً) والتي تعقد حلفـــاً مقدساً حقيقياً مع العناصر الطفولية للغرائز

والرغبات الجنسية الجزئية . إن الوضع الذي يرتسم بصورة أولية هو من نوع جديد نسبياً سواء بالنسبة للممارسة والنظرية التحليليـــة النفسية أم بالنسبة للنضال السياسي . إن الأنا المثالي المجسد والمجزأ يتشارك مع وحدات إنفعال اللاوعي الطفولية في جبهة الأنا – في جبهة سيهلك فيهـــا الأنا بسرعة تزداد بمقدار ما يكون التفوق النسبي لغرائز الانفعال اللاواعي الغريزية الجنسية غير المستوعبة اجتماعياً ليس سوى وجه من المجموع، في حين أن الجبهة الأخرى هي بالضبط عدم استقامة الأنا ذاته .

٧

قضايا الدفاع الراهنة

إنها لمبادرة سياسية وبسيكولوجية جد صعبة أن تضيف أو أن تعارض جزئياً بقائمة من آليات الدفاع الجديدة آليات الدفاع « التقليدية » التي يطورها الأنا كرد فعل على الخوف الغريزي الجنسي والواقعي ، وكذلك على المعايير الخلقية والسياسية التي تبرر آليات الدفاع هذه . ولعل هذه الطريقة لا تقدم كذلك إضافة كبيرة بصدد حل القضايا المثارة من قبل الدفاع ضد الإزالةالقمعية للتصعيد . لذلك سنقتصر هنا على التعليق على بعض النماذج السياسية والبسيكولوجية الدفاعية . ولكي نظهر تبعاً للفشل أو للنجاح بالنسبة للبعد الفردي لاندماج الأنا في المجتمع وبالنسبة للبعد السياسي لنشر الطابع الديمقراطي في المجتمع لاحقاً ، أقول لكي نظهر الصعوبات الناتجة عن ذلك بالنسبة لجميع الذين يعترفون أو على الأقل يحسون مسبقاً بنزعة المجتمع الى إزالة مراقبة للتصعيد ، ويكافحون هذه الإزالة .

الازالة القمعية للتسامي تحت قناع الحرية الجنسية الكاملة

إن أحدث نمط عصري للإصلاح الجنسي البورجوازي يأتي من السويد ، أي من

بلد أنقصت فيه الى أقصى حد التحريمات وعمليات القمع الجنسية على الصعيد الحقوقي القاعدي (المعياري normatif) ، وحيث يضطلع المجتمع بأسره على نطاق واسع جداً بالتربية الجنسية الفردية وحيث حريات الفرد البورجوازية وحماية الأقليات السياسية ، والعنصرية ، والجنسية ، مضمونة تقليدياً إلى أقصى حد. هذا النمط يأتي إذن ، ولذلك دلالته ، من بلد فرضت الرأسمالية فيه نفسها وهي تحتفظ ببقائها هناك بأكثر ما يمكن من التلاحم كدولة التوقع الاجتماعي . إن كتاب Die sexuelle Minderheihrn (الأقليات الجنسية) بقلم لارس اولرستام [1] قد أوضح نمو النزعة التي تريد أن تكون جذرية تقدمية في البلدان الرأسمالية ، وأن تتيح دوغما تمييز جميع الممارسات الجنسية بين البشر ، وبين الحيوانات ، واعتبارهم متساوين في القيمة ونشر هذه الممارسات الجنسية ، باستثناء الأعمال التي من شأنها أن تؤدي إلى عمليات تعذيب جسدية تمارس على حيوانات أو على بشر . وسوف نناقش هنا مقترحات اولرستام الاصلاحية التي هي نموذجية بالنسبة لنظريات مماثلة ، وإن كانت « أقل تشدداً » وأكثر تعصباً وأقل « تقدمية » .

بادىء بدء يصل اولرستام في دراسته الى الاستنتاج المدعوم تجريبياً ونظرياً بانه لا ينبغي إيقاع العقاب حقوقياً بسبب أي سلوك جنسي كان ، باستثناء « الاغتصاب » ، أو عمليات انتهاك التقاليد ، المرتكبة ضد أشخاص خاضعين معنوياً واقتصادياً الخ . و — جزئياً على الأقل — على أشخاص « قُصَّر » . إننا نستطيع حتى الآن الموافقة على هذه المقترحات [2] لكن هذه ليست النقطة

(١) Lars Ullerstam, Die sexuelle Mindeheihrn Hamburg 1965 .

(٢) إن الدوافع السوسيولوجية والسياسية بهذا الصدد قد عُرِضت بصورة كافية بحيث نمتنع عن ذكرها هنا . ونجد أفضل خلاصة لها في :

Fritz Banr (éditor), Sexualitât und verbrchen, Fiscberbûchorei, 518 - 519, Francfort 1963.

المركزية في كتاب اولرستام .

إنه يقترح في الأساس بأن يتحرر جميع الأشخاص دون استثناء الظاهري الانحراف أو المارقين بحالات قصر عصابية طفولية أو ارتدادية ـ أن يتحرروا من رغباتهم الجنسية « غير الطبيعية » وذلك بنظـــام من إمكانات إشباع الرغبة الجنسية تضبط بشكل جماعي ، وهكذا يستطيع هؤلاء الأشخاص أن ينالوا أكبر قدر ممكن من السعادة . وفي رأي اولرستام فإن كل تمييز بين « طبيعي » و « غير طبيعي » أو مَرَضي في ميدان الحياة الجنسية ليس سوى مسألة تحديد أو تعريف توحي به في أيامنا الدولة والكنيسة والأخلاق فاذا ما ألغيت هذه التحديدات القسرية فإن حداً أفضلياً من السعادة الحقيقية سوف يتحقق تلقائياً إذا صح التعبير :

« هناك بعض ممارسي العادة السرية قد تخصصوا في نبش العبارات « البذيئة » من المؤلفات الفنية والجمالية [...] بوسعي أن أعلق على ذلك بشيء واحد وهو أن هؤلاء يستخدمون طريقـــة مشروعة لتأمين متعة جنسية لأنفسهم ويجب أن يحس الكاتب بعرفان الجميل لأنه يستطيع أن يضمن هذه البهجة لبعض من أمثاله [...] .

وهناك محبون للبول يتأخرون قليلاً في المباول العمومية . وأكبر ما يحسون به من رغبة هو أن يعثروا على شخص ما يتطلف بالتبويل في قبعتهم أو جيوبهم [...] إن سماح المرء بتلطخ ثيابه بالبول ليس بالتأكيـــد حاجة جديرة بالاحترام ، لكن الكيفية التي يتبجح بها الناس بإساءتهم معاملة هؤلاء الأشخاص هي مثيرة المشاعر . فإذا لم يكن الشخص يريد أن يستجيب إلى رغبة هؤلاء الأشخاص المتواضعة فإن من الواجب على الأقل مقابلتهم بشيء من التهذيب] .

(إن الماخور يمثل بالنسبة للعازب كسباً كبيراً للوقت على الأقل في حالات احتدام رغبات جنسية شديدة لديه ، وهكذا يتاح له وقت أطول لأجـــل

التدريب على ممارسة الجنس . وهناك نساء متزوجات منهمكات جنسياً يمكن أن يحسسن ببعض الارتياح بإرسال أزواجهن إلى دور البغاء هذه ولسن بحاجة للخوف من حدوث تعقيدات . إن أمسيات وحفلات رقص ذات جو جنسي مشدد أصبحت جزءاً من عاداتنا الاجتماعية . وبعد هذه المقدمات فإن زيارة ماخور ما هو إجراء صحي وحينئذ يجتنب المشتركون في مثل هـذه الحفلات أخطاراً أن يروا حفلاتهم تفشل بسبب بحث البعض بصورة يائسة عن شريك أو شريكة تمارس معها العلاقة الجنسية [...] .

« حسنوا خدمة تقديم الفن والأدب الخلاعي للمجتمع! وليكف المتلصصون عن معاناة الضيق والإزعاج طوال ساعات بسبب نواحي غموض مثل «الصمت» وأفلام أخرى مماثلة وذلك فقط لكي يلمحوا بداية لمشهد من مشاهد الجماعة[...] على الأفلام أن تعرض ممارسة العادة الجنسية ، وأعمال ممارسة الجنس مع أشخاص من الجنس الآخر ، والممارسات السحاقيـــة ، واللواط ، والممارسات الجنسية الجماعية وأشياء أخرى من نفس الطراز لكيما يؤخذ في الحسبان جميع الأذواق . ومن المستحسن أن يكون في بعض دور السينما قاعة ملائمـــة لممارسة العادة السرية »[1] .

هذا النموذج من الإشباع الجماعي للرغبة الجنسية هو نمط للفعالية الاقتصادية بالتلبية الجنسية الوهمية . إن إزالة المنـــازعات الاجتماعية والتوجيه الجنسي التضليلي المفتعل يمضيان جنباً إلى جنب والعبارات السحرية المستخدمة للدعاية للفعالية التقنية الاقتصادية هي « لا تعقيدات » « هذا تدبير صحي » « مزيد من الوقت لأجل التكوين الجنسي » « لا مشاكل » وينبغي أن لا يمثل إشباع الرغبة الجنسية المقترح سوى جعل ذلك، وهو الوهمي ، مؤسسة، ذلك ما يمكن تفسيره بالضبط في ضوء المثال الجذري الأخير .

---

(٢) اولرستام ، المرجع المذكور ، الصفحات ٨٢ - ٨٤ - ١٤٣ - ١٤٥

إن الانحراف « التلصصي » يتصف بالضبط بواقع أنه لا يستطيع التخلي عن التوتر الجنسي الدائم . ويمكن الافتراض أولاً أن عدداً لا بأس به من المنحرفين يفضلون على أفلام جنسية صريحة جداً أشياء جنسية مثل « الصمت » وبالنسبة للآخرين ، فإن سلوكهم المرَضي هو وحده الذي سوف يُضبط ،وتجسد بؤسهم الذاتي الذي يحتمل أن يحمله على وعي مرضهم والشفاء منه ، هو وحـــده الذي يمكن الحيلولة دونه . والشيء نفسه ينطبق على أشكال الاستمناء المرتبطـــة بحالات القسر الطفولية والارتدادية . وما من مكان في بحثه ، ولو تلميحاً ، يعلن اولر ستام تأييده تحويل المؤسسات الاجتماعية الذي من شأنه أن يؤدي إلى أن تفقد أغلب حالات المرض العصابية والانحرافات أساسها الاجتماعي وتكف عن أن تبرز الا بشكل ظاهرات هامشية . إن حالات المرض العصابية هـــذه والانحرافات يمكن أن تُشفى حينئذ أفرادياً، فإذا تعذر شفاؤهـا أمكن على الأقل معالجتها بأقصى حد من التسامح – وتقديم حد أقصى من حظوظ الإشباع لها – وستكون هذه وجهة نظر جنسية ثورية ولو كانت بعد مجردة . فهي لا تنادي بعد حتى بمعالجة طبية للانحرافات التي لا تعود على أولئك المرهقين لهـــا إلا بالآلام والحرمانات الهائلة . بل ان وجهة النظر تلك تفكر على العكس بأن المجتمع ومنحرفيه يجب أن يبقوا كما هم والتغير الوحيد الذي تتمنى إحداثه هنا هو أنها تتطلب من المجتمع في الميدان الجنسي كذلك إنشاء مؤسسات « وقاية » للمنحرفين .

ونستطيع أن نرى ، في مختلف مقترحات أولر ستام ، في الوقت نفسه مع مخلفات -- مبتورة – من البرنامج الثوري البورجوازي الكبير : أعظم سعـادة ممكنة لأكبر عدد ممكن من الناس . هذه المخلفات المأخوذة على انفراد توجـد حينئذ تشابهاً يصل إلى حد الخلط بين مقترحات اولر ستام ومقترحات اليسار ، وبخاصة حركات الفتيان والمثقفين المضادة للتسلطية . ولهذا السبب بالضبط تصبح مسألة وضع كل مطلب للتحرر الجنسي في سياق المطامح الى الانعطاف السياسي

والفردي مسألة انبعاث . وطوال ما ستظل هـذه المطالب منعزلة فإن برامج التحرر الجنسي ستسقطعاجلا أم آجلا في خط مسار عروض حالات الإشباع المصوغة في مؤسسات وسوف تتحول وظيفتهـــا الأولية إلى وظيفة قمعية . ومسألة معرفة متى سيحدث هذا لا يتوقف إلا على درجة مقاومـــة القوى الماقبل الرأسمالية التي ما تزال معـــادية جهاراً للممارسة الجنسية ، ضد القوى الجديدة لإزالة التسامي القمعية . وها كم مثالين يقدمان لنا البرهان على ذلك :

١ - إن برنامج اولر ستام منفذ جزئيـاً في الولايات المتحدة ، ونجد في باب الممارسة الجنسية الجماعية المكيفة مثال مخزن البيع بالمراسلة لسلع جدية ، هـذا المخزن الذي يعمل بمثابة مؤسسة لأجل « محبي العقوبات المنزليـة » وهو ليس سوى رائد لمجموعة من مؤسسات متخصصة في مختلف أنواع الانحراف ففي المدن الكبرى بالولايات المتحدة توجد حوانيت متخصصة بدأت تقوم منـــذ الآن بتقسيم للعمل في إمداد مختلف أنواع المنحرفين بما يحتاجون إليه منأدوات. إن اختصاص « الجنس والأدوات الجلدية » كثير البضائع بصورة خاصة ولا يباع فقط في هذا المخزن جميع الأدوات الجلدية لممارسة الانحراف المذكور الذي هو رائج لأسباب ملازمة لحضارتنا.بل إن زوار هذه المخازن باستطاعتهم أيضاً بعد أن يكونوا قد اشتروا كتباً من الأدب الجنسي الخلاعي وغيرها من الأشياء المماثلة ، بمبلغ معين باستطاعتهم أن يشاهدوا أفلاماً جنسية صريحة ، وذلك في قاعة خلفية من المخزن خلال مدة تتناسب مع المبلغ المدفوع ، ولكن عند انتهاء هذه المدة يعادون دون رحمة الى المخزن .

٢ - إن بضعة جماعات من التلامذة التابعين « للأوس Auss » قد طالبوا بآلة توزيع أوتوماتيكية لحبوب منع الحمل ، توضع في المدارس ، وهذا المطلب كان يريد أن يكون في الوقت نفسه تحررياً على الصعيد الاجتماعي . ولا يمكن أن ننكر عليه هذا المظهر لكن بوسعه أن يتحول ألى عكسه أي إلى تكييف

قمعي . يمكن في الولايات المتحدة الحصول على مواد فموية مانعــة للحمل من محلات الدرغستور ؛ ولعل المسألة بالنسبة لألمانيا الاتحادية ليست سوى مسألة وقت . لكن هذه ليست سوى أحد الجوانب التكتيكية على الأصح الذي يظهر جيداً أنه لم يعد بالإمكان خوض معـــارك تقدمية سياسية في الولايات المتحدة والسويد بمطالب كمطلب التربية الجنسية في المدارس. والمظهر الآخر الحاسم هو أن أمثال هذه المطالب سوف تدعو الى مجرد إتباع قواعد الممارسة الجنسية ، أولئك الذين ليسوا بعد قادرين بالمرة على ممارسة علاقة جنسية عضوية والذين لن يقرر لهم أن يتعلموا هذه الممارسة إلا بمشقة ولقـــاء جهود منهكة مارين بمراحل الافتتان والتضامن والإخلاص . ولكن ما أن ترى حبة منع الحمـــل جهاراً على مقاعد الدراسة حتى يتمكن الفتيان من أن يقنعوا الفتيات بسهولة من أن خوفهن من ممارسة الجماع ليس سوى « حماقة » ، وفي حالة بقاء شكوكلديهن في هـــذا الصدد ، فإن بوسع الفتيان أن يقولوا لهن إذا كانوا من المنتسبين إلى الأوس أن الفتاة هي رجعية تعتمد وسائل القمع إذا رفضت النوم معهم .

إن أخطار الإزالة القمعية للتسامي التي تزداد بنسبة اتساع الحالات المقبولة اجتماعياً لإشباع الرغبة الجنسية ، لا يمكن تلافيها ببرنامج سياسي متزهد .

فمثل هذا البرنامج سيكون دائماً رجعياً والمهم في كل لحظة هو التمييز بين ما هو « مقبول اجتماعياً » وما يتمناه الشخص وتحديد طبيعة إشباع الرغبــة الجنسية على هذا النحو . إن النجاح في مثل هذه المحاولة يفترض مؤهلات تامة تتوطد بواسطة مثل أعلى للأنا . بهـــذا المعنى يجب أن نفهم عبارةماركوز[1]: « إن إزالة التسامي المبنية على هذا النحو تجلب متعاً ، لكن التسامي ، من جهة يحمي الوعي من حالات التخلي أو الفرار التي يفرضها المجتمع القمعي وهو ، أي التسامي ، يصون بذلك حاجة التحرر » .

---

(١) هـ. ماركوز ، الانسان ذو البعد الواحد ، المرجع المذكور . ص ٩٩

اكتساب الطابع الثقافي ، الخمول ، التجنذر أثناء فترة البلوغ

تؤكد انا فرويد [1] أن المراهقين يدافعون عن أنفسهم ضد ضغط الشهوة الجنسية الشديدة (الليبيدية) المشروطة فيزيولوجياً أثناء فترة البلوغ،ويتمثلونها في النهاية على الأخص بواسطة آليتين - «البلوغ» و« اكتساب الطابع الثقافي»- هاتين الآليتين اللتين لا تكونان في فترة الكمون وفي سن الرشد ملحوظتين بنفس الوضوح ، ذلك أن هاتين الفترتين تتميزان بحياة من الرغبة الجنسية طبيعة هادئة وبـ « قوة للأنا متناسبة » .

إن في هاتين الآليتين شيئاً ارغامياً يتجلى بصورة خاصة في واقع أن متطلبات الأنا المثالي الكامنة وراء هاتين الآليتين هي منسوخة عن حالتهم النفسية (فهي تابعة لميدان المجرد) وتظهر تلك المتطلبات بادعاء تسلطي شامل ويمكنها أن تزول من جديد بفترة دون تغيرات عميقة فيالطبع بالنسبة للمراهق. ان اكتساب الطابع الذهني في فترة البلوغ التقليدية ليست إذاً صفة ذهنية بالمعنى الاعتيادي للكلمة ، بل ان الأولى بالأصح هي شكل مباشر لحماية الأنا وهو يضاف،ولدى إضافته إلىنزعة التزهد يغدو وقاية ضد تدفقات الرغبات الجنسية. ولن يطرأ على تصرفات الفتيان سوى القليل من التغيير : « وبديهي أن التأمل، والاجترار الذهني والمناقشات تكفي الفتى المراهق ، وأن سلوكه ، المحدد بعوامل أخرى ، ليس بالضرورة متأثراً بهذه التمارين الذهنية [2] » . لكن لشكل اكتساب هذه الصفة الذهنية عادة تأثيراً ثانوياً هاماً على سيطرة المراهق على الواقع في عهد ما قبل البلوغ : « إذا كان صحيحاً أن كل تعزيز للتوظيف الشهواني الجنسي الشديد يستثير حتماً في كل مرة ازدياداً للمجهود

---

(١) آنا فرويد المرجع المذكور . ص ١٤٠

(٢) المرجع ذاته ، ص١٤٩ .

يحاول تحقيق الأنا لأجل صياغة ذهنية لعملية التطور الغريزية ، فإنه ينتج عن ذلك أن أخطار الرغبات والغرائز الجنسية تجعل الناس أذكياء . وفي فترات الهدوء الغريزي ، أي حين لا يهدد الشخص أي خطر ، فإنه تحق له درجة معينة من البلاهة » [1] والواقع أنه لا يمكن بالتأكيد أن نلاحظ تجريبياً ارتباطاً بين الامتناع الجنسي وتزايد حالات التقدم الذهنية ؛ إن فرويد ذاته يرفض بصورة قاطعة هذه العلاقة التي ادعى مراراً وجودها [2].

ومع ذلك فإن عدداً من الوقائع يوحي بالتفكير بأن هذه العلامة تعكس اليوم . إن التخلي الواهن عن متطلبات الامتناع الجنسي التقليدية إنما يجري بصورة قمعية مشددة بحيث يولد الحماقة الجماعية . وتجد النزعة الاجتماعية لإزالة التسامي القمعية أجلى تعبير عنها على وجه التخصيص في واقع أن العالم الخارجي يغرق المراهقين عند مرتبة البلوغ بعروض دائمة حتى وإن كانت جزئية لإشباع الرغبة ولاكتساب الجنس .

وعلى صعيد الوعي ، فإن الخوف الغريزي الجنسي ، (الخوف من غرق الأنا بين أمواج الانفعال اللاواعي) ينبغي حينئذ أن يتدنى إلزامياً . وضد هـــذا الخوف، طور حتى الآن البالغون آليات الدفاع النوعية الخاصة بمرحلة البلوغ . وعلى هذا النحو ينبغي لنا أن نفهم عبارة ماكوز: « إن التوتر ، في الجهاز الذهني، بين ما هو مرغوب وما هو مسموح به، يبدو أضعف بكثير ؛ ولا يبدو مبدأ الواقع

---

(1) المرجع المذكور ص ١٥٢ .

(2) فرويد Die « Kulturelle » Sexualmoral ص ١٣٣ :« بصورة عامة ليس لدي اقتناع بأن الامتناع الجنسي يساعد على تكوين رجال عمل شديدي العزم ومستقلين ، أو مفكرين مبدعين أفذاذ أو محررين وإصلاحيين جسورين بل هو في أكثر الأحيان يؤدي إلى تكوين أشخاص ضعاف طيعين يذوبون فيما بعد في سواد الناس الذين اعتادوا أن يتبعوا مرغمين الحوافز التي يطلقها أشخاص أقوياء » .

أنه يتطلب ، بعد، تحويلاً عنيفاً ومؤلماً لحاجات الرغبات والغرائز الجنسية. وعلى الفرد أن يتكيف مع عالم لا يبدو أنه يتطلب منه تخلياً عن حاجاته العميقة — إنه عالم ليس معادياً في جوهره [1] ».

ونجد تأكيداً تفصيلياً مثبتاً لهذه التشخيصات وذلك في تحقيق جديد ذي قيمة تمثيلية عن الشبيبة في الجمهورية الاتحادية الالمانية [2] .

وحسب هذا التحقيق ، فإن صراعات فترة البلوغ لم يعد يبدو أنها تجري ، على الأقل ، بصورة مكشوفة أو بصورة يدركها الوعي . إن ٨٧ ٪ من الأولاد المتراوحة أعمارهم بين التاسعة والعاشرة « يجدون الحياة في المنزل جيدة ممتعة ». المظهر معني به ، والملابس أنيقة وعصرية ، وحسن التصرفات والحركات تحتل المرتبة الأولى لدى « النماذج » المدروسة — ولم يعد بالامكان الحديث عن تكون مثل أعلى للأنا . وباستطاعة الأولاد بين العاشرة والرابعة عشرة من أعمارهم أن يذكروا تلقائياً أسماء سمات (ماركات) من مراهم التجميل ، بل وحتى الأولاد الصغار أن يذكروا أسماء ماركات أحمر للشفاه . وقد أخفقت حتى محاولات تربية الأحداث لكي يصبحوا مواطنين ايجابيين رُبّوا بروح النظام القائم. وكلما ازداد الأحداث الذكور كبراً ، يغدو مفهومهم ، مثلاً ، عن الخدمة العسكرية أكثر سلبية ، وبالنسبة لهم ، فإن جميع « المثل العليا »، حتى تلك التي يدعو إليها النظام ، تتضمن مقداراً كبيراً جداً من المجازفات ؛ فالتكيف مع المحيط المباشر هو وحده المأمون والمربح . وبالمقابل ، فهم يعملون كمستهلكين جيدين على الأخص ، كما أظهرت ذلك نتائج الاستفتاء الخاص بأحمر الشفاه . ومنذ

---

(١) هـ. ماركوز — « الانسان ذو البعد الواحد — المرجع المذكور — ص ٩٨ .

(٢) قام بالتحقيق ماريلان — فرانكفورت ١٩٦٧ — بطلب من مارك ركان . انظر التقارير عن هذا التحقيق في صحيفتي
Frankfurter Sligemeine Zeitury, Frankfurter Rundschau
الصادرتين في ٢ — ١٢ — ١٩٦٧ .

صباهم المبكر لديهم وعي كمشترين؛ ويبدون وكأنهم يستمدون هويتهم الاجتماعية بصورة رئيسية من هذا الوعي . على هذه الناحية تستند مجلة « برافو » ومجلات أخرى ، أي بالضبط المجلات المصورة الكبرى (الماغازين) التي أوصت بالقيام بالتحقيق المذكور . وفي كانون الأول ١٩٦٧ أخذت مجـــلة « فرانكفورت الجيماين زايتونغ» تخاطب معلنين محتملين بهـذا الشعار : « المنتوجات تشيخ مع الأشخاص الذين يشترونها»،والمنتوجات ينبعث صباها بفضل المشترين الفتيان؛ إكسبوها إلى جانبكم اليوم ، لكي تتمكنوا من الاعتماد عليها غداً[١] » .

والفتيـــان بالضبط هم الذين يحاولون أن يتملصوا من « الوعي السعيد » للراشدين والأحداث المراهقين الذين يعانون كثيراً بصدد محاولات اكتسابهم الصفة الذهنية . إذ سرعان ما تصطدم محاولاتهم بعدم تفهم تام من جانب « السعداء »، إلى حد أنهم يجدرون صعوبة في التفتح الذهني، وهم مدفوعون دفعاً لأن يجابهوهم، وهو موقف يزداد شدة بالنزعات نحو العدوانية التي يظهرها المتكيفون نحـــو الأشقياء « عاثري الحظ » . وهذا الوضع من الأمور توضحه تماماً أعمال الفتيان الجماهيرية العفوية ، ولا سيما التلامذة والعمال المتدرجين ، هـــذه النشاطات التي حدثت تلقائياً في كثير من مدن الجمهورية الاتحادية الألمانية في شباط ١٩٦٨ ، على إثر النشاط الاحتجاجي الذي قام في برين ضد زيادة تعرفات النقليات ، هـذا النشاط الذي لم يقم، من جهته ، سوى بدور زناد "عرَضيّ". وثمة عامل هام لهذه النشاطات الجماهيرية ، وهي أنها جرت في حدة لم يكن ثمة وجود فيها لحركة طلابية قوية من أقصى اليسار ، كان من شأنهـا أن تخلق جواً سياسياً أو تدعو

---

(١) Frankfurter Allgemaine Zeitung .
عدد ٢١ - ١٢ - ١٩٦٧ .

إلى نشاطات نضالية ، وبصورة خاصة في بريمن وكييل ، وبوتسوم وهانوفر .
لقد أصدرت أنـّا فرويد على تذهن البلوغ - التقليدي - الحكم التالي : « وفي الوقت نفسه يجب أن لا ننسى أن النشاطات الذهنية ولا سيما في فترة البلوغ ، مهما كانت هذه النشاطات شديدة التألق ومهما كانت مرموقة فأنها يمكن رغم ذلك أن تكون بنفس المقدار من العقم . »[1] ويبدو أن مظهر العقم هـذا يشكل جزءاً بصورة واعية تقريباً لجميع الحركات الراهنة لاكتساب المراهقين الطابع الذهني ، وذلك ضد النزعات الفمعية لإزالة التسامي ؛ لكن الأمر لم يعد الآن كما كان أثناء فترة البلوغ التقليدية عنصر تبنٍّ . لآلية الدفاع ضـد التدفقات الغريزية الجنسية العميـاء ، بـل أصبح شرطاً ضرورياً للوعي التاعس الحظ الذي ينبغي له أن يناضل ضد فيلجة السعداء الناعمة الأنيقة وضد الهراوات وسيارات الأطفاء لممثليها . ولكي يصبح هذا التجذير عنصراً تكوينياً الدفاع السياسي والنفسي ضد الازالة القمعية للتسامي ، فيجب أن نحرك هنا عاملاً آخر ، أثناء تكون الأنا الذي لا يستطيع الآن خـلال فترة البلوغ أن يتحقق إلا ضد المعارضة الحقيقية من قِبل المجتمع ، هذا العامل الذي يميز بنيوياً بـين جذرية أقليات الفتيان الراهنة ، واشمئزاز أكثريات الفتيان الراهنة وانتشار الذهنية لدى شبيبة العهد السابق . وعلى الفتيان أن يعلموا أن نشاطاتهم الراديكاليـة هي متصـلة بتكونهم الشخصي ؛ وعليهم أن يحسوا انفعالياً على الأقل بأن لهذه الأعمال صلة مع ضعف أناهم ، وتدنيهم الاجتماعي ، ومع محاولاتهم لتكوين أنا ، يقيم معارضة ضد المقاومة القمعية لإزالة التسامي وضـد الاندماج الانتهاجي .
ولأجـل الحصول على هذه النتيجة ، لا يكفي أن يعاني الفتيان « الضربات المضادة من قبل دفاع الطبقة الحاكمة التي تعارض محاولاتهم للدفاع ضد الازالة القمعية للتسامي بواسطة الهراوات وخراطيم سيارات الأطفـاء . وحتى ولو

---

(١) أنـّا فرويد ، المرجع المذكور . ص ١٥٣ .

كانت أعمال الرفض والاحتجاج من قبل الفتيان تظهر دفعة واحدة في مدن متزايدة أكثر فأكثر وأن المزيد من الفتيان يشترك فيهابصورة عابرة،فلا ينبغي أن تنشأ لدينا أوهام حول واقع أن هذه الأعمال ليست هي فقط عاجزة للمعنى الذي كانت تخاض فيه ضد عدو سياسي فائق في القدرة ، بل أيضاً بمقدار ما هي تجري انطلاقاً من عجز داخلي – نفسي . هذا العجز الداخلي لا بد له أن يقود عاجلاً أو آجلاً إلى الرضوخ ، إذا لم يقم إلا بالنضوب وانهاك نفسه على الصعيد السياسي في حركة تصعيد لأعمال الرفض والاحتجاج؛إن خضة الأفراد العالية جداً وعدم الاستقرار لحركات الرفض لدى الفتيان هي علامة على ذلك وهي أيضاً عنصر تكويني لحتمية النضالات السياسية وهو عنصر يبقي هؤلاء الفتيان بمنجاة عن كل اندماج انتهازي . ولكيما يخدم العجز الداخلي ، بعد أن يصبح واعياً ، بمثابة قاعدة نضال طويل النفس – ليس فقط نضال الأقليات التي تجتاز عند مرحلة معينة فترة البلوغ ، بل أيضاً نضال أولئك الذين يريدون التغلب على ضغوط فترة البلوغ الدائمة – فيجب أن يدعم هذا العجز مثل أعلى للأنا ، الذي يحتفظ بالعجز الواعي بمثابة قدرة لغير القادرين . وفي الميدان السياسي يجري هذا النوع من المحاولات حالياً على الأخص بالتشبه بالنضال التحرري لبلدان العالم الثالث . والتشبه هو ولا شك المرحلة التمهيدية لكنها ليست بذلك القاعدة الكامنة لتكون مثل أعلى للانا . ولدى أغلبية الفتيان والأحداث فإن التشبه بالفيتكونغ، وبتشي غيفارا، وبماو ليس إلا « منسوخاً» عن الخارج – كما حدث أثناء آليات اكتساب الطابع الذهني في مرحلة البلوغ « التقليدية » . إن أبطالهم ليست لديهم حقاً وظيفة كمثل عليا للأنا ، حتى ولو كانت لديهم ، والحمد لله ، بمقدار أقل وظيفة أنا مثالي متصلب وهم لا يكتفون بارخاءلحاهم وارتداءبذلات العمل الزرقاء وأن يكتبوا في أسفل رسائلهم عبارة (النصر لنا) وبياناتهم. والحال فأنه لا يمكن أن يطلب إليهم لأجل اكمال تشابههم مع هذا المستوى أن يمتشقوا البندقية مثلاً لكي يكافحوا ضد

« الامبريالية في جبهة بلدانهم هم أنفسهم » . إن هذا ، عند الاقتضاء ، يمكن أن يصبح ضرورياً ؛ لكن الاتجاه نحو مثل أعلى للانا ، يعزز أناه الخاص ، هو شيء مختلف جذرياً . ولدى اتخاذنا مثال نماذج النضال التحرري في البلدان المضطهَدة في العالم الثالث فيجب أن يكون الفتيان المناضلون في المتروبولات الامبريالية بنفس المكر ونفس الذكاء ونفس الصمت وحفظ السر ، التي يتحلى بها الفيتكونغ في فيتنام . وكذلك أن يكونوا بنفس الشجاعة التي كان عليها تشي غيفارا في بوليفيا وأخيراً بنفس حكمة ماو ؛ وينبغي أن يقيس المرء صفات أناه الشخصية بهذه المستويات الظافرة ويكونها على أساسها . وهذا نادراً ما يحدث اليوم .

إلا أنه لا يوجد اختيار سياسي سوى هذا الذي تتجذر به الفئات الاجتماعية للفتيان والمثقفين . إن الشكل الخاص لتجذرها مرتبط بشكل القمع ، المسيطر في هذه البلدان . وفي ميدان الجهود السياسية فإنه الفرصة الوحيدة لحماية النفس ضد القرف الجماعي ، وضد التكييف وضد إزالة التسامي . وبنفس الضرورة يرفض المراهقون المكيفون أيضاً الإمكانات التي توفرها المؤسسات القائمة لأجل تكوين مثل أعلى للانا مطابق لنظام السيطرة . إن جميع المحاولات ليجعل منه « مواطنين ديمقراطيين » بالمعنى الذي يريده النظام تفشل بالضبط أمام النزعة الأكثر قدرة وجبروتاً ، النزعة نحو الإزالة القمعية للتسامي . لقد ذكرنا في فقرات سابقة الموقف السلبي إزاء للجيش . إن « الخدمة الاجتماعية المدنية التطوعية » التي تحاول الحكومة الاتحادية نشرها والترويج لها منذ أحد عشر عاماً ، والتي كانت ترمي الحكومة الاتحادية من ورائها تكوين مثل أعلى للانا ، قد فشلت بصورة محزنة ؛ فحتى الآن لا يوجد أكثر من ألف مراهق تقدموا كل عام للانخراط في هذه « الخدمة » في جميع أنحاء المانيا الاتحادية . وهناك فتى قدم بمثابة نموذج مثالي ، قدم تقريراً أثناء تظاهرة دعائية للمنظمة المركزية لـ « الخدمة الاجتماعية المدنية التطوعية » ، والذي قضى فترة خدمته طوال عام في مستشفى للطب

النفسي ، قد أكد ، إذا صح التعبير بمثابة برهان على التكوين المكتمل لمثـــل أعلى للانا ، أنه بعد زمن معين يجري تسليم مفتاح خزانة الصيدلية بيده شخصياً لصاحب السلوك الحسن ، [١] ولكنه لا ينبغي في مقـــابل ذلك أن نستسلم للوهم بأن أنا مثالياً جماعياً وفعالاً موجود حقاً لدى المراهقين المكيفين ، وذلك فقط لأن النموذج القديم للانا المثالي قد فقد بعضاً من وظائفه التقليدية .

إن الحلول المقترحة من قِبل اليسار التقليدي على المراهقين المتجذرين ، تشهد حتى ذلك الحين بنفس العجز الذي تتصف به « الخدمة الاجتماعية المدنيـــة التطوعية » إزاء أغلبيات الفتيان المكيفين» « فالمركز الاشتراكي » مثلاً ، الذي يرغب أن يكون عمله أفضل من عمل الـ S D S من جهة ، ومن عمل الـ S P D و D F U (التحالف الالماني من أجـل السلم) ومن عمل الـ K P D ، يدعو الشبيبة المعارضة إلى أن لا تخوض نضالات جذرية ظاهرية فقط — لن يفهمهـا بعض أقسام السكان ، الذين هم تقدميون في حد ذاتهم، ومن شأن هذه النضالات أن تدفع هذه الفئات من السكان إلى أحضان الرجعية [١] . وبصرف النظر عن هذه العمايات السياسية فإن هؤلاء النظريين لا يريدون أن يروا ، أنه لا يمكن دعوة فتيان ، يريدون أن يموا « الحكة » ، والاشمئزاز اللاإنساني ، والعدوانية الموجهة للاكثريات الراشدة والمراهقة في المجتمع، والذين يعانون من ذلك، ويريدون حماية أنفسهم منه، أقول لا يمكن دعوة هؤلاء الفتيان ولا ضبطهم بسلوك يتصوره هؤلاء بادىء بدء تماماً بمثابة سلوك « حكيم » ، بـــل وفي حالات ملموسة ، بمثابة سلوك فاسد وانتهازي . إن الأعمال الجذرية والعدوانية والرجعية — في

---

(١) راجع صحيفة Frankfurter Allgeneine zeitung 5-2-1968

(١) هذا المأخــذ أعلن بصورة خاصة في مؤتمر تأسيس « المعارضة الاشتراكية » يوم ٣-٢-١٩٦٨ في أوفنباخ ، ويتعلق الأمر هنا بحركة تجمع اشتراكية يسارية ، اشتركت فيهـا تكتلات مساة تقليدية من S D S . وقد تجاوز هذا المؤتمر الجمعيات النقابية من حيث مشاعر البغضاء التي أظهرها جهاراً وبصورة مكشوفة ضد « الطلبة » .

جزء منها – جماعياً لحركة المعارضة لدى الفتيان والطلبة هي وسيلة تطرح العديد من المسائل والمشاكل بل وربما الازدواجية في إطـــار برنامج « واسع » جداً للدفاع ضد الإزالة القمعية للتسامي . ويمكن أن توصف هذه الأعمـــال ، على أساس علم النفس ، بصفتها تقنيات دفاعية ضد القوى الخارجية المعادية للانا – هذه التقنيات التي تتصف هي ذاتها بضعف الأنا التي تريد مكافحته جماعيـــاً . لكنها في الوقت الحاضر الإمكانية الوحيدة للوصول إلى هوية سياسية فرديـة وجماعية . لذلك فهي ضرورية لا غنى عنها ، كوسيلة سياسية ؛ وبدونها فإن مجمل الحركة السياسية خارج البرلمان ستنهار بعد وقت قصير .

الكومونة

إن الكومونة رقم واحد التي تشكلت في برلين الغربية في نهاية عام ١٩٦٦ والتي أخْرجَ أعضاؤها من SDS وذلك في أيار ١٩٦٧ ، هي كومونة حسب مفهومها ذاته للوحدة السياسية التنظيمية الملائمة لأجل قيادة الصراع الطبقي في المجتمعات الرأسمالية الاحتكارية الراهنة . وهي تنتسب تاريخياً إلى كومونات الفتيان التي نشأت في الاتحاد السوفياتي فوراً عقب الثورة ؛ لكن الكومونـــة الالمانية رقم واحد تريد أن تتغلب على نواحي الضعف البنيوية التي اتصفت بها تلك الكومونات السوفياتية ، والتي انتقدها بصورة رئيسية و. رايش [1] .

ونواحي الضعف التي سجلها رايش على الكومونات السوفياتية في عهد الثورة الأول هي في حسب رأيه بصورة جوهرية اخلاقية العمل المتصلبة والأخلاقيـة الجنسية القمعيـــة ، وهي نواقص لم تكن تلك الكومونات تتوصل الى التغلب عليها . إن الكومونة رقم واحد قد انبثقت ، بصورة ملموسة ، من جماعات تكونت حول « العمل الهدام » وجماعات Uuverbindliche Richtlinien (برنامج مؤقت) التي نشأت في عامي ١٩٦٢ – ١٩٦٣ في ميونيخ وشتوتغارت وبرلين . كانت هذه الجماعات تحاول ، وليس في ذلك شيء أصيل ولا جديد

---

(١) راجع ويلهلم رايش « الثورة الجنسية » صفحة ٣٠٣ إلى ٣٣٠

طريف ،حل التناقضات بين التنظيم والممارسة السياسية. وكانت النتيجة النظرية بادىء بدء « تشرذما » أو شرذمة ، وتشكل هذه حسب تصور هذه الجماعات وحدة عمل للدفاع ضد الإزالة القمعية للتسامي – رغم أن هذا المفهوم لم يكن قد شرح وأوضح في ذلك الحين إلا من جانب مركوز (التي كانت هذه الجماعات ترجع إلى أفكاره على الأخص) وفي رأيها أن هذا الدفاع الجاري **دفعة واحدة** يقوم في البرنامج التالي : إن الشرذمة لكي تعجل وتيرة تطور المجموع ، بأي ثمن كان، فإنها تفسح المجال **في الحال** لجميع إمكانات الشيء الإنساني ، البشري . وانطلاقاً من هذا التصميم ومن الحكم بأن العلم يكون الحيـــاة بصورة هائلة في طلائعها وفي أغراضها ،يرسم بادىء بدء تصميماً **لنظرية جديدة للعلوم**،ويتصور لائحة تراتبية hiérarchique للعلوم [...]

« إن (**العمل الهدام**) المؤلف من محرضين وقادة سياسيين ، يدعون الى العصيان المنظم ، بصفته خطوة أولى نحو تحقيق مجتمع الشرذمـــة المتحررة ، يتحدد بصفته نخبة – منبوذة ، متجه مباشرة نحو العمل . إن معيار عمل ما ، ولو كان ضئيلاً متناهياً في الصغر ، هو درجة تعرية القمع الاجتماعي . والذي يشترك حالياً في ممارسة تقاليد جديدة للتمرد هو وحده الذي يحق له أن يعتبر نفسه في عداد اليسار الهدام [...] .

« يعرف الجميع أنه لا يكفي أن يستهلك المرء بصورة انتقائية معرفـــة مأخوذة من الكتب ، بل نحن نتطلب الروح والعقل والنفس الهادمة ، التي تمثل الكائن الهدام . وهذه تولد من معرفـــة الصلاحية المطلقة لمبادىء الديالكتيك وتفهمه للقانون الفيزيائي البيولوجي للتناقض الروحي والوجداني [...] .

لأجل تعجيل وتيرة تطور المجموع ، ينبغي أن يكون ذلك مهمة نخبـــة لإيجاد المجال الحيوي لجميع إمكانات الإنساني ، جميع إمكانات البشري [...] .

« إن الإيمان بإمكانات الشيء البشري ، الانساني لدى « الانسان الهدام »

l'homo subversivus يأتي من أمله في عالم أفضل . إن الشخص المستنير ، الصافي النظرة إلى المستقبل ، الذي سرعان ما نفذ ببصيرته إلى الآليات الخلابة الباهرة ، لهذا العالم القمعي ، ذلك الشخص الذي لا يكفيه أن يحقق تجريبياً داخل الشرذمة إمكانات الإنساني والبشري حالاً ، في حياته البشرية - هذا الشخص هو « الإنسان الهدام » l'homo subversivus [...] .

« سوف نظهر إذن على خشبة المسرح بمثابة أشخاص فتانين ؛ وسوف نعد الناس بالحصول على القمر - وسوف نبر بوعودنا - »[1] .

وفي الكومونة رقم واحد ، التي جاءت بعد ذلك التاريخ بقليل ، لم يذهب قادتها بعيداً جداً في تحقيق هذه الوعود . لكن انتقاد ذلك ليس من هدف هذا الكتاب ؛ فحتى الآن ما يزال عدد لا يحصى من البرامج السياسية ، والبيانات الشيوعية تشارك الكومونة رقم واحد مصيرها .

والكومونة تستمد بالضبط منجهة أخرى منشأها منخيبة الأمل لفشل هذه البرامج والبيانات. ولا ينبغي كذلك أن نأخذ على واضعي الـunverbindliche Richtlinien أنهم لم يفهموا دائماً أساتذتهم ، من ماركس إلى أدورنو مروراً بفرويد . وسيكون ذلك بادىء بدء مأخذاً فيلولوجياً وليس سياسياً . ويبقى أنه يوجد عدد كاف من النظريين الذين فهموا جيداً ماركس وفرويد ؛ والحال فإنهم رفضوا على حد سواء إعطاء جواب على الأسئلة المطروحة في هذا الكتاب على صعيـــد « الدفاع ضد الإزالة القمعية للتسامي » وأن « الهدامين في يأسهم المبرر بصورة ملموسة كانوا مجبرين تماماً على أن يطرحوا السؤال التالي : يتعلق

---

(١) « unverbindliche Richtlinien »
نشر ش. بالديناي ، ر. غاشيه ، ود. كونزلمان . العدد الأول - ١٩٦٢ والعدد الثاني ١٩٦٣ .

الأمر بمعرفة ما إذا كانت مدرسة فرانكفورت بإعلانها المستمر بأن الوضع الراهن لا مخرج منه ، قد أدركت جدلية هـذه الموضوعة ، وما إذا كانت لا تخفي عن نفسها أهمية العمل بوسواسها المتمثل في التحليل الكامل ، الذي يشل حتى أهم الأشخاص في المجتمع [1] . وسيكون من الخطأ كذلك أن نأخذ على الكومونة كون الهدامين الصياحين والمتبجحين ، قد تخلوا بسرعة فور انضمامهم إلى الكومونة عن مبدئهم في مقاومة المجتمع في كل مرة استطاعوا فيها أن يبيعوا قصة رخيصة عن « حياة الكومونة » لمجلات مصورة ولشركات التلفزيون وكانوا يعيشون عن حساب أولئك الذين كانوا يدعون أنهم يخوضون ضدهم نضالاً شاملاً [2] وهذا المأخذ لا يمس سوى بعض الأعضاء الضعاف في الكومونة الذين لا تشكل إدانتهم هدفاً سياسياً محترماً جداً .

إنها لمعروفة الوقائع والسيئات السياسية والشخصية لأعضاء الكومونة رقم واحد، ولا أنوي أن أضيف الى الانتقاد البرجوازي وإلى الانتقـــاد الاشتراكي التقليدي ، انتقادي للحلول التي قدمها أعضاء الكومونة لمعضلاتهم الاجتماعيـة والجنسية . ذلك لأن ثمة خطراً بأن تخدم الحلول الخاطئـــة المقدمة للمنازعات ممثلي الانتقادين الأولين المذكورين، وإسقاطهم على الكومونة رقم واحد اعتداءاتهم هم أنفسهم وحالات كبتهم اللاواعية ومنازعاتهم النفسية والجنسية الخاصة، وعلى هذا النحو يخلصون منها بسهولة . لكنني أنا أيضاً لن أتمكن من أن أجتنب تماماً من هذا الخطر .

فمن جهة ارتكبت الكومونة رقم واحد عدداً كبيراً جداً من الإساءات السياسية والنفسية بحيث لا يعود بالإمكان الاعتراف لها بنواياها الثورية وإنقاذ

---

(١) unverbinbliche Richtlinien no. 2 p. 22

(٢) إن المأخذ القائل بأن الكومونة رقم واحد تتراضى مع السلطات القائمة على النحو المذكور هو أساسي عند بروكنر وأمثاله . المرجع المذكور صفحة ١١٦ .

هذه النوايا ؛ ومن جهة أخرى فقد استطاعت الكومونة رقم واحد أن تمد طوال وقت لا بأس به بقمر مستدير وأمل نيّر وممكن الحصول عليه ذلك ما وعدت به الفتيان اليساريين لكن إثر ذلك خيبت آمالهم بصورة فظيعة وخدعت هذه الآمال بحيث أنه - لأجل تلافي تكرار خيبات الأمـــل هذه - فيجب انتقادها على الصعيد الشخصي ، حينما تجمل هي ذاتهـــا من الأشخاص عوامل للتحرر .

لقد وعدت الكومونة رقم واحد بإيجاد دواء للضعف العام لليسار ، وذلك في نموذج تنظيمي جديد راديكالياً وفريد من نوعه . وقد عملت كأنمـــا كانت بالإمكان التغلب على التوتر الذي لا يحتمل والذى يعـاني منه جميع « التعساء » بدرجات متفاوتة من الوعي ، مع وضعهـا بصورة فردية حداً ا « الإرغام على التفكير الدائم » وإبداله بالعمل الذى يمنح الارتياح بادىء بدء للفرد . إن المفاهيم الجارية مكافحتها قد صنفت على أساس أنها « نظرية ماركسية مستلبة »، الخ . وتوصف المفاهيم المعطاة بأنها « تسليات » وأشياء أخرى من هذا الطراز . وكلاهما يهاجمان كثيراً من نواحي الضعف البنيوية الملازمـة للحركة الاشتراكية ولمجمل الحركة المضادة للسلطة وللتحكم وللرأسمالية . وفي هـــذا لا تختلف الكومونة رقم واحد عن سابقاتها العديدات الفوضويات والانقلابيات التي كانت تعاني عن حق من الشكل البيروقراطي والعجز الدبلوماسي والانتهازي للمنظمات السياسية ، والتي انفصلت عنها تلك الكومونات ، لكن التي كانت هذه تجابهها عن خطأ بالمبدأ القائل بأن القضايا السياسية ستحل حينئذ « دفعة واحدة » شرط أن يستبق الثوريون الثورة بصورة جذرية كافية في حياتهم ذاتها . ويمكن أن نصف فشل كل الجماعات الانقلابية والفوضوية ، تقريباً - حينما لم تجر تصفيتهـا من قبـــل قوى الدولة القمعية ، أو الحزب الذي انشقت عنه - بصفته فشل الثوري الانقلابي والفوضوي في حل عمليات المقاومة الداخلية التي تتناقض مع ما فرضته هي على نفسها من متطلبات . إن المثال الأكثر مأساوية والأكثر

نموذجية لإيضاح ذلك هو نهاية بوريس ساوينكوف ، آخر قائد للمنظمةالنضالية للحزب الثوري الاشتراكي في روسيا [١] .

إن الأعمال السياسية الفردية للكومونة ، مأخوذة واحدة فواحدة ، كثيراً ما أظهرت على حد سواء مقيدة ومحركة ، وضارة بالنسبة لمجمل حركة المعارضة . وسيكون في غير محله تماماً أن يؤخذ عليها أخطاء تكتيكية مختلفة أو انتقاد أو صورة الطلبة المعارضين على نحو ما أعطتها للرأي العام ، وعلى وجه التخصيص أنهم كلهم ملتحون خاملون وقذرون . وكان لهذه الصورة أن تنشأ حتى بدون الكومونة وهي لم تكن سوى البؤرة الواضحة جداً لتكون الأفكار المسبقة . كذلك ليست الكومونة رقم واحد مسؤولة عن أنها حطت مراراً من سمعة أقصى اليسار وأقامت تمييزاً وذلك في مراحل المناقشة الراهنة وأنها أجبرتها على أن تخطو كثيراً من الخطوات إلى الوراء، وكل ذلك بأعمال انعزالية . وهي تسأل عن حق ما إذا كانت غايات اللافتات الجدية ، الكئيبة والعاجزة (في التظاهرات التقليدية) هي سياسية أم أنها بالعكس عقبة بوجه القضية المقدسة [١] . صحيح أنها تنكر عن خطأ جميع تناقضات سياستها الخاصة معيدة إياها إلى إدقاع سياسة مجمل المعارضة خارج البرلمان (بما في ذلك سياسة الـ Asta (المنظمة الطلابية شبه النقابية) وسياسة الـ S D S – وهي تصفها بأنها تقليدية. والحكم القائل بأنها تمارس سياسة ثورية ذاتياً ، لكنها موضوعياً مضادة للثورة، لا يمسها حقاً إلا حيث لا تلبي المتطلب الذي يميزها عن باقي الحركة، وأنها تلتقط

---

(١) انظر الرواية – السيرة بقلم « بوريس ساوينكوف » ،

Roman eines terrorisen, Berlin, 1930 .

(٢) Rainer Langhans, selborarstellung der Kommune. Fu - Spiegel, Ber , Fu - spiegel, Berlin ne. 57 , Mai 1967 p. 6

قضية الوجود الثوري وتحلها اليوم لدى أعضائها .

كان أنصار « البرنامج المؤقت » يقولون بصورة صحيحة جداً ، وإن كانت موجزة بصورة فظيعة إلى حد التشويه : « إن القاسم المشترك الذي يقاطع الطموح إلى تحقيق الذات هو نفي النشاط الجنسي » وقد أعطوا على ذلك جواباً خاطئاً : « إن التعديات المتعلقة بالتسامي ، التي يقوم بها مدراء الأعمال في الميدان الجنسي لا يمكن كبحها إلا بنشاط جنسي مفعم بالعزم . وستكون مهمة « الشراذم » توسيع هذا النشاط بحيث يشمل جميع ميادين الحياة » . والجواب خاطىء بسبب واقع وهو أن الإزالة القمعية للتسامي (« التعديات المتعلقة بالتسامي ») تستند إلى حالات الكبت الجنسية للفرد ، وعلى المكونات الجنسية لطبعه « المتكون فعلاً » ولن يمكن الحيلولة دون هذه التعديات ، بأعمال إفرادية ، وبالتأكيد **ليس دفعة واحدة** . لقد أخذت **الكومونة رقم واحد** في الحسبان وضع الأمر على هذا النحو ، بصورة ما – هي خاطئة في هذا السياق . فالكومونة الأولى (وعلى الأخص الثانية التي نشأت بعد ذلك في برلين الغربية) كان عليها مع ذلك أن تكمل مجدداً الأعمال بالتفكير . وحدث ذلك على الأخص في شكل اجتماعات على أساس الجماعة groupe تبعاً لنموذج العلاج التحليلي النفسي على أساس الجماعة . وكما كانت الحال في النموذج التحليلي النفسي ، كانت تتجسد كذلك في الكومونتين الأولى والثانية بصورة جلية جداً ، حسب أقوال الأعضاء الذين تركوهما ، النزعة التالية ، الصعب اجتنابها : إن القسم من الجماعة الأكثر استقراراً ، نفسياً ، (الأصح أو الأسلم) يستعيد استقراره على حساب الجانب غير المستقر نفسياً ، مع إسقاط القسم الأول حالات كبته هو نفسه ، وتكوناته الارتكاسية ، على القسم الثاني . وستبرز هذه النزعة بصورة أقوى لدى مجموعة من المثقفين الفتيان ، وستكون لها نتائج أكثر قسوة لا سيا حين يكون هؤلاء المراهقون على معرفة الى هذا الحد أو ذاك ، بالتحليل النفسي ، وأن باستطاعتهم إذن استعمال مقولاته ، وعلى هذا النحو تمثيل دور « المحللين » ،

في حين أنه لا يوجد بينهم في الواقع محلل حقيقي ، يستطيع أن يكتشف لدى قسم الجماعة ، الأقوى ، حالات الكبت والتكونات الارتكاسية ويقضي عليها .

إن انتقاد الكومونة رقم واحد ، مهما بدا ذلك مستغرباً ، هو انتقـــاد نزعتيها البرودونية و الستالينية . لقد ادعت البرودونية أن بالإمكان تكوين جزر صغيرة شيوعية ، داخل الدولة الرأسمالية سيكون بوسعهـا – أي تلك الجزر – أن تعمل حسب النموذج الشيوعي وتسلبق في هذا الإطار ، الثورة ، مرهصة بها . أما الستالينية من جهتهـا ، فتدعي أن « الاشتراكية في بلد واحد» هو الاتحاد السوفياتي ، تشع قوة مضيئة جداً ونموذجية جداً ، إلى حد يتمنى معه شغيلة البلدان الرأسمالية «محاكاته» . إن مجمل النظرة السوفياتية للثورة ما تزال تعيش حتى اليوم .هذا الاعتقاد. إن الكومونة رقم واحد هي ، في نظريتها أكثر سذاجة أيضاً من البرودونية ، أما في ممارستها – بالنسبة لوسائلها المحدودة – فهي إزاء أعضائها تماثل الستالينية إرهابية . إن نموذج الثورة لدى الكومونة رقم واحد يقتصر على « اشتراكية في منزل واحد » . وهذا يعني لدى نقله إلى الصعيـــد البسيكولوجي الذي ندرسه هنا : ان الكومونة تقيم معايير «شيوعية» لأعضائها وتلغي « الرأسمالية » حالاً وسريعاً بالنسبة لنفسها وقد أخفق هذا البرنامج . إن هذا الموقف الثوري ذاتياً يصبح موضوعياً مضاداً للثورة هناك حيث يولد الأمل لدى اليساريين الفتيان « الذين يحسون بأنهم تعساء » ، الأمل بأن جميع أمنياتهم يمكن أن تتحقق اليوم وجميع آلامهم أن تلغى اليوم . وفي كثير من عمليات تقليد الكومونة رقم واحد في المانيا الاتحادية أدت خيبة هذا الأمل إلى حالات اكتئاب نفسية شخصية شديدة التشويش وصلت إلى حد الانهيـــارات العصبية أو ، حيث أمكن اجتناب هذه الحالات ، فقد أدت خيبة الأمل تلك إلى انتهاج سلوك شديد الرضوخ . ويمكن إيضاح هذه الظاهرة بمثال « العلاقـة القمعية بين اثنين » تؤكد الكومونة رقم واحـــد ، دون أن تبرهن في

في هذه الناحية بأن جميع العلاقات الجنسية بين شخصين هي قمعية ، لأن هذه العلاقات مقفلة ، محدودة ، وهي تعارض إنشاء وحدات تعاونية أكبر. وسنعود لنتحدث بالتفصيل عن هـــذا التأكيد في الفصل من هذا الكتاب ، المكرس للإخلاص والحب . وهاكم ما يمكن قوله بهذا الصدد في الوقت الحاضر: من جهة، لا يمكن إصدار قرار بتخطئة الحل الذي اقترحته الكومونة رقم واحد – أي إبدال العلاقات الأثنينية القمعية بوحدات أكثر مرونة تمارس فيهـــا العلاقات الجنسية الجماعية،لا يمكن تخطئة ذلك الحل بالاستناد فقط إلى الواقع – وهو واقع صحيح على كل حال، وقد أثبت مراراً عديدة – بأن ذلك الحل لم ينجح إلا في إنشاء علاقات جنسية تتصف بقمع جنسي أكبر أيضاً من ذلك الذي يسيطر عادة على العلاقات بين شخصين ، وإن تلك الأحداث قد عرفت دائماً نفس المصير : اثنان من أعضاء الكومونة يلتقيان ، ويتحابان ويتركان الكومونة . ومن جهة أخرى فمن الخطأ أن نستخلص الطـــابع القمعي العام للعلاقات بين شخصين (وكذلك للعلاقات بين شخصين التي تستمر طوال الحيـــاة) من القمع الراهن المؤسس تاريخياً الذي يسيطر على أغلب العلاقات الجنسية .

كانت الكومونة رقم واحد تريد أن تدمر الأخلاقية الجنسية القمعية؛ وكانت تعارضها بأخلاقية تجريدية ، تحررية ؛ ولكن لم يكن من الممكن إلا أن تفرض هذه الأخلاقية ، في الحال على الأشخاص الذين لا يعانون فقط نير الأخلاقيـــة القديمة بل لقد تم تكوينهم تكويناً تاماً من قبل هذه الأخلاقية . كان أعضاء الكومونة يقولون : لا نريد أن نستمر زمناً أطول في الخضوع للزواج الأحادي القمعي ولا لتنوعاته المختلفة وبديلاته في الأوساط الطلابية . وكان عليهم ، بالمقابل، أن يرضخوا لمتطلبات الممارسة الجنسية الجماعية التي لم يكونوا معدين من أجلها نفسياً ، ولذلك اضطروا بكل تأكيد الى التألم والمعاناة من هذا الوضع ، إنهم بصورة ما يمارسون نزعة تزهدية ذات علاقة بفترة البلوغ . وهم يرضخون لقسر مجرد ولكن لا يتمسكون به ، لأنه لا يطابق بنيتهم النفسية (علاقـــة

الأنا والانفعال اللاواعي) ، لكنه ليس سوى شيء مضاف مجدداً . وبالتـالي فقط كان لا بد لطريقة حياتهم من أن تؤدي إلى ممارسات ارهابية – موجهـة ضدهم هم أنفسهم . وحتى ولو كان عشر مـا يذيعونه خلال المقابلات الصحفية وحده صحيحـاً ، فمن شأن ذلك أن يعني أنهم لم يحيّنوا لأنفسهم بعمليات القمع الاجتماعية الجارية المعتـادة على مستوى عمليات القسر القمعية وعمليات الكبت التي ما تزال ضرورية بصورة مباشرة للعبث،بل لقد استبدلوا بها أنظمة إرغام أكثر قسوة بكثير أيضاً :

« يحدث الأمر كما يحدث بالنسبة لترويض الخيول . بادىء بدء يجب أن يمتطي شخص ما الحيوان لأول مرة وإثر ذلك يستطيع كل شخص أن يتصرف بالحيوان . بادىء بدء يتعلق الأمر بحب أو بشيء مماثـل ثم يصبح الأمر مجرد لذة . وليس في الأمر لعبة سحرية غامضة : في البدء يبث الحب في نفس فتـاة بحيث تصبح عاشقة وينام الشاب معها ، وبعد فترة معينة يتصنع الشاب هيئة المصاب بخيبة أمل ، اللامبالي . ثم تترك الفتاة لاهتمام الآخرين وتكون اللعبة قد لعبت وهكذا تصبح الفتاة عضواً كامل العضوية »[١] .

إن تصريح لانفهانس : « لقد فقدت قضايا الحياة الجنسية في حياة الكومونة طابعها المتشنج » ينبغي إذاً أن يفهم على النحو التالي :

إننا لم ننجح في تحقيق الانفراج بالطابع المتشنج لحياتنا الجنسية في علاقاتنا الإثنينية ، لذلك فقد حاولنا التوصل الى هذا الأمر بواسطة الكومونة . إن التظاهرات المتشددة ظاهرياً والثورية في ميدان الحياة الجنسية إنما تشابه عملية التبجح الملاحظة في واجهة العلاقـة الجنسية العضوية – والمماثلة للسلوك الاستقرائي للرجال والنساء الأميركيين الذين يمارسون العملية الجنسية الجماعية

(١) Pardon, No. 8, 1967. p. 22

القسرية [1] والحال فإن التفسير الوحيد لهذا التبجح يمكن أن يكون تقريباً : محاولة لكبت رغبات إشتهاء المماثل ، التي ظلت (حسبما يقال) محرمة بصورة ذات دلالة في الكومونة رقم واحد .

كانت الكومونة رقم واحد أكثر من ذلك أيضاً . لقد كانت تريد تدمير مجمل الحضارة البورجوازية ووضع هذا التصميم قيد التطبيق حالاً وسريعاً لدى أعضاء هذه الكومونة ، وهي تشارك في هذه الفكرة الأكثرية الساحقة حتى الجماعات الثانوية للفتيان المتجذرين . وهذه الفكرة لا تتجسد لأول وهلة لدى هذه المجموعات إلا في رفض صفات الطبع البورجوازي وسماته كالأمانة ، والانضباط والسلطة العقلانية ، وحتى الإخلاص يؤدي على هذا النحو إلى إهمالها . إن واقع أن هؤلاء يظلون مصرين سواء في الرفض الفردي المعادي للطابع الأبوي ضد عائلة كل منهم الخاصة ، أو ضد معاييرها، لا ينبغي أن يخفي عنا الخطر الذي تنطوي عليه عمليات الاحتجاج والتخلي هذه ، وهو أن مقاومة الفتيان للإزالة القمعية للتسامي تخف أكثر فأكثر . وعلى كل حال فإن تكون أنا قوي والقدرة على التسامي مرتبطان بهذه الصفات البورجوازية ولا ينبغي أن نخلط بين تدميرها، وبالضبط حين يجري ذلك في اليسار، وبين تخطيها . وهذا الأخير يشكل جزءاً من برنامج الاشتراكية ، في حين أن الأول هو عنصر مكون من عناصر الأزالة القمعية للتسامي .

إن موقف جماعات الفتيان الرافضة هذا الموقف المعادي للبورجوازية والمضاد للمؤسسات هو عنصر مكون من عناصر سياسة تلك الجماعات والتي بدونه سرعان ما تمتص هذه الجماعات أو تتفكك . لكن هذا الموقف في أغلب

---

(١) كونزلمان « باردون » المرجع المذكور ، الصفحتان ١٧ و٢١ : « ألاقي صعوبات في الاتتماظ (بلوغ ذروة المتعة الجنسية) وأريد اطلاع الجمهور على هذه الصعوبات ، إن الخطأ هو إقامة علاقة بين شخصين ، وهي حل بورجوازي ووهمي تكون نتيجته الوحيدة حشتين » .

الحالات الفردية ما يزال مثبتاً بقوة بالبنية العائلية الأبوية (البطريركية) ، بما أنه قد نشأ من النضال ضد هذه البنية. وهكذا فإن شيئاً ما إرغامياً ووهمياً يظل مرتبطاً بهذا النضال . هذا الموقف ذاته يحتوي على تناقض داخلي : إنه لا يكف عن تمجيد ذاته بذاته وهكذا فمن الضروري مثلاً مكافحة جميع الأشكال المتحجرة للبيروقراطية ولجميع آليات الإدماج المؤسساتي لدى نظام السيطرة ولدى منظماتنا. ولكن من الضارّ إلى أقصى حد في الوقت نفسه أن يكافح فردياً وجماعياً كل انضباط لدى المرء ولدى الآخرين بصفتهما آليتين شرجيتين أو طابعين بيروقراطيين وإبدالها بمبدأ رفضي مضاد للشرحية ، ليس فعالاً سوى من وجهة نظر فردية. إن عواقب هذا المبدأ هي مدمرة بالنسبة لحركة الرفض بأسرها المعادية للمؤسسات . إن حالات كبت عصابية يجمد العمل تُعقلَن بصفتها عمليات رفض للإرغام الدراسي المفروض من الخارج ؛ إن التظاهرات السيئة التنظيم ، والإعلانات (الأفيشات) السيئة الإلصاق التي يستطيع كل شخص انتزاعها ، وجمعيات يدعى لعقلها في وقت متأخر جداً وتكون غير محضرة ، هذه الأمور هي أشياء معتادة تمارس يومياً لدى الجماعات المناهضة للسلطة .

إن الحضارة البورجوازية لا تتصف فقط بالقمع وبالتكييف التضليلي المزيف ، هذين الأمرين السائدين . بل إنها تحتوي أيضاً على جماع كل الصفات المكتسبة والمحصلة اجتماعياً ، والتي تتجسد في السيطرة على الطبيعة ، وفي لغة التخاطب وفي الفكر ، وفي التأمل الفكري وفي السيطرة على الجسم . إن الممثلين الراهنين للحضارة البورجوازية يدمرون بصورة منهجية جميع العناصر التي وإن كانت قد تكونت في إطار المجتمع الراهن فإنها تهدف إلى تحطيم القيود الاجتماعية ولو بمجرد اعتراف بحقيقة هذه القيود . إن الإزالة القمعية للتسامي لا تعني ، من وجهة مادية ، شيئاً سوى خفض لمستوى من الحضارة تم بلوغه فعلاً ، أي خفض لمستوى التسامي. منا لا تقوم الكومونة إلا بتمثيلها على أوضح وجه نزعة محتواة ضمنياً في مجمل حركة الرفض المناهضة للمؤسسات والمناهضة للسلطة ،

في البلدان الرأسمالية الحالية : وهذه النزعة تتمثل في معرفــــة ممارضة تدمير الحضارة التكييفية والتوجيهية المزيفـــة والمقودة من فوق وعن بعد بنمط من تدمير هذه الحضارة ، منبثق من القاعدة ، وهو نمط يذكرنا بحركة محطمي الآلات . وسيعني هذا في أسوأ حال ، من جهة ، صيانـة التكييف التوجيهي القمعي المزيف الذي تمارسه هذه الحضارة ، ومن جهة أخرى تدمير جميع العناصر الايجابية لهذه الحضارة ، هذه العناصر التي يجب صيانتها بأي ثمن كان لأجـل إتاحة بناء حضارة تكون من جهتها قادرة على تخطي الحضارة البورجوازية .

وعلى أساس التجارب والمحاولات التي قامت بها حتى الآن بعض الكومونات ولا سيما الطلابية يمكن أن نستخلص بعض الاستنتاجات التالية :

١) يعتبر كثير من الطلبة والشغيلة الفتيان والتلامذة أن من الأحكم سياسياً أن يتجمعوا في تجمعات سكنية ، وذلك أصح من البقاء خاضعين لجو دور الطلبـة المثير لداء العصاب والجو المماثل في الدور المخصصة للعازبين والغرف المفروشة أو المنزل العائلي الكئيب ، فباستطاعـة أولئك في التجمعات السكنية المنظمة من قبلهم أن يتحملوا عند الاقتضاء بصورة أفضل وأن يكافحوا الضغط الاجتماعي والنفسي الذين يكونون أكثر تعرضاً له وهم أفراد منعزلون .

٢) إن كل إعادة تجميع تشبه ولو من بعيد « كومونة » ينبغي لها أن تنطلق من واقع أنه ليس من المهمة الراهنة « للكومونة » أن تحل المجموع الشامل الكلي للقضايا الشخصية والنفسية لأفرادها ، والتغلب على نواحي الضعف السياسية التي تعاني منها حركة المعارضة . ولكن ينبغي أن نحدد بدقة شديدة كل كومونة بصفتها وحدة وظيفية قادرة على حد سواء على زيادة الفعالية السياسية لأعضائها وتسهيل حياتهم النفسية .

٣) إن برامج مثل إلغاء العلاقات الجنسية بين شخصين وحسب ، واعتماد علاقات رخوة ، وعلاقات ممارسات جنسية جماعية ، وتركيز علاقات جنسية

جماعية وطيدة نسبياً لزمن محدد، وإدماج أزواج من الجنسين أو عائلات في إطار كومونة أكثر أهمية – هي كلها برامج لا تمكن مناقشتها اليوم منهجياً ، ناهيك بالمقدرة على إدراجها في مشروع كومونة عامة . وحيثما أمكن ولادة مثل هذه العلاقات فإنها لا ينبغي أن تنشأ إلا عفوياً ، من سياق الكومونة نفسها لا من برنامج ممكن اعتباره مفروضاً فرضاً بصورة كيفيــة ، وهو على الأخص يولد مقداراً أقل من حالات المرض العصابية على نحو لا يستطيع أن يطابق بنيتهـا النفسية وأقل ما يمكن قوله في هذا الصدد هو أن علاقــة جنسية بين شخصين وحسب لفترة محددة أو لمدى الحياة وتكون هذه العلاقة ناجحة سعيدة نسبياً ، هي أقل قمعية بشكل واضح ، وهي تولد على الأخص مقداراً من العصاب أقل مما يولده الإرغام على إقامة علاقات جنسية جماعية ، حتى ولو كانت هذه تظهر تحت قناع التحرر والثورة الجنسية .

٤) ان نمط الكومونة الوحيد الذي يمكن تصوره اليوم لا يحقق بأي حال من الأحوال تجاوزاً للبنية العائلية . بادىء بدء يمكن الحديث فقط عن نجاح ما، حين تحقق الكومونة ، فقط ما يشكل جزءاً في الحقيقة من الوظائف الإيجابية للعائلة البورجوازية ، ولكن ما لم يعد يستطيع تأمينه أغلب العائلات الحاليــة هو : تقديم حماية ضد الوسط المحيط المعادي . ومن السخافــة والعبث والخطأ ارادة معارضة تدمير العائلة من فوق بتدمير العائلة من تحت . والنتيجة الوحيدة التي تحصل في الحياة العملية ، وذلك ما أثبتته جيداً كومونات للفتيان في المانيا الاتحادية،هو تعزيز الوظائف الأكثر سلبية للعائلة الحالية (نزعة ارهابية موجهة ضد أعضائها) ، والنقص والإدقاع التامان من حيث الوظائف الايجابية التقليدية (الحماية ضد العالم الخارجي) .

٥)ان الكومونة كما جرى تعريفها هنا محددة في الزمن بالفترة الانتقالية بين سن المراهقة وسن الرشد . وأثناء هذه الفترة يمكن أن تضطلع الكومونة ببعض

المهمات الهامة بصورة خاصة والضرورية للدفاع ضد حالات داء العصاب وضد الإزالة القمعية للتسامي . ولعل هذا التحديد في الزمن أن يبدو قمعياً بصورة غريبة وهو كذلك فعلياً بصورة ما — اذا ما استندنا بمثابة معيار الى مفهوم لتجمع من الأشخاص الأحرار مستقل النشاط والفعالية . الا أن المقترحات التي تنص عليها الكومونة في هذا الصدد تقوم بكاملها على مستوى ذرائعي للدفاع ضد الإزالة القمعية للتسامي وضد حالات العصاب . وفي هذا السياق يجب أن يؤخذ في الحسبان بادىء بدء أن علاقة معينة بين التطور النفساني الفردي وحالات الإرغام الاجتماعية الخارجية تشمل الأشخاص الذين يريدون الاشتراك بنشاط في صراع الطبقات . ويجب تحديد هذه العلاقة دون أن نهمل ، بين عناصر أخرى ، الحاجات الأولية المطابقة لسن كل فرد من الأفراد بذاته .

٦) إن نمط الكومونة ، الذي قدمنا صورة أولية له هنا ، لا يستطيع إلا بصعوبة ، أو لا يستطيع مطلقاً ، أن يضطلع بالوظيفة التقليدية للعائلة : تنشئة الأولاد . « إن كل نزعة هواية في عملية تطور المجمعة socialisatoin شيء مشؤوم النتائج » إن عبارة بروكنر هذه [1] يجب أن تأخذ بجدية كبيرة . إننا لا نجد مثالاً واحداً ، في مجمل البلدان الصناعية العالية التطور ، لا نجد مثالاً لنموذج وضع قيد التطبيق لمجمعة لأولاد صغار ، تحقق خارج العائلة . وكان من شأنه تقديم نتائج أكثر نجاحاً بصورة واضحة من الحالات ، الناجحة نسبياً ، على نحو وسطي ، حيث المجمعة تكون قد جرت في العائلة ، على يدي أبوين طبيعيين أو قادرين على الحب ، وحيث تتمتع العائلة بشروط معيشة ملائمة نسبياً (حياة اقتصادية مؤمنة ، توفر شروط السكن ، توزيع دوري الأبوين ، الوقت الذي تستطيع الأم وضعه تحت تصرف الولد) . إن المثال النموذجي الذي يشهد لصالح تربية جماعية غير قمعية ، والذي يستند إليه بلا انقطاع

(١) بروكنر ، المرجع المذكور – ص ١٨٤

اليسار التقدمي ، وهو دار « أولاد سومر هيل الأحرار »[١] ، يظهر نواحي الضعف التالية :

– إن الأولاد لا يدخلون بصورة عامة إلى الدار قبل بلوغهم السادسة من أعمارهم وهم يأتون في أغلبيتهم الكبيرة ، من عائلات الفئات الوسطى ، حيث العلاقات العائلية وتقنيات التربية هي أكثر عقلانية وأقـــل قمعية من المعدل الوسطي .

– لا يوجد هولاء الأولاد في كومونة اشخاص راشدين بل في بيت للأطفال مزود بمربين راشدين .

– إن النسبة المئوية لحالات الإعياء النفسي المماثلة لداء الذهان بين الأولاد الذين يغادرون سومر هيل هي بصورة واضحة كما يبدو أكثر ارتفاعاً منها بين كل الجماعات الأخرى المشابهة ، من الفتيان . ولا بد أن هذا يعود إلى واقع أن فتيان سومر هيل لم يتعلموا أن يجابهوا المؤسسات الاجتماعية القمعية ولذلك فإنهم لا يملكون سوى درجة منخفضة جداً لتحمل الإيذاء أو الحرمان – وهي نسبة منخفضة جداً بالنسبة للمجتمع الراهن . وهؤلاء المراهقون لم يكتسبوا في سومر هيل عدداً معيناً من المؤهلات الأولية التي يحتاجون إليها لكي يجـابهوا العالم الخارجي أو يتكيفوا معه ، هذا العالم الذي يحسونه هم بصفته معادياً جداً ومهدّداً وقمعياً .

هذا الانتقاد موسع بالتفصيل في دراسة لريتا أوفيه[٢] .

---

(١) الكسندر س. نايل « أولاد سومر هيل الأحرار » ماسبيرو (مجموعة « استناداً إلى النصوص ») عام ١٩٧٠ .

Rita Off, Der Triebtheorie Wilhelm Reiches (٢) zu einem modell repressionsfrier Erziehung, Francort, 1966. (غير مطبوع)

ورغم هذه اللائحة من الشروط والتضييقات لأجل بناء الكومونات حالياً ، فإن الوظيفة الاستباقية الطوباوية ، التي هي خاصية جوهرية للكومونة ، تظل ماثلة لا تزول .

ولكي تتمكن الكومونات من أن تضطلع حقاً بهذه الوظيفة فإن بعض الانجازات الملائمة هي ضرورية اليوم بالضبط ؛ فإذا ما فقدت هـــذه الإنجازات فإن كل المحتوى الطوباوي سوف ينحط متحولاً إلى نفاية مثالية أو أنه سيتحول إلى خضوع أو وقاحة . لقد أعلنت الكومونة رقم واحد بمثابة مبدأ أسمى : إن الممارسة السياسية لكل عضو من أعضاء الكومونة يجب أن يكون مرتبطاً باستمرار وبصورة ملموسة بالتلبية المباشرة الفورية لحاجاته هو نفسه . لقد قال كونزلمان : « ما علاقتي بحرب الفيتنام ما دمت أعـــاني صعوبات في بلوغي الانتعاظ ؟ (ذروة المتعة الجنسية) » ونحن نرد عليه قائلين : إن إنشاء معارضة قوية في المتروبولات الرأسمالية ، العاليـــة التطور ضد حرب الفيتنام ، وإزالة صعوبات القذف، صعوبات بلوغ ذروة المتعة الجنسية ، لهما شرط مسبق مشترك، وهو الكفاح ضد أمراض العصاب وضد الإزالة القمعية للتسامي . فإنه لا يمكن استبعاد صعوبات الانتعاظ ، بالمحاولة الدائمة والمستمرة للحصول على الانتعاظ كما أنه لا يمكن إنشاء معارضة ضد حرب فيتنام بالاستشهاد دائماًوباستمرار بأقوال لينين ولوكاتش . إن تحقيقاً عملياً للهدفين يكون مرضياً للفرد كذلك لا يمكن أن يتطور إلا على درجة عالية من العمل المنضبط والعفوية المرنـــة ، والتسامي بالرغبات والغرائز الجنسية ،وعلى أساس حرية الرغبة الجنسية ،والوعي الطوباوي و قدرة قوية في السيطرة على الواقع (realitâstûchti - gkeit) .

الحب والاخلاص

الحب والإخلاص هما من سمات الطباع البورجوازية بصورة نموذجية . لقد

وصفنا في الفصول السابقة بنية الطبع الضررية لتكوين هـــذه السمات ، على الخصوص بمثابة بنية للأنا ، متميزة . إن بنية الأنا هذه ، المكتسبة في إطـار الحضارة ، لم يكن باستطاعتهـــا ، بدورها أن تتطور إلا في نظام اجتماعي للانتاج ، عالي التميز والتنوع ، الذي من جهة أخرى لا يمكن السيطرة عليـــه بدون هذه البنية . ولدى التفكير بمقولات سيكولوجية يمكن القول ان الحب والإخلاص لم يوضعا باتصال مع النشاط الجنسي إلا في فترة متـأخرة نسبياً من عملية نشوء الحب . إن معرفتنا للحياة الغرامية وجماهير السكان الواسعة قبـل نهاية القرن التاسع عشر ليست سوى جزئية . ولعل حياة الحب تلك اضطرت لأن تكون ، لأجل أسباب اجتماعية – اقتصادية ، أقل إنسانية أيضاً من الحياة الغرامية للفئات المسيطرة في كل عصر من العصور . لكن ما نقل إلينا عن الفئات المسيطرة في عهود اجتماعية قديمة يعطينا الانطباع بأن الممثلين الراشدين لتلك الفئات قد تصرفوا في الواقع على نحو ما يتصرف الأطفال فقط في أيامنا ، وعلى وجه التخصيص بالنسبة لتصوراتهم الخادعة ما قبل الأوديبية ، والأوديبية – التخلي عن الزوجات والعشيقات المزعجات ، وتقطيع رؤوس المنافسين، ونفي أزواج العشيقات إلى الجزر النائية ، وإصعاد الأغراض الجنسية المشتهاة ، فوراً ومباشرة من الشارع إلى المخدع ، الخ . وفقط في عملية تطور استمرت أكثر من ألف عام جرى استبطان متطلبات الزواج الأحادي المستمد من الحق الروماني الخالي من إمكانية الطلاق ، وتحقق ذلك الاستبطان الى درجة أصبحت معهـــا تلك المتطلبات أحد مقومات الأخلاقية الجنسية لحضارتنا . ولأجل التوصل الى ذلك أصبح من الضروري منذ بدء العصر الوسيط أن تشن موجات متعاقبة من التشدد وفرض الحشمة ولو المصطنعة وأوسع ما يمكن من القمع الجنسي . لكن هذه الظاهرات لم تكن تمس سوى بعض جماعات الطبقة الحاكمة (كبار رجال الكهنوت والأشراف) أو فقط الجماهير المسيطر عليها . وكانت تلك الأعمال بصورة عامة تفرض بوحشية ارهابية لا مثيل لها . ولكن قصر مدتها يتيح لنا أن نرى كم كانت هذه الظاهرات قليلة العمق . إذ أنها كانت تنتهي بانتظام إما

بعد مضي جيل وإما بعد وفاة ملك ذلك العهد الذي استثارها. ولم تحدث تغيرات أساسية في هذا الميدان أيضاً إلا بعد رسوخ أركان النظام الاجتماعي الرأسمالي.

في فرنسا ما قبل الثورة وفي ظل لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر طورت البورجوازية ضد الطبقة الحاكمة، أخلاقيتها الجنسية والزوجية ـ الحازمة والمتصلبة في وقت معاً وفيما بعد أصبحت هذه الأخلاقية عاملاً سياسياً واجتماعياً فيزيولوجياً هاماً لانتصارها على المبدأ الاقطاعي. لقد كان البورجوازيون أكثر أخلاقية وكان ذلك يعني قبل كل شيء أنهم كانوا أكثر سلامة ونقاء من طبقة أشراف العهد القديم. لقد جمعت البورجوازية الحب والزواج والنشاط الجنسي في مثلث فولاذي شبه طبيعي، أصبحت العائلة في داخله حقاً «خلية الدولة» في عهد الرأسمالية عند ولادتها وفي ذروتها. لقد ذكرنا في الفصل الثاني من هذا الكتاب القسر النوعي الذي كان منذ البدء يخضع الحب والزواج والحياة الجنسية ويشوهها. لكن هذا القسر كان ضرورياً لأجل فرض النظام الاجتماعي الجديد. لذلك فإن البورجوازية، وباسم الضرورة ذاتها، سرعان مـا أظهرت عدم تضامنها في التشريع كما في طريقة العيش، مع جميع الحركات الطوباوية، الثورية أو الاصلاحية التي ولدت مع الثورة الفرنسية وبعدهـا، تلك الحركات التي أخضعت لانتقاد قاس ركائز مؤسسة الزواج نفسها وأنمـاط الحياة الجنسية السائدة. ولم تكن البورجوازية تتحمل الناطقين باسم هـذه الحركات إلا في صالوناتهـا، الأدبية سواء كان الأمر يتعلق بروسو أو بستندال وبلزاك وجورج صاند، في عهد حكومة المديرين.

إن المثلث القمعي الحب ـ الحياة الجنسية ـ والزواج الذي صاغته البورجوازية قد أخضع في المناقشة التحليلية النفسية ذات الاتجاه الماركسي، قبل قيـام الفاشية، لانتقاد أساسي على الصعيد النظري لكنه عاجز على الصعيد العملي. لقد حدد ويلهلم رايش وظيفة الزواج الاجتماعية بثلاث طرق مختلفة: اقتصادياً، وسياسياً، واجتماعياً.

اقتصادياً : كما أن الزواج بدأ بالتطور في التاريخ مع الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج ، فإنه يؤسس وجوده المادي على هذه القاعدة المادية الخاصة به . وهذا يعني : أنه ما دامت ستبقى ثمة ملكية خاصة لوسائل الإنتاج ، فإن الزواج سيكون ضرورة اجتماعية ، أي ستكون له وظيفة اجتماعية . أما أن هناك طبقات مختلفة المصالح ، تعيش أيضا على نفس النمط الجنسي ، فلا يشكل ذلك اعتراضاً راسخ الأساس ، ذلك لأن الإيديولوجيات السائدة في كل عهد هي إيديولوجيات الطبقة السائدة . إن شكل الزواج لا ينبع فقط من أساسه المادي بل أنه مدعوم بالمفاهيم الخلقية للجو الإيديولوجي وبالبنية الانسانية المتصفة بالقلق أمام الحياة .

سياسياً : إن الزواج الأحادي النهائي يشكل نواة العائلة العصرية التي هي مكان التكوين الإيديولوجي لكل عضو من أعضاء المجتمع التحكمي ؛ إذاً فإن له مدلولاً ودوراً سياسيين .

اجتماعياً : يضمن الزواج ، من جهة ، تبعية المرأة والأولاد ، الاقتصادية ، وهي سمة رئيسية للعهد الأبوي (البطريركي) ومن جهة أخرى ، حمايتهم الاقتصادية والخلقية (على أساس المصالح الأبوية « البطريركية ») وبالتالي فإن المجتمع الأبوي (البطريركي) لا بد له بالضرورة من أن يحافظ على الزواج القسري [١] .

لذلك لاحظ و. رايش أيضاً أن كل اقتراح إصلاحي يتعلق بالزواج في إطار النظام الرأسمالي – مهما كان ذلك الاقتراح تقدمياً ، يتضمن عنصراً متناقضاً . هذا العنصر يوجد مجدداً على الأخص في نموذج تخطي الزواج الذي قدمه و. رايش نفسه ، أي في العلاقة الجنسية الممتدة خلال فترة محددة . ومثل هذه العلاقة يجب أن تكون ، حسب رأي رايش ، قادرة على التغلب منذ

---

(١) و. رايش : « الثورة الجنسية » ، المرجع المذكور . الصفحات ٢٠٥ إلى ٢٠٧

العهد الرأسمالي على عوامل الزواج القسري الضارة جنسياً وسياسياً . وهي في الوقت ذاته نموذج لضبط العلاقات الجنسية والانفعاليـة والاقتصادية في مجتمع حر . وما هو طريف وفذ وفي الوقت نفسه إشكالي إلى أقصى حد ، في هـذا النموذج ، هو أنه لا يستنفد قواه في نصائح إصلاحية أو ثورية ، بل يقوم على « **أساس الضبط الذاتي من جانب الاقتصاد الجنسي** » كما يصفه رايش . وهو يقصد بذلك نوعاً من نظام أحيائي آلي (سيبيرنتيكي cybernétique) للسيطرة على قضايا الواقع الاجتماعي بأسره . والعنصر « الضابط » لهذا النظام هو « جريان الليبيدو » ، المحرر في القيام بصورة مكتملة بالعملية الجنسية التناسلية . إن النشاط الجنسي الذي يتطور بحرية يتخلص هو بذاته من عوائق الرغبات الجنسية الجزئية ، الماقبل التناسلية . وتفقد حينئذ تلقائيـــاً الغرائز الجنسية المدمرة ، إمكانية أن تتخذ صيغة عدوانية أو معادية ، للنشاط الجنسي ، وهي تترك نفسها تُمْتَص دون إرغام في النشاطات النافعة اجتماعياً ، ويصوغ حينئذ بلا إرغام ، الطبع « القوي ، القادر على الحب ، والملائم للنشاط الجنسي »[1] ، يصوغ القدرة على الارتباط الأحادي لفترة زمنية محدودة ، ذلك لأن الإرغام على الزواج المتعدد المصابي ، (الدونجوانية) تماماً شأن الإرغـــام على زواج أحادي معين (الغيرة الامتلاكية ، والتبلورات الماقبل الأوديبية) الخ ، تفقد أساسها.

إن « العلاقة الجنسية الطويلة الأمد » لا تكون عرضة إلاّ لتناقص القوة الطبيعي مع مرور الزمن (Abstumpfung)[2] وستنتهي أخيراً في التـــالي مع حد أدنى من عمليات القسر وحالات الحرمان والقلق . إن ثنوية الغريزة الجنسية / غريزة التدمير ، تلك التي شغلت تفكير فرويد إلى حـــد كبير حتى نهاية حياته ، وإثر ذلك شغلت أفكار ماركوز أيضاً ، هي في نظر و. رايش

---

(١) المرجع ذاته ص ٦١ .
(٢) المرجع ذاته ص ١٩٥ .

قضية مثالية مزيفة . ذلك لأن القدرة الشهوانية الجنسية العارمة أو الزخم الجنسي (الليبيدو) الذي يتطور بحرية ، يضم في ذاته آلية ثبات الشخص وتحقيق استقراره ، هذه الآلية التي تتيح له السيطرة على الواقع (Realitâtstûcht gkcit) . إن غريزة التدمير لا يمكن أن تتطور إلاّ ضد غريزة جنسية قلقة ألمّ بها الوهن . وعلى هذا الأساس ، فإن أخلاقية جنسية – رأسمالية كانت أم اشتراكية – من شأنها أن تعارض النشاط الجنسي ستصبح غير ذات جدوى : « فمن الواضح إذن أنّ مبدأ **الضبط الخلقي** يتعارض مع مبدأ **الضبط الذاتي التلقائي بواسطة الاقتصاد الجنسي** »[1] .

لقد حاولت أن أثبت انطلاقاً من مظاهر متعددة ومختلفة جداً أن تحرير الحياة الجنسية **التناسلية** لا يمكن اعتباره بمثابة الفترة الثورية الحاسمة ، سواء اجتماعياً أم جنسياً ، على نحو ما كان يرى رايش في هذا التحرر . أكيد أن ويلهلم رايش قد استطاع أن يأمل من تحرير النشاط الجنسي التناسلي ، وعلى أساس حق تاريخي أكبر ، تحريراً اجتماعياً أوسع ، وذلك ووجهات النظر تلك ما زالت قائمة حالياً في الأوساط التقدمية . كانت الحياة الجنسية التناسلية في عهد و . رايش ، تعاني اضطهاداً مباشراً ، إلاّ أن سمات واضحة وحتى رجعية تدخل في بنيان رايش الطوباوي لـ « العلاقة الجنسية الطويلة الأمد » . ونقطة انطلاق هذا البنيان أن الرجل والمرأة مستقلان اقتصادياً ، لذلك فليس ثمة أي سبب **اقتصادي** يتعارض وانفصالهما المحتمل . طبعاً إن هذا المطلب شرط ضروري لكل علاقة إنسانية حرة . لكن رايش ينطلق أيضاً من الافتراض بأن تبادل الجاذبية الجنسية والمتعة الناشئة عن علاقة جنسية ما ، تتزايد بادىء بدء ، مع ديمومتها ، لكي تتناقص إثر ذلك . . وكما يبدو فإن رايش يعتبر هذا الخط المنحني المعبّر عن الجاذبية الجنسية بمثابة قانون من قوانين الطبيعة . وقد

---

(١) المرجع ذاته ص ٥٢

أتاح له ذلك أن يكتب : « لن يفكر أحد في أن يأخذ على شخص ما ، رفضه ارتداء نفس الملابس طوال سنين ، أو سأمه من تناول نفس الوجبة باستمرار . وفي الميدان الجنسي وحده اتخـــذ التفرد في الامتلاك مدلولاً عاطفياً انفصالياً كبيراً »[1]

ويوصي رايش بسلوكين ممكنين لأجل تلطيف« وهن الرغبة الجنسية هذا »: الانفصال النهائي عن الشريك ، وإما خيانته بصورة مؤقتة ، بغية زيادة التوتر. ويتلاقى رايش هنا تمام التلاقي مع الموجهين التقدميين في فترة ما ، قبل فرويد ، في مسائل الزواج ، والموجهين شبه التقدميين وذوي الصراحة الوقحة ، في هذه المسائل الزوجية بعد كنسي . فعبارة و. رايش حيث يقول : « إن شفاء زواج تاعس كثيراً ما يتم الحصول عليه بواسطة الخيانة الزوجيـة ، وذلك رغماً عن القانون والأخلاق التحكميين »[2] يمكن أن نجدها أيضاً في كتاب مدرسي من تأليف أ. إيليس . إن فرويد هو ، في هذه الناحية ،وبالضبط بفضل تبلوره البورجوازي الراسخ الصارم ، أكثر جدية وإنصافاً من رايش . ففرويد يرى أن عدم الاخلاص الزوجي ليس سوى « دواء ضد تهيج الأعصاب النـــاجم عن الزواج »[3]. إن تهيج الأعصاب هو نفسه التعبير العُصابي عن الأنا الذي أصابته بالضعف الجنسي متطلبات الحضارة ، المفرطة ، فاقدة التوازن . إنْ تطرق هذا الوهن هو أحد قوانين الحضارة ، لا أحد قوانين الطبيعة . ويحترس فرويد كثيراً من التأكيد بأن ثمة هبوطـــاً شبه طبيعي للتوتر الجنسي . وويلهلم رايش ينسى هنا أن ما يستثيره عدم الإخلاص من غيرة ، يعيد لدى الشريك الآخر ،

---

(١) و. رايش « الثورة الجنسية » ص ١٩٨ .

(٢) و. رايش المرجع ذاته . ص ٢٢٢ .

(٣) Freud, Die « Kulturelle » sexuelmoral. op. cit. p. 132.

أفضل الحالات ، الوضع السابق ، الذي يتضمن في ذاته آليات هبوط التوتر . صحيح ان ويلهلم رايش قد كتب يقول إنّ علاقة جنسية حرة طويلة الأمد تقوم في موقع يتجاوز الإخلاص وعدم الإخلاص البورجوازيين ، نظراً لأن تلك العلاقة قد تغلبت بواسطة الاقتصاد الجنسي على علاقة الإخلاص المؤسسة فقط على الأخلاقية . ويمكن الرد على هذا بأنه لا يمكن وصف علاقة جنسية بأنها حرة ، مهما كانت طبيعتها ، إلاّ إذا بَرِئت تماماً من جميع أعراض الضعف والوهن ، التي تنشأ اليوم بانتظام .

إن وهن العلاقة الجنسية هو ، بمعنى ما ، الملازم التابع للغيرة العصابية . لكن الغيرة ، بعكس ضعف العلاقة الجنسية لديها حق في كل تربية ممنوحة عقلانياً ، أساس مشروع في تاريخ الفرد . الغيرة هي ، شأن الخوف تماماً الذي تستمد منه منشأها ، رد فعل ضد فقدان للحب متوقع أو حقيقي . وفقط عن طريق الاستثار الانتاجي ، لتوتر الخوف هذا سيغدو الولد قادراً على ممارسة علاقات عاطفية أكبر قيمة ، علاقات واعية موجهة . وفي هذا النطاق فإن آلية الغيرة الطفولية هي شرط لتكوّن الأنا . لكن الأنا الذي أصبح قوياً يتغلب في الوقت نفسه على عناصر الغيرة الطفولية . إن شخص المصاب بالعُصاب أو بالذهان هو وحده الذي يبقى عند بنية طفولية لرغبه الحب الغيور ، أو يتقهقر نحو هذه البنية . لذلك يشير التحليل النفسي إلى فرق بين الغيرة القائمة على التنافس أو الغيرة الطبيعية من جهة ، وبين الغيرة القائمة على الإسقاط التحويري * أو الغيرة الوهمية من جهة أخرى . فالأولى هي تكون لردّ فعل مطابق لدى الانسان السليم ، إزاء فقدان للحب متوقع أو حقيقي ، أما شكلا الغيرة الآخران فيعرضان تكونات ارتكاسات عصابية أو مشابهة

---

* الإسقاط التحويري(la projection (en psycho هو عملية يعزو بها الفرد إلى سواه عواطفه ودوافعه الخاصة . (عن قاموس « المنهل » — ملاحظة من المترجم) .

لداء الذُهان [١] . إن رايش يؤكد على الوجـــه الاجتماعي لهذه التكوينات الارتكاسية ، ويميز بالتالي بين الغيرة الطبيعية والغيرة الامتلاكية .

وقياساً على ذلك يميز رايش بين ما يطرأ على العلاقـــة الجنسية من ضعف طبيعي وبين وهن العلاقة الجنسية المشروط عصابياً (الدونجوانية) . وهـذا التمييز هو إشكالي (problématique) . وحتى في الحـالة حيث لا تصبح علاقة حب مقبولة و ُمتَحَمَّلة جنسياً إلا بعد سنين طويلة ، حيث إذن يتصرف أحد الشريكين ضد الآخر بتدنٍ في القدرة بل حتى بانعدام تام للقدرة ، فسنلاحظ بكل تأكيد في التحليل الفردي أن علاقة الحب قد نشأت في الأصل من وضع كان يتضمن على الأقل عناصر لافتتان (أو لغيرة) وأنه كان على الأقل مشرباً بقليل من الغيرة الطفولية . ولهذا السبب وحسب نجد أن لضعف العلاقة الجنسية في مجتمعاتنا الراهنة شرعية كبيرة ، شأنها في ذلك شأن الغيرة . ينبغي تكييف الأولاد على قواعد المنافسة الاجتماعية أثناء التربية وإذا كان يُراد فيما بعد أن يتصرفوا طبقاً لهذه المعايير فإنه ينبغي من باب أولى إبقـــاء هؤلاء الأولاد على مستوى من الأنا يتصف بالغيرة الطفولية ، بحيث أن المعايير الاجتماعية للمنافسة هي حقاً متعذرة التبرير . ولذلك يضطر هؤلاء الأشخاص لأن ينتقموا من كل غرض جنسي يكون « لهم » في مكان أبويهم .

إن مسألة الاخلاص في المجتمع القائم على التبادل هي حقـــاً أشبه بمسألة « الثوب الجديد » ، إن قيمة الثوب التبادلية تنقص كلما توالت عليه الأيام ، ولا أهمية لما إذا كان ارتـُدِيَ أم لا ، وحينما يقاوم بعض الأشخاص هذا الإرغام ويرتدون ثوباً ، وإن كان لم يعد شائع الزي فإنهم يفعلون هـذا ، وذلك لأنهم

---

(١) Voir Freud, Uber eintge neurotische Mechanismen, op. cit, p: 132.

لفرط ما ارتدوه فقد نشأ ثمة تعاطف بينهم وبينه ، لقد أصبح قطعة من ذواتهم. ولا يمكن مقارنة هذا الشكل من الحب المصفى بين الزوجين ، اللذين لا تنشأ بينهما علاقات جنسية معاً إلا باسم الذكرى المشتركة، ولكن ليست لهذا الشكل علاقة كذلك بالشهوانية الفتيشية للثوب الجديد الذي يُرَى في الواجهات أو في الشارع . إن الحب الدائم هو في وقت معاً بمنجى من عملية وهن القديم وما يثيره الجديد من شهوانية . إنه يتمسك بـ « فرق الحد الأدنى » الفردي ويقاوم عملية التمايز القائمة على التكييف التضليلي المزيف ، دون تمييز هذه العملية التي يفرضها التبادل على الزي الشائع . إن غرضاً جنسياً لا يمكنه ، في مجتمع حر ، أن يكون شيئاً مثل ثوب يحصل عليه ويستهلك[1] لأسباب المنفعة . (اثواب العمل / الزوجة) أو لأسباب تولّهية جنسية (causes fétichistes) (ملابس شائعة باستمرار / شركاء جنسيون مجددون) .

إن هذا الانتقاد نفسه يختص أيضاً بتوصية رايش الأخرى وهي أنه لأجل إخفاء « وهن العلاقة الجنسية » وهذه التوصية هي الانفصال النهائي . ومؤكد، أن الانفصال سيكون هو الأفضل بالنسبة لكثير من الشركاء والشريكات وعلاقات الحب . ولكن حين يطرح سؤال ماذا سيحدث الآن للشريك الذي بقي شعوره الحبّي سليماً لم يُمَس ؟ [2] إن رايش لا يعطي بالنسبة لنموذجه القائم على أساس العلاقة الجنسية الطويلة الأمد ، سوى أجوبة غامضة تلمّح الى الحل تلميحاً . إن رايش في ردوده على هذا السؤال يتورط وسط الدغلة الشائكة للاعتبارات

---

(١) إن الشبيبة المعارضة تحب بصورة ذات دلالة ، جميع الملابس التي تلغي الفارق بين ملابس العمل والملابس التي على الموضة ، وهي تمنح جميع الملابس الأولى أي المزالة منها الفوارق، تمنحها قيمة جنسيه قبل كل شيء ، وهذه الملابس ترمز في الوقت نفسه إلى حركة رفضهم بنطالات زرقاء ، سترات جلدية ومعاطف عسكرية .

(٢) رايش : « الثورة الجنسية » ، المرجع المذكور ، ص ١٦٣

الواقعية على أساس الضرر الأقل . انه يتضح جيـــداً ، بالضبط في ضوء نموذج « العلاقة الطويلة الأمد » كم أن جميع الطوباويات والأفكار الخيالية تصبح قسرية ورجعية في النهاية حين يراد تجسيدها حسياً منذ الآن . إن هذه الأفكار الخيالية لا تجد تحت تصرفها لأجل وصف حالة التحرر سوى مقولات التشويه والاضطهاد ولذلك فإن عناصر من هذا الاضطهاد تتسرب إلزامياً إلى بناء الحرية[1]. صحيح أن رايش يؤكد أنه « لا النوايا الطيبة ولا التقنيات الغرامية »[2] باستطاعتها اجتناب ضعف العلاقة . وهذا صحيح، لكن رايش وهو سجين نموذجه، يضطر للاستعانة بفكرة « عدم الاخلاص » بمثابة تقنية لاستقرار علاقة جنسية طويلة الأمد . وقد كتب يقول : « هناك أمثلة عديدة تبين بوضوح أن علاقـة عابرة مع شريك آخر خدمت فعلاً الرابطة المديدة التي كانت في طريقها لأن تتخذ شكل زواج »[3] . صحيح أن أمثلة كهـذه وافرة العدد ولكن أي نوع من الرابطة يمكن أن يستفيد من مثل هذه « العلاقة العابرة » ؟ وفي هـــذه الأثناء فإن الكتب الجامعة التوجيهيـــة بصدد الاستقرار الزوجي قد استولت على غايات الضبط الذاتي من قِبَل الاقتصاد الجنسي وقد شوهت هـــذه المقاصد وأفرغتها من جوهرها الانساني جاعلة منهـــا مبدأ للتكييف الجنسي التضليلي الشامل[4] . ويصف و. أدورنو في كلمته الجامعـــة ، كونستانس

---

(١) إن رايش هو أيضاً من هذه الناحية أحد الذين أصيبوا قليلاً جداً بهذا الخطر . وهناك طوباويات اشتراكية حول التربيـــة الجنسية ، مثلا الفكرة الخيالية لأوتو روهل ، تلميذ أدلر (Nues Kinderland, Bâle 1920) تعطينا الانطباع لدى قراءتها بأنها قواعد داخلية لأشخاص يتلون فعل الندامة .

(٢) رايش « الثورة الجنسية » المرجع المذكور ، ص ١٩٧

(٣) المرجع ذاته ، ص ١٩٨

(٤) انظر بصورة خاصه ؛ أ. إيليس Hancbuch der intelligenten Frau Flensburg 1967.

« الثبات »[1] يصف دافع الاخلاص لدى المجتمع البورجوازي بصفته إحدى وسائله القسرية ويصف الاخلاص نفسه على أنه عنصر لا غنى عنه لمقاومة هذا المجتمع .

« إذا كان على الحب في المجتمع أن يجسّد مقدماً مجتمعاً أفضل فإنه لا يستطيع أن يحقق ذلك بحدوثه داخل أرض مقفلة ، هادئة وإنما فقط بمجابهة المجتمع القائم ، بمقاومة واعية . والحال فإن هذه المقاومة تتطلب بالضبط هذا المقدار من الكيفية الذي يرفض البورجوازيون الاعتراف به وهم الذين بالنسبة لهم ليس الحب أبداً شيئاً طبيعياً كفاية . أن يحب المرء معناه أن يكون قادراً على أن لا يتيح ذبول الفورية التلقائية المباشرة تحت ضغط الوساطة الموجودة في كل مكان ، والاقتصاد وفي مثل هذا الاخلاص يصبح موسّطاً في ذاته ، وضغطاً مضاداً عنيداً . وحده يحب ذلك الذي لديه القوة على اتخاذ موقف حازم في الحب . إذا كانت الفوائد الاجتماعية تقود عملية التسامي وإذا كانت تشكل مسبقاً حتى الرغبات الجنسية ، وإذا كانت تلك الفوائد الاجتماعية ، عن طريق مئات الفروقات والتنوعات الخفيفة بكل ما يوطده النظام فإنها تظهر تارة هذا الشخص وطوراً ذاك جذاباً بصورة عفوية في حين أن الشخص الذي قرر القلب والوجدان الميل إليه يصمد لكل هذا مع الثبات على الحب حيث يتعارض ذلك مع قانون جاذبية المجتمع وهو قبل أية دسيسة يستخدمها المجتمع إثر ذلك . ومعنى هذا هو امتحان العاطفة لرؤية ما إذا كان الزمن يتخطى هذه العاطفة ، حتى ولو لم يكن ذلك إلا في شكل وسواس . لكن هذا الحب الآخر المستغل من قِبَل عفوية طائشة ، وهو – أي الحب – معتز لإخلاصه المزعوم . يستسلم كلياً لما يعتبره صوت القلب ويسارع الى مكان آخر فور أن يظن بأنه

(١) Th. Adorno, Minlina Morolia - Reflexionen aus deur beschâbigten Leben, Francfort 1962, pp,226 ss.

لم يعد يحس بذلك الصوت ، إن هذا الحب ، في كل استقلاله السيد ليس سوى أداة المجتمع، إنه يسجل بصورة سلبية ودون أن يدري ذلك، الأرقام التي تقع عليها كرة روليت مصالح المجتمع وان صاحب هذا الحب بخيانته محبوبه إنما يخون نفسه . إن واقع الأمانة الذي يفرضه المجتمع هو وسيلة قمع لكن الحرية لا تستطيع أن تحقق عدم التبعية لحكم المجتمع إلا بالاخلاص وحده » .

إن هذا الاخلاص بصفته برنامجاً عملياً ودائماً فردياً لرجل يحاول بالنسبة لنفسه أن يدافع عن ذاته ضد النزعة الجماعية للإزالة القمعية للتسامي ، يمكن أن يرتبط بعملية قسر هائلة إذا كان موضوعاً بمثابة متطلب إخلاص . والمهم في كل حالة فردية هو أن نعرف ما إذا كانت عملية القسر هذه تواجه الفرد على نحو عنيف وقمعي — وما إذا كان حينئذ الثمن الواجب دفعه من أجل الخلاص من التقهقر النفسي على هذا النحو ليس مرتفعاً جداً وليس له تأثير مدمر ذاتياً — أو إذا كانت عملية القسر هذه تواجه الفرد لمتطلبات انضباط قابلة للتبرير . ولن يمكن الخلاص من عمليات « العفوية » القسرية ، التي كشف أدورنو عن طابعها الوهمي (عدم الاخلاص ، تغيير الشريك) مع الخضوع لجهود إرغامية تخفيها فقط كلمة « الصمود » وتتغير صورتها بتعبيري « الوسواس » و « عدم التبعية » . إن شخصاً ما لن يتمكن من الخلاص من عمليات القسر لإزالة التسامي قمعياً إذا كانت قد أصابت هذا الشخص ، إلا عن طريق جهد الإرادة وحدها وبمجرد الفهم الذاتي لآليات هذه العملية . إن باستطاعته تحقيق ذلك على أفضل وجه في بضع حالات منفصلة وذلك بفضل تقنيات التحليل النفسي ومعالجاته .

إن هدف هذا الكتاب لا يمكن أن يكون إذن الدعوة في النشاط العملي لأخلاقية جنسية جديدة لليسار ، ولا حتى التعيين النظري لخصائص مثل هذه الأخلاقية . فهذا ليس فقط عديم الجدوى ، بل إنه يفضي بنا إلزامياً الى

نتائج خاطئة وإلى أن نصوغ واجبات خاطئة أيضاً . وذلك بتساؤلنا اليوم ما إذا كان من واجب الأشخاص في مجتمع حر أن يرتبطوا بعلاقات بين شخصين ، أو في كومونات لفترة معينة من الزمن أو لمدى الحياة . إن ما هو اليوم ليس فقط غير نافع بل إنه بالعكس ضروري هو استبعاد الطابع القسري لجميع هذه العلاقات ، قدر الأمكان . إن الأمر لا يتعلق بإلغاء الزواج ، بل بإلغاء مؤسسة الزواج ، ليس بإلغاء الحب والغيرة ، بل بإلغاء شروط القتل النفسي والجسدي المرتكبين بدافع الغيرة ، واستبعاد الانتحار النفسي والجسدي المرتكب بسبب فقدان الحب أو بسبب الحب الجريح . والشيء نفسه يطبق على المعايير الحقوقية . وليس المهم توسيع الحق في الطلاق أو بث النزعة الإنسانية في الحق العائلي ، بل بالأحرى إلغاء القواعد الجامدة للحق الزوجي والأبوي . إن حق الأطفال والأولاد هو وحده يمكنه وينبغي له أن يحل محل علاقات الحق هذه . ليس الزواج في مجتمع حر هو الذي ينبغي أن يُحمى ولن نكون ثمة بحاجة إلى أية قاعدة قاطعة تعين من له الحق في أن يعيش مع من وبكم ، وابتداء من أي وقت وخلال كم من الزمن . إن الاستقلال الذاتي في تنظيم الدائرة الخاصة سيجد حدوده وذلك في تربية الأطفال أي حيثما يبدأ في المجتمع البورجوازي التصرف الكيفي الخاص . فإذا ترعرع هؤلاء الأطفال في كومونات أو في عائلات تقليدية فإنه تبدأ مع اكتساب الطفولة الصغيرة الطابع الاجتماعي عملية تطور ذات أهمية رئيسية جداً بالنسبة للمجتمع بحيث لا يمكن إن يبقى متاحاً دون رقابة للحب ، وللميول ولحالات ضعف أفراد المجتمع الراشدين سواء أكان الأمر يتعلق بأشخاص منفردين أو بجماعات .

إن المفاهيم والتمييزات التي هي وحدها اليوم تحت تصرفنا والتي هي مفهومة كالتمييز بين الراشدين والمراهقين مثلاً يمكنها نزوعياً أو واقعياً أن تصبح قديمة بالية في مجتمع حر . ولكن لا يوجد تحت تصرفنا اليوم سوى

مفاهيم وأفكار استدلالية تتعلق بالمجتمعات القائمة، ونحن مرغمون تماماً على أن نستخدمها إذا كنا نريد ولو على أساس كل قطاع على حدة واستباق عمليات التطور التي هي في أساسها كتربية غير قمعية مثلا تكون نتيجتها أشخاصاً ذوي أنا قوي وقادرين على أن يكونوا سعداء. ذلكما يجعل صعبة جداً كل محاولة لتقديم رسم أولي لنماذج حرة غير قمعية، وتكون مرضية للاتصال البشري، وللتربية وللمجابهة الطبيعة، الخ. ولا تكون هذه النماذج لا غامضة ومجردة بصورة لا تحتمل كما أنها لا تنضب ولا تستنفد قواها في نفي عمليات التطور والآليات الاجتماعية القائمة (النزعة المضادة للسلطة وللتحكم، وعدم القمع والعمل غير المستلب، الخ). وبصدد تفسير أحدث الانتفاضات الطلابية في المانيا الاتحادية وفي برلين الغربية، تحدث هربرت مركوز عن «نهاية الطوباوية» وكان يقصد بذلك أن الإمكانات الجديدة لمجتمع بشري ووسطه لم يعد يمكن تصورها بصفتها امتداداً للمجتمعات القديمة وبصفتها نتيجتها داخل الديمومة التاريخية: إن هذه الامكانات الجديدة تفترض بالعكس انفصاماً للديمومة التاريخية»[1]. في هذا السياق تابع مركوز بقوله إن جميع القوى المادية والذهنية التي تستطيع أن تسهم في تحقيق مجتمع حر هي حاضرة في الواقع»[2]

أما بصدد الإناسة (الأنتروبولوجيا) الثورية الجديدة التي من واجبنا تطويرها، فهذا يعني أن البلدان المصنعة تصنيعاً عالياً قد أصبحت ناضجة كفاية من أجل ثورة لم تعد تقتصر على تحويل تنظيم القوى المنتجة. والأصح القول إنه

(١) هربرت مركوز «نهاية الطوباوية»، منشورات ديلاشو ونشتلي. مجموعة معارك سوي باريس ١٩٦٨ ص ٧.

(٢) المرجع ذاته ص ١٠.

تطابق المستوى الذي تم بلوغه من السيطرة على الطبيعـــة ، حالات تقدم ونجاحات وتمايزات في البنية النفسية التي ينبغي انطلاقاً منهـا ضمان السيطرة على الطبيعة ، وكذلك عمليات تطوير للمستوى البيولوجي ، التي يجب أن تستخدم من أجلها هذه السيطرة . وعمليات التطوير هـذه تتطلب تغييرات في الشكل التنظيمي وتغييرات لمحتوى الوجود البشري بأسره ، تتميز نوعياً عن أشكال التنظيم الراهنة وعن أنماط الوجود البشري في البلدان العالية التصنيع ، الرأسمالية و الاشتراكية .

حين يتعلق الأمر بقضايا **تطبيقية عملية** في مسائل التنظيم الثوري للوجود البشري ، مثـــلا تربية الأولاد ، وتحقيق التسامي لدى المراهقين وتَـقْـنِيَة canaliser رغباتهم وغرائزهم الجنسية ، وكذلك أشكال ومحتويات الحيـاة المشتركة ، والحياة الجنسية الخ (وبأي شيء آخر يمكن أن يتعلق الأمر ؟) - يجب أن يحتمل بصورة دائمة توتر يحمل « الانفصام » الضروري صعباً جداً . ولدينا الوسائل المادية والذهنية لأجل بناء مجتمع حر « لكن قدرتنا الذهنيـــة بأسرها - وبالضبط ، حيثما تستخدم بصورة انتقادية - تستند إلى المجتمعـات القائمة . إذن فإذا كان صحيحاً أن الفرق الكيفي qualitatif بين المجتمعات القائمة ومجتمع حر ، لا يمكن أن يتحدد إلا بانفصام للديمومة التاريخيـــة ، حينئذ يكون صحيحاً تماماً أيضاً ١) أن هذا الانفصام لا يمكن استباقـه نظريا إلا في مقولات ومجموعـة أفكار استدلالية متسلسلة وأحلام ، هي مشوبة في المجتمع القائم بالاضطهاد ، والقمع والاستثمار ، التي يمارسهـا هذا المجتمع . ٢) أن هذا الانفصام لا يمكن تحقيقه عملياً إلا من قِبل أشخاص لا يعانونَ فقط هذا الاضطهاد ، وهذا القمع وهذا الاستثمار ، ويتعرفون إليها ، ويريدون إلغاءها ، بل أيضاً أشخاص مشوبين ومشوهين من قبل تلك النقائص في أبسط أحاسيسهم وتصرفاتهم . ٣) أن المجتمع الحر لا يمكن أن يُشَيَّد

إلا على القدرات – المعاقة والمشوهة – للمجتمعات غير الحرة . وإلا فسيكون من العبث تماماً القول إننـــا نملك منذ الآن القوى العقلية والذهنية الضرورية لتحقيق مجتمع حر .

لقد قدمنا على هذا رسماً أولياً لبرنامج الإناسة (الانتروبولوجيا) الجديدة[1] هذا البرنامج الذي يبقى علينا تحقيقه .

---

(١) هربرت ماركوز « نهاية الطوباوية » ص ٣٠ .

تذييلات بمثابة خاتمة

يجب أن يُقرَأ اليوم كتاب « **النشاط الجنسي وصراع الطبقات** » بمثابة وثيقة عن المرحلة الأولية لحركة الرفض لدى التلامذة والطلبة الالمان . وكُتِب هذا المؤلف في شتاء ١٩٦٧ – ١٩٦٨ ، في إبان التظاهرات الكبرى من أجل فيتنام والاضرابات الأولى التي قام بها التلامذة ، وبالضبط قبل موجة احتلال الجامعات ، أي بين أوّل حادثة قتل طالب بيد شرطي (٢ حزيران ١٩٦٧) ومحاولة القتل التي جرت ضد دوتشكه (فصح عام ١٩٦٨) . إن المرحلة الزمنية الكبرى لا « تنظيم المستقل ذاتياً » – عمليات احتلال الجامعات ، التربية المضادة للسلطة وللتحكم في جماعيات للأولاد ، تنظيم للدروس مستقل ذاتياً ، وكافة عمليات نقل العلم والمعرفة ، والتدريب على التمرد والانتفاضات في المهن التابعة للبناء الفوقي للمجتمع La superstructure ، والأعمال التي تكشف القناع عن الارهاب الممارس بواسطة الإرغام على الاستهلاك – كل هذا لم يكن بعد قد تبلور بصورة حسيّة ، لا في تصوراتنا ولا في حياة للممارسة العملية . وحالياً فقط أصبح في الإمكان أن نفسر واقعياً تلك الفترة وما رافقها من آلام الوضع بصفتها الخطوة الأولى نحو تجديد بناء الحركة الثورية في المانيا الغربية . ولم تكن ، في تلك الفترة ، سوى حركة رفض واعتراض ، حتى بالنسبة لقادتها ونظرييها حينئذ ، كائنة ما كانت درجة وعيهم الاشتراكي أو

متانة تكوينهم الماركسي . لقد عرفنا ، نحن أنفسنا ، هذه الحركة ، بصفتها مضادة للسلطة وللتحكم antiautoritaire . أما الصحافة البورجوازية فقد أطلقت عليها — ولا سيما على الظاهرات التي كانت تقوم على تخوم تلك الحركة — اسم المعارضة خارج البرلمان ؛ هذه التسمية لا تغطي (لا تعبر بصورة شاملة عن) نظرياتنا حينئذ ، ولا عن شكل تنظيمنا ، ولا عن أهدافنا السياسية ؛ تلك الحركة كانت بادىء بدء موجهة ، بدرجة عاليـة ، نحو الممارسة ، وكانت في الوقت نفسه ذات طابع معنوي وأخلاقي عميق ؛ نقول : متجهة نحو الممارسة العملية ، لأن تلك الحركة كانت ، من جهة ، تضع حداً للأفكار التأملية النظرية البحت لدى الحلقات الماركسية الجامعية ، **ومدرسة فرانكفورت « ونظريتها الانتقادية للمجتمع »** ، كما كانت ، من جهة أخرى ، تضع حداً للنزعة التحريفية المستترة والتحالفات على الورق التي كان يعقدها الحزب الشيوعي ؛ كما كانت تلك الحركة خلقية معنوية لأنها كانت تستمد قوتها السياسية والانفعالية ، بادىء بدء ، من وعي وعود التحرير البورجوازية المكبوتة . لكن تلك الحركة ، مع اتجاهها نحو العمل والنشاط والممارسة العملية ، كانت **مجردة** بنفس مقدار ما هي ضرورة تاريخياً . كانت **ضرورية** ، لكي يكون باستطاعة المناضلين ، في المجتمعات الطبقية التي بلغت مستوى عالياً من التطور التكنولوجي ، أن يعوا مجدداً البعد المفقود لعمل تاريخي واع وجماعي . والواقع أن تقاليد الحركة الثورية العمالية لم تدمّر طوال زمن مديد في أي مكان آخر على نحو ما حدث في المانيا بسبب الفاشية وتأثيرها اللاحق أثناء فترة ترميم الديمقراطية الرأسمالية . لكننا قلنا إن تلك الحركة كانت **مجردة** لأننا لم ننجح في أن نقيم ، في حياة الممارسة العملية ، الوساطة بين بدهية العنف الامبريالي ومختلف أشكال العنف الملازمة للعلاقات الاجتماعية داخل البلدان الرأسمالية ذاتها ؛ ذلك لأن أخلاقية المجتمع الرأسمالي القائم ، ومستوى المعيشة المرتفع ، كانا يخفيان أشكال العنف هذه إلى درجة كنا معها عاجزين عن إماطة اللثام عنها ، إن الوعودالبورجوازية

بالتحرير وتحقيق الانعتاق ، والارادة الثورية البروليتارية ، قد تقاربت ، بعضها من بعض ، في وقت معـــاً ، في الحركة المضادة للسلطة وللتحكم ، وذلك في النظرية السياسية ، وابتعد أحدهمـــا عن الآخر ، في الممارسة العملية ، إلى درجة أعلى بكثير ممـا كان في فترة الصراع الطبقي المكشوف ، التي سبقت الفاشية .

إن التحليلات المؤسسة ، بدقيق العبارة ، على النظرية الجنسية ، أو في معنى أضيق ، على التحليل النفسي la psychanalyse ، قد وضعت ، في المرتبـة الثانية بالنسبة للقضايا النظرية المعينة في هذه الاستعادة التاريخية ، هذه القضايا التي صيغ بعضها في كتابنا هـذا « النشاط الجنسي وصراع الطبقات » ، فيما يتعلق بهذا المظهر أو ذاك ، من وجوه تلك القضايا . وهذا الكتاب ، من جهة ، لم يُتصَوَّر أبداً ، ليكون إسهامـاً في (أو إضافـــة إلى) إلى النظرية الجنسية أو الى نظرية التحليل النفسي . إلا أن ما يبدو أنه كذلك ، في هـــذا الكتاب ، هو في كثير من الأحيـــان ، نتيجة لمفاهيمي الشخصية – مع جميع التشويهات الناتجة عن تلوين بسبب أحداث سيرة ما coloration biographique هذه التشويهات تتسرب على نحو أسهل في المنتجات الثقافيـة والفكرية ، حين يكون غرضها المدروس هو عمليات تطور نفسية . لكن ما يمنح هذا الكتاب طابع وثيقة سياسية ليس عملي الشخصي . أكيد أنني كتبته وحدي ، لكنني كتبته تحت التأثير الشديد لوضع سياسي كان يحتم علينا مـا نفعل ونكتب ، رفاقي وأنا . فهـذا الكتاب هو النتيجة المباشرة لتجربة سياسية ولتأملات فكرية نظرية لم تقتصر على تجربتين فقط ، وأقل من ذلك أيضاً ، على تأملاتي الفكرية .

بيد أنني أعتقد أن الكتاب ليس وثيقـــة عن « النظرية المضادة للسلطة وللتحكم » بمعنى الكلمة الدقيق . وأنا شخصياً من عداد الرفاق في حركتنا الذين

جرى تكوينهم نظرياً واكتسبوا الطابع الاجتماعي سياسياً قبل زمن طويـــل من بـــدء حركة الرفض والاعتراض mouvement de contestation ، لكن الذين اشتركوا إثر ذلك بنشاط في إطلاقها ، وغدوا الناطقين بلسانهـــا، وابتداء من مرحلة معينة ، أصبحوا كذلك التعبير الحيّ عنها ، بدلاً من أن يظلوا المراقبين الواعين لوضع تاريخي معين . ونحن ، في هذا نختلف ، من جهة ، عن رفاق من جيلنا ذاته ، ظلوا دائماً « ماركسيين جامعيين » أو « أتباعاً للنظرية الانتقادية ». ومن جهة أخرى عن الرفاق الذين لعبت في حيـاتهم وفي سيرتهم السياسية ، الحركة المناهضة للسلطـــة وللتحكم دوراً مباشراً وحاسماً أكثر . ويتجسد ذلك أيضاً في الكتاب في عدة مواضع (بصورة أكثر تخصيصاً) في المناقشة المتعلقة **بالكومونة رقم واحد** ، والأصح أن أقول الآن بصدد هـــذه المناقشة أنها قد اوحى بها فهم أبوي (بطريركي ـ قائم ، في ما نحن بصدده على حب الرعاية وتوجيه « الكبير » لا « صغير ») أكثر منه على موقف ملتزم .

إن الحركة المضادة للسلطـة وللتحكم mouvemeut antitautoritaire تـُعْتَبَـر اليوم أنها انتهت تاريخيـــاً وتم تخطيها سياسياً إن التسمية ، التي أصبحت منذ الآن نمَـطية ، والتي تذكر في كل لقاءات جماعاتنـا وفي جميع كتاباتهم هي « الفترة المضادة للسطة وللتحكم » من تاريخ الحركة . وقـد انتهت تاريخياً على الأقل بمقدار ما لم تعد موجودة مطلقاً، أو هي ذات وجود مشتت ، متناثر ، وحيث تتأجج فترة قصيرة ، في المناطق المتخلفة من المانيا الغربية ، حملات ومعـــارك وحركات عصيان يقوم بها الطلبة ، والتلامذة ، أو الرجال المعادون للحرب رافضو أداء الخدمة العسكرية ، ـ حاملة ـ أي تلك الحملات والمعارك وحركات العصيان ـ سمة عمل الحركة المضادة للسلطـة وللتحكم ، وتنظيمها . أما مسألة كون هذه الحركة قد تم **تخطيها** ، فعلياً وحقاً في عملية التطوير المستقل للنظرية والتنظيم والممارسة العملية ، فهـذا أمر قابل للجدال والاعتراض .

كانت حركة الرفض والاعتراض في ذروتها في مطلع صيف ١٩٦٨ .ولأول مرة ، في صيف ١٩٦٩ ، أطلقت جماعات هامة شعار « هيا إلى العمل لإبادة البؤرة (المضادة للسلطة وللتحكم) » . في تلك الحقبة توجد الفترة التي تطورت فيها الحركة المضادة للسلطة والتحكم بصورة دائبة في البدء ،لكي تصطدم إثر ذلك أكثر فأكثر بحدودها هي ذاتها – إلى أن أصبحت في النهاية مهزلة تهريجية ، ومأساة أيضاً بالنسبة للكثيرين . لقد كانت التصورات النظرية لهذا التحول ، وتجسداتها التنظيمية ، هي على التوالي : حل مجمل الحركة وتجديد تنظيمها في كومونات ؛ تنظيم مستقل للدروس مع إنشاء الجامعة – المضادة ؛ تجديد تنظيم مجمل حياة الرفاق الخاصة في « جماعيات للتدرج والتدريب » وذلك بإنشاء الوسط – المضاد ، الخ . التدمير العنيف للجامعة القديمة ومؤسسات أخرى قمعية بصورة نموذجية (الاحتكارات الصحفية ، ومكاتب الجنود ، ومركز الأبحاث الخاصة بالحرب) ، إعادة تنظيم الحركة على أساس فرق مغاوير (كوماندوس) إرهابيين سريين ؛ نزول إلى عالم المخدرات ؛ الانبعاث بمثابة بروليتاريين « ماركسيين ـ لينينيين » واعين ، لخدمة الشعب . وكل مرحلة من مراحل حركة التعاقب هذه ، لم يتبعها كل الجماعات ولا جميع الأشخاص . إلا أن هذه الجماعات – وهي أقليات – التي اتبعت هذا التطور ، في كل مرحلة في مراحله تكشف عن الطابع التلقائي المندفع لـ « حركة الدوران الوحشية » ، التي ، ابتداء من لحظة معينة من تطورها ، أعطت الحركة المناهضة للسلطة وللتحكم ، استقلالها الذاتي ، ثم قامت بحلها إثر ذلك .

وإذا كان كتاب « **النشاط الجنسي وصراع الطبقات** » قد ظل يُنتَقَد حتى ربيع ١٩٦٩ بصفته ذا موقف متأثر بالحركة « المضادة للسطة والتحكم » ، موقف قليلاً جداً ما هو دائب ثابت المنطق ، فقد جرى تصنيف الكتاب بعد ذلك بستة أشهر بأنه يمثل تماماً « **تشوش الحركة المضادة للسلطة وللتحكم** » .

هذان الانتقادان ، المميّزان لمرحلتين متعاقبتين ، فيهما شيء صحيح ، وشيء خاطىء . صحيح أنني ، بالنسبة لبعض النقـاط (كتربية الأولاد ، والزواج الأحادي) اتخذت موقفاً غامضاً ، بل تهربياً ، بل وانتهازياً في شطر منه . وصحيح كذلك – بصدد المرحلة الثانية من الانتقاد – أن الكتاب لا يرتكز على تحليل طبقي واضح ، وأنــه لم يجب إلا بصورة ارادية (ذاتية) بحت على السؤال بصدد الثورة (انظر المقدمة) أو أنه ، مثلاً ، لم يجر سوى تحليل انعكاسات وتأثيرات المجتمع الاستهلاكي على تكييف شروط الرغبات والغرائز الجنسية ، دون أن تكون قد أقيمت صلة كافية مع عمليـة التطور الرأسمالية لانتاج القيمة الزائدة .

لكنه قد نشأ مع « تخطي » الحدود المضادة للسلطة وللتحكم ، هـــذه الحدود المتعلقة بحركتنا، قد نشأ في الوقت نفسه الخطر الإضافي لتخلٍ متصلب عن جميع أهدافنا الثورية ، وخطر انهيار قاعدة شرعيتنا الثورية . إن كثيراً من الرفاق والجماعات تحاول في الوقت الحاضر أن تُتنكِر بصورة مجردة تاريخ حركتها وعلى هذا الأساس تاريخها هي ذاتهـا . ويجري هذا بثلاث طرق : في التقسيم المشوه إلى نظرية بـــلا ممارسة عملية (بمثابة « تكوين ») وإلى ممارسة عملية بدون نظرية (عمل في القاعدة) ؛ وفي نزعة ذرائعية لسياسة واقعيـة قريبة صورة خطرة من النزعـــة الاصلاحية ؛ وفي عودة دغمائية الى النموذج الليذيني للتنظيم الذي لدى استعماله بصورة لا تاريخية كما يحدث هـــذا عندنا ، يصبح لعبة استراتيجية سلطوية تحكمية وبيروقراطية « لحزب يضم طلبة دون عمال » . ومؤكد أن النضالات السياسية القادمة والهدف الذي هو هدفنـــا في تطوير الصراع الطبقي في الجمهورية الاتحادية تتطلب درجة عليا من الانضباط في التنظيم . لقد حققنا في مرحلة حركتنا ، المضادة للسلطة والتحكم ، حـــل مسألة التنظيم عن طريق النزعة الإرادية العفوية التي كانت حركتنا تتصف بها ،

مع وضعنا بكل بساطة مبدأ الوحدة والعمل والتنظيم لذلك فإن علينا أن نتلافى الآن الوقوع في الخطأ المقابل القائم في « حل » مسألة التنظيم بروح نزعة إرادية دغمائية ، متصلبة بأخذنا المبدأ التنظيمي للحزب البولشفي كنموذج *. وحين لا يكون قد وُجِد بعد ، كما هي الحال عندنا وضع لصراع طبقي مكشوف ، ندرك على أوضح نحو وأكثره إيلاماً ، المواقب المدمرة التي تنشأ عن هـــذا المفهوم للحزب وذلك بأخذنا بمثابـــة علامة (حساسة الى حد كبير) هي درجة **التضامن العملي** السائدة في حركة ما . لقد أُجريَ خلال عهد الحركة المضادة للسلطة والتحكم « نقاش دائم حول التحرر » . وكان ذلك هو التعبير المنظم ولكن بصورة عفوية النزعة عن برنامجنا للثورة الثقافية. كان ذلك يتطلب من كل رفيق درجة عاليـــة من القدرة على التأمل الفكري والوصول الى نتائج واضحة تعلن على الملأ ، وتطوير كل رفيق لشخصيته هو نفسه ؛ وكانت درجة التأمل الفكري هذه المطلوبة عالية إلى حد أن كثيراً من الرفاق قد انهـــاروا أمام هذه المتطلبات النفسية . ومع نهاية المرحلة المضادة للسلطة وللتحكم ، من مراحل حركتنا ، فإن هـــذا النقاش حول التحرر قد توقف وهو توقف تمّ على أساس الملاحظة – الصحيحة في ذاتها – بأن هذا النقاش على نحو ما أجريناه ، كان التعبير عن حدودنا الطبقية البورجوازيه الصغيرة وعن جعـــل المسائل السياسية والمسائل الطبقيـــة تنحصر في حدود المفهوم البسيكولوجي الضيق .

---

* يتناسى المؤلف هنا رغم معرفته بل اعتناقه مبادىء الماركسية أن أسس تنظيم الحزب البولشفى الليني هي الأسس المبدئية الماركسية التي أدت فعلاً إلى التفاف جماهير شعب بكامله هو الشعب الروسي (١٥٠ مليون نسمة) حول الحزب البولشفي الذي حقق الثورة الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي وكان الالهم خارج هذا البلد لقيام دول اشتراكيه متطورة اندرجت نظرياً وعملياً في مسيرة التاريخ . وواضح أن رايش يخلط وربما عن غير قصد بين مبادىء اللينينية وسلبيات المرحلة الستالينيه .

(ملاحظه من المترجم . م. ع)

لكن وقف هذا النقاش أدى بالضرورة إلى تدهور شرعيتنـــا ، ذلك لأننا لا نستطيع أن نكتسب هوية طبقية وهوية سياسية لمجرد أن نعلن أنفسنا بغتة ماركسيين – لينينيين .

وهكذا فإن التقلب التنظيمي الذي ينبعث اليوم والانضباط المتسلطبالنسبة إلى مبادىء بعض الماركسيين ـاللينينيين ليسا سوى جانبـ هو الأقل خطراً على كل حال – من عملية تطور يسعى بواسطتها بعض الرفاق إلى إثبـات هوية طبقية وهوية سياسية وذلك لأجل التعويض . والجانب الآخر – وهو أكثر خطراً بكثير على نمو التضامن وتطور الصراع الطبقي – هو تـــدهور للتضامن العملي وبعبارة أخرى فهو هبوط جمـــاعي إلى مستوى بورجوازي صغير من العلاقات البشرية . هذا الهبوط هو النتيجة الحتمية للتطبيق الآلي للمبدأ اللينيني عن الحزب بصفته « نموذجاً » للتنظيم (أنا لا أقول مطلقاً أن المبدأ اللينيني في الحزب هو في ذاته « قمعي » . بل بالعكس فقد عبر الحزب البولشفي في زمنه عن مهمات وحاجات الطليعة الثورية . على هذا النحو فقط استطاع أن يكون «حزب البروليتاريا ». إن هذا الهبوط يجد تعبيره في الانقسامات المتعددة التي لا تعود بسببها إلى أي كفاح سياسي حقيقي وبذلك ليس لها عملياً تأثير إيضاحي ، وهي لا تتيح التقدم ؛ وفي المناورات التكتيكية les magouilles داخـــل الحركة ، هذه الأمور التي أبغضناها أشد البغض والتي ما كنا بأية حاجة إليها ؛ وفي عمليات الثلب والتحقير ، وبمثابة أمثلة فاجعة جداً في هـــذا الصدد نذكر عماية عزل رفاق والتسبب في اضمحلالهم ، وهم رفاق قـــد وجدوا قبلاً « في الحركة » هويتهم السياسة والوجدانية .

إن عمليات التطور التي وصفناها هناليست سوى نزعات داخل سياق تطور ضرورية لتوضيح حركتنا ، وإنني لا أفسر مطلقاً على أنهـــا عمليات انحطاط لحركة ما . لكن كتاب « النشاط الجنسي وصراع الطبقـات » ما تزال تسري

فيه نفحة تفاؤل ساذج في الوقت نفسه مع عـدم تحديد تكويني يميز كل القوة والحدود المقدّرة لحركتنا الرافضة .

مقتطفات من التعقيب الختامي على الطبعه الانكليزية
(نيسان ١٩٧٠)

لا أريد هنا أن أخفي نواقصي النظرية ولا أبررها بهذا الاخفاء ، كما لا أريد أن أخفي أو أبرر ضيق أفق الكتاب وشكله غير المكتمل . وأود فقط أن يفهم القارىء أنه يستحيل عليّ أن أقتصر على تصحيح الكتاب في المواضع التي يستند فيها إلى استنتاجات نظرية خاطئـة أو غير كافية ، أو في المواضع التي يصل فيها الى استنتاجات سياسية تبين في هذه الأثناء أنها خاطئة . إن شطب المهدات النظرية غير الكافية الواردة في بداية الكتاب ، واقتطـاع ما ورد في خاتمته من استنتاجات سياسية غير دقيقـــة ، لإبدالها بعناصر نظرية أصح واستنتاجات سياسية أفضل ركائز ؛ إن ذلك لو حدث لما اقتصر الأمر على أن الكتاب لن يكون في مجمله لا أفضل ولا أصح بل أنه سيغدو بذلك أكثر تغايراً في خواصه وعناصره وأشد انعدام تجانس وأوفر تشوشاً .

إنّ كتاب « النشاط الجنسي وصراع الطبقات » هو ، في طريقة برهنته مدين بمقدار كبير لـ « النظرية الانتقادية » لمدرسة فرانكفورت . وتتميز هـذه المدرسة بانحراف خاص في تطبيق المادية التاريخية ؛ هذه المدرسة لدى شرحها مفهومها عن الوعي الخاطىء – بما في ذلك المظهر النفسي لهذا المفهوم – هي قليلة الاستناد إلى تحليل لعلاقات الانتاج المعينة ؛ وهي أقل استناداً على الأشكال المطابقة لاستعباد رأس المال للعمل ، منها على تفكير ينطلق من تفسير العلاقات بين الوجود والوعي تفسيراً ينحصر فقط تقريباً في تاريخ النظريات . وإذا كان هذا التأمل الفكري لا يعالج مباشرة قضايا التاريخ الحقيقي بل يعالج انعكاسها في تاريخ النظريات ، فإن « النظرية الانتقادية » تبتعد بالضرورة لدى مضيها في

البحث ، عن موضوعها وهو الواقع وحقيقته ، وتصبح انتقاداً لانتقادٍ لانتقاد ، وينتهي بها الأمر إلى أن لا تكون هي ذاتها سوى ايديولوجية . هذا ، ونظراً لأن طرائق النظرية الانتقادية قد جرى تطبيقها في كتاب « النشاط الجنسي وصراع الطبقات » ، بصورة ساذجة دون أن يظهر في الكتاب أدنى تشكك من حيث كيفية استخدامها المادية التاريخية ، فإن أقسام هذا الكتاب المتعاقبة تظل على شيء كثير من عدم الدقة . وأقتصر على إعطاء مثالين اثنين لهما دلالتها في هذا الصدد : اقتصار التحليل على ظاهرة الاستهلاك ، واستخدام مفهوم إعادة الاعتبار إلى التسامي .

وتقريباً فإن جميع مظاهر الأشكال الراهنة لتكييف الرغبات الجنسية ، هي مستخلصة ، في هذا الكتاب ، من تجسدات ما يسمى دائرة الاستهلاك . إن هذا ليس خطأ بصورة حتمية ، إذا لم نخلط بين المظهر وانعكاساته على الوعي وتنظيم الرغبات الجنسية وبين الواقع الذي ينتج هذا المظهر . وهذا الكتاب يعطي الانطباع بأن أقنعة طباع ، نفسية ـ جنسية ، مثل « الإشباع الوهمي للرغبة الجنسية » وقناع « مرحلة البلوغ الدائمة » ، وتجذر كل من هذين القناعين الطباعيين النفسيين الجنسيين في التكوينات الجماعية للرغبة الجنسية وما ينتج عن ذلك من حاجات وطباع ، أقول إن هذا الكتاب يعطي الانطباع بأن هذه الأقنعة ليس فقط تستمد حيويتها المتجددة كل مرة من التجسدات الحالية لتداول السلع ، بل أيضاً أن هذه الأقنعة « تولد » فعلياً من حركة تداول السلع . هذا الانطباع خاطىء . وقد أستتبع نتائج نظرية وسياسية مشؤومة . وفي هذه الحال فإن الأشكال الجماعية لتنظيم الرغبات الجنسية ، وتنمية الوعي والحاجات ، لم تعد لها سوى علاقة بعيدة مع عملية تطور الانتاج الرأسمالي تحت المظهر المزدوج لانتاج القيم الاستعمالية وإنتاج القيمة الزائدة . وتزول أكثر فأكثر إعادة الصلة بين « مصائر الرغبات الجنسية » الجماعية والوضع الطبقي ، أي أنماط

تجديد إنتاج الوجود المادي لـ « جماعة » معينة . وتاريخياً ، في ما يخص الحركة المناهضة للسلطة وللتحكم ، فإن نتيجة سياسية لهذه العجالة النظرية قد أرتسمت منذ الآن : باستطاعتنا أن نسجل في المرحلة الأخيرة من الحركة المناهضة للسلطة وللتحكم تبلوراً يرسي على ركائز نظرية خاطئة « أعمالاً في الدائرة الأستهلاكية » . ليس ذلك لأن هذه الأعمال ذاتها خاطئة ؛ لكنها تظل عقيمة إذا لم ترتبط ببيئة الأنتاج المادي ، وهي البيئة التي سيتقرر فيها بالنهاية مصير الوعي الخاطىء الذي لدى المنتجين عندما يرون أنفسهم بمثابة مستهلكين .

إن مفهوم الإزالة القمعية للتسامي قد أستخدم في الكتاب بصورة لا تسهم في جعل الأمور أكثر وضوحاً . وهي لا قيمة لها إلا بالنسبة لتحليل آلية ما خاصة بطبقة معينة : إن هذا المفهوم يبقى منحصراً في البناء الفوقي الثقافي وفي الشكل التاريخي للتكييف الجماعي للغرائز الجنسية لدى الطبقة البورجوازية . وهذا المفهوم عن الإزالة القمعية للتسامي يأتي مباشرة من ماركوز ؛ وهو يستند إلى أفكار هورخيمر حول « أنحلال الفرد » و « سقوط الأنا » « إن الأنا يذوي » ذلك ما كتبه هورخيمر في محاولته الدراسية **« العقل وحفظ الذات »** ؛ وهو يعتقد بذلك أنه يكتشف نزعة أجتماعية عامة للرأسمالية المعاصرة . ومع ذلك فأنه لا يستطيع أن يعينه سوى على الجانب النفسي من الانحلال الواقعي للبورجوازية . ويكفي إلقاء نظرة سريعة على التاريخ الاجتماعي لنمط المعيشة البروليتاري والبورجوازي الصغير لدحض هذا المفهوم .

وإذا أردنا البقاء في هذا السياق من الأفكار فينبغي أن نصف مثل هذا التطور في بنية الرغبة الجنسية بصفته بأنه بالأحرى تسام قمعي . إن منشأ مفهوم الإزالة القمعية للتسامي هو في الفم المتولد من خراب الطبع المثالي البورجوازي . هذا المفهوم بكامله لا محتوى له إلا لأن الأشكال البورجوازية السابقة لتكييف الغريزة الجنسية (أو بعبارة أصح : تنسيقها الأدبي) تجري

مقارنتها مع الأشكال البورليتارية الراهنة لتكييف الرغبة الجنسية .

ومن جهة أخرى فإن الخطأ الأكثر شيوعاً في « النظرية الأنتقادية » إزاء علم التحليل النفسي يوجد مجدداً في هذا الكتاب « النشاط الجنسي وصراع الطبقات » . إن تطبيق اكتشافات التحليل النفسي على دراسة التاريخ يتطلب إلزامياً مفهوماً واضحاً عن تغيير وظيفة مقولات التحليل النفسي ما بعد البسيكولوجية ، هذا التغير الذي لا بد أن يحدث بالضرورة حين ينتقل المرء من العلم العيادي إلى تطبيق هذه المقولات في إطار المادية التاريخية . وكما أن مقولات التحليل النفسي ما بعد البسيكولوجية ذات بعد تاريخي ، كذلك فإن لمقولات المادية التاريخية بعداً نفسياً . ولو كان الآخر بخلاف ذلك ، فإن تحليلاً للوعي الخاطيء ، من وجهة نظر تاريخية لتجميد تطور الحاجات ، كان مستحيلاً . ومع ذلك « فإن النظرية الأنتقادية » لا تربط إلا بتداعيات غامضة من الأفكار مقولات التحليل النفسي ما بعد البسيكولوجية مع مقولات المادية التاريخية ، هذه المقولات التي أصبحت عناصر تزيينية تقيمها وتزيلها وفق مشيئتها .

وهذا واضح بصورة خاصة في المقاطع المستمدة من ماركوز والتي استشهدت بها في كتابي ، بإلحاح ، وسيظل الأمر على هذا النحو ما دام الباحث لن يستند بالنسبة للمقولتين إلى أصغر قدر مشترك متعدد بينهما . أي إلى تحليل السلعة والطرائق التي استخدمها ماركس برسم الخطوط الكبرى للتطور التاريخي لمختلف أنماط تكييف وعي المنتجين بواسطة الخداع الذي يقوم بالرأسمال ، وخرافة النقود وفتيشية السلعة . عندئذ فقط يمكننا أن ندرج في المادية التاريخية مفاهيم أمثال : التسامي ، تطوير الرغبة الجنسية ، الطبع ، الآنى إلى آخره . وحينئذ فقط ستتمكن هذه المقولات من أن تخدم في تحليل الظاهرات المسماة الإجتماعية – البسيكولوجية ، تلك التي يجري تمويلها بالأحرى من تسميتها بصورة

صحيحة بتسميات أمثال التكيف الإندماج ، الاستمار ، التكييف التضليلي المفتعل ، والإرغام على الإستهلاك .

وأنا أدرك واقع أن عنصري تحليل لهذين العنصرين، وهما من العناصر الحاسمة بالنسبة للكتاب ، يستتبعان مجموعة كبيرة من الاستنتاجات الخاطئة وسأذكر أهمها: إسقاط السلوك الجنسي والآلام النفسية لفتيان الفئات المتوسطة على جميع فئات وطبقات الرأسمالية الالمانية الغربية المعاصرة؛ الدفاع غير الانتقادي عن أولوية العلاقة الجنسية في صياغة فرويد لها، الذي يضع هذه الأولوية بمثابة مثل أعلى للنمط الطبيعي المدروس علمياً والنمط النفسي الجنسي، تشويه إيديولوجي في امتداح الحب والإخلاص لأن هذين يستخدمان كوسيلتين تكتيكيتين لأجل الدفاع ضد « الإزالة القمعية للتسامي » ؛ تشوش وارتباك بصدد تحليل« مصائر الرغبات الجنسية » الخاصة بمختلف الطبقـات الاجتماعية _ أي بصدد الصلات النفسية بين عملية بناء الحاجات والوضع الطبقي ؛ العجز النظري عن تحديد مجموعة مصطلحات بالنسبة للنقطة الرئيسية النفسية للعلاقات بين الوضع الطبقي (أو تجسداتها التجريبية وحالات ضعفها). ولعل أسباب عدم استطاعة تصحيح هذا الاستخلاص أو تلك النتيجة قد أصبحت الآن مفهومة أكثر . ويبدو لي أن ذلك سيكون انتهازياً على الصعيدين النظري والسياسي في وقت معاً . وما كان ذلك ليغيّر المنطق الداخلي لبحثه ولا صياغته ؛ لم يكن ذلك ليؤدي إلا إلى المزيد من انعدام التجانس . والحال فإنه لا يوجد محـــاولة واحدة لعرض متلاحم للعلاقات بين شروط إنتاج السلعة الرأسمالية والأشكال الراهنة لتكييف الرغبات الجنسية ، وشفافيتها في الوعي الطبقي النـاشيء * . وحتى المناقشة

---

* لعل المؤلف لم يطلع على العديد من الأبحاث الفرنسية في هذا المجال . وهي ليست عبارة عن مجرد محاولات بل هناك صياغات تنظيرية شبه متكاملة . مثلاً كتاب لوسيان سيف =

حول « الماركسية والتحليل النفسي» لا تعالج أبداً بصورة واقعية هذه العلاقات. فإن القضية لا تثار عملياً . لهـــذه الأسباب أرى مبرراً لتقديمي للجمهور طبعة كتابي هذا دون أي تغيير .

في مخطوطات عام ١٨٤٤ (الاقتصاد السياسي والفلسفة) يقدم ماركس، عرضاً ،أو تصميماً أولياً لبرنامج لعلم نفس مؤسس على المادية التاريخية: « ونحن نرى كيف أن تاريخ الصناعة والوجود الموضوعي المتكون من الصناعة همـــا الكتاب المفتوح للقوى البشرية الجوهرية وعلم نفس الإنسان ، هذا العلم الحاضر حسياً »... علم نفس يظل مقفلاً بالنسبة له هـــذا الكتاب أي بالضبط القسم الأكثر حضوراً حسياً ، والأسهل منالاً لتاريخ ، لا يمكن أن يصبح علماً حقيقياً وغنياً حقاً بالمحتوى [1]. إن الكتاب الذي يتحدث عنه ماركس لم يُفتح حتى الآن سوى نصف فتحة .

مقتطفات من التذييل الختامي لطبعة « الجيب » الالمانيه
(تشرين الثاني ١٩٧٠)

*

= « الماركسية ونظرية الشخص الانساني » . وقد فعل الفيلسوف الفرنسي أكثر مما يطلبه داروموث رايش، لقد صاغ نظرية انتقادية لمجمل العلوم النفسية والتحليل النفسي السابقة لكتابه، ثم قدم مجموعاً نظرياً ماركسياً متكاملاً لحل قضية العلاقة بين الفرد والمجتمع في سياقها التطوري.

(ملاحظة من المترجم م. ع.)ـ

(١) كارل ماركس « مخطوطات عام ١٨٤٤ » ترجمة بوتيجيلي ، باريس .

لا بد في الختام من تقديم آيات الشكر :

إلى رفاق الحلقة الدراسية « النشاط الجنسي والسيطرة » ونادي المجادلة ، وهيئة S. D. S و A. U. S. S. كما أشكر السيدة هايدي بيرندت والسيد مارتان دامنكر ؛ كما أن المترجمين الفرنسيين نيقول جيرهارتس ، وكلود مانفروي يُشكران على المساعدة التي قدماها في تحقيق هذه الترجمة .



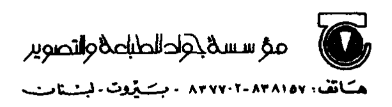
فهرس

صفحة

الفصل السادس :

الفصل السابع




مؤسسة جواد للطباعة والتصوير
هاتف: ٨٣٨١٥٧-٨٣٧٧٠٢ - بيروت - لبنان